

فن الخطابة

الدكتور

أحمد محمد الحوفي

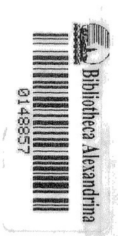
أستاذ الأدب العربي

كلية دار العلوم – جامعة القاهرة

وعضو مجمع اللغة العربية



تأسست سنة ١٩٣٨





الدكتور

أحمد محمد الحوفي

أستاذ الأدب العربي

لية دار العلوم – جامعة القاهرة

وعضو مجمع اللغة العربية



تأسست سنة ١٩٣٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أما بعد :

فقد أحببت الخطابة منذ الحداثة ، فقد كان أهل قريتنا يدفعون الطلاب والتلاميذ إلى أن يخطبوا فيهم يوم الجمعة ، يقصدون تدريبهم على الخطابة ، وتشجيعهم على الكلَف بالدراسة ، ولعلهم أيضاً كانوا يتشوقون إلى سماع نغم جديد غير الذى كانوا يسمعون .

وكانوا فى المحافل الانتخابية ، وفى مجامع الأفراح القروية ، يريدون الطلاب على الخطابة ، فينصتون إليهم ، ويهشون لهم ، ويفخرون بهم .

وكان أهل القرية – حتى الأميون منهم – يحفظون فقرات شتى من خطب الساسة ، يردّدونها فى أسمارهم وفى حقولهم .

وأذكر أنى قد رأيت نفراً منهم يعزقون الأرض – ليس فيهم قارئ واحد – وقد تمهلوا قليلا ريثما يستريحون ، وإذا بواحد منهم يعتمد على يد فأسه ، وينحنى قليلا إلى الأمام ، ويشرع يلقى ما حفظ من خطبة سياسية ، كان قد سمعها فى حفل انتخابى قريب ، وكنت إذ ذاك فى مطلع الدراسة الثانوية ، فدهشت وأعجبت ، وأذكيتُ هذا الميل ، على قد أذكانى أيضاً .

ثم كانت بعد ذلك أحداث سنة ١٩٣٥ وسنة ١٩٣٦ ، وكنت عضواً فى لجنة الطلبة التنفيذية العليا ، وكنا نجتمع فى النهار ، ونجتمع فى الليل ، وكانت الخطابة سلاحنا ، ووسيلتنا إلى بث الفكرة ، وذيوع الكلمة .

كنا نخطب فى كلياتنا ، وفى النوادى السياسية ، ونخطب أمام إخواتنا ، وعلى

مسمع من أساتذتنا ، ونخطب أمام من نعرف ومن لا نعرف ، فاجتمع الميل القديم إلى الحب الجديد ، فازددت كلفا بالخطابة ، وهياما بالبارعين فيها .

ثم مضت بعد ذلك سنوات انقطعت فيها عن الخطابة انقطاعا ، وإن لم تنقطع صلتى بها قراءة وسماعا ، حتى أويت إلى كلية دار العلوم لأدرس بها ، وكانت الخطابة بعض ما أدرّسه لطلابها ، فاستثرت ميل الحداثة ، وأحييت هوى الشباب ، وشفعت إليها التجربة والقراءة ، وأودعت هذا الكتاب عصارة ذلك كله .

وليس من قصدى أن أعرض هنا تاريخ الخطابة فى عصر من أعصارها ، أو فى كل أعصارها ، فإن ذلك من عملنا فى تأريخنا للأدب ، وإنما أريد هنا أن أدرس الخطابة على أنها فنّ عملى من فنون القول ، لتكون هذه الدراسة هديا للذين يجدون فى أنفسهم ميلا إلى الخطابة ، يكشف لهم الطريق ، ويوضح الخطة .

وقد آثرت أن أكثر من النصوص ، لأن النظريات التى لا تعتمد على النصوص ضعيفة التأثير ، وسريعة الزوال .

على أنى عدلت فى الطبعة الثانية ، ثم توسعت فى التعديل فى الطبعتين الثالثة والرابعة ، فقدمت ، وأخرت ، وحذفت ، وأضفت كثيراً من النصوص ، وزدت ألواناً من الدراسة ، عملا بقول العماد الأصفهانى : « إنى رأيت أنه لا يكتب إنسانٌ كتاباً فى يومه إلا قال فى غده : لو غُيِّر هذا لكان أحسن ، ولو زيد كذا لكان يستحسن ، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل ،

وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر » .
وأرجو أن يكون الكتاب فى طبعته الأخيرة ، أوفى بالغرض ، وأقرب إلى الكمال . وبالله التوفيق .

أحمد محمد الحوفى

الفصل الأول

الخطابة والخطيب

١ – تعريف الخطابة

هى فن مشافهة الجمهور وإقناعه واستمالته .

فلابد من مشافهة ، وإلا كانت كتابة أو شعراً مدوناً .

ولابد من جمهور يستمع ، وإلا كان الكلام حديثا أو وصية .

ولابد من الإقناع ، وذلك بأن يوضح الخطيب رأيه للسامعين ، ويؤيده بالبراهين ، ليعتقدوه كما اعتقده ، وأقصد بالإقناع ذلك النوع الخطابى الذى سأتحدث عنه فى الفصول الآتية .

ثم لابـــد من الاستمالة ، والمراد بها أن يهيج الخطيب نفوس سامعيه أو يهدئها ، ويقبض على زمام عواطفهم يتصرف بها كيف شاء ، ساراً أو محزناً ، مضحكا أو مبكياً ، داعياً إلى الثورة أو إلى السكينة .

وإذاً فأسس الخطابة : مشافهة ، وجمهور ، وإقناع ، واستمالة .

ومن السهل بعد ذلك أن يتبين قصور تعريف الخطابة بأنها : فن الكلام الجيد ، لأن الكلام الجيد ينتظم الخطابة والكتابة والشعر .

ومن السهل أيضاً أن نرى نقصاً فى تعريفها بأنها القدرة على النظر فى كل ما يوصل إلى الإقناع فى أى مسألة من المسائل[١] ، لأن كثيراً من الكتب مقنع ، وكثيراً من الكتاب مقنعون ، لأن الأساتذة فى شرحهم ومحاضراتهم مقنعون .

---

(١) الخطابة لأرسطو ١/١٠٠ ترجمة الدكتور إبراهيم سلامة .

وليس واحد من هؤلاء خطيباً ؛ لأنهم يتجهون إلى العقل لا إلى العاطفة ، فهم يقنعون ولكنهم لا يستميلون .

ثم من السهل أن نجد نقصاً فى تعريف الخطابة بأنها فن الاستمالة ؛ لأن المنظر الطبيعى الراق يستميل الذواقين للجمال وليس خطبة ، ولأن الممثل البارع يستميل النظارة بإشارته أو حركته أو زيه أو وقفته دون أن ينطق ، فليس بخطيب ، ولأن البائس العارى الجسد ، المهلهل الثوب ، المغضن الوجه ، المعروق الجسد ، قد يستميل المحسن بمنظره هذا ، وما هو بخطيب .

٢ – قيمتها

الخطابة – منذ كانت – سلاح المجتمع الإنسانى فى سلمه وحربه ، وفى ترقيته والإسراع به نحو المثل الأعلى الذى يجب أن يقصد إليه .

فليس بدعاً أن كانت بلاغ النبيين إلى أممهم ، والراح الذى يسكبه القواد فى نفوس جنودهم قبيل المعركة ، فيسرعون باسمين إلى قتال أعدائهم ؛ وغصن الزيتون يلوح به دعاة السلام فى عالم كربه العداء والخصام ، والقوة الساحرة التى يقود بها الزعماء السياسيون والمصلحون الاجتماعيون أممهم إلى حياة أرقى وأعز وأبقى ، ولسان الأحزاب السياسية تنشر به دعوتها ، وتظفر به على خصومها ، ونوراً يهدى القضاة إلى العدالة وتبرئة المظلوم والقصاص من الباغى .

ثم هى فى العصر الحديث خاصة ، عُدّة الزعماء والساسة ، تستند إليها الديمقراطية ، وتعتمد عليها الدكتاتورية ، ويتسلح بها المؤتمرون فى المجامع الدولية ، ويصعد عليها النواب إلى قمة الشهرة وذيوع الأحدوثة ، ويرتقى بها المحامون إلى الصيت الطائر ، والثراء الغامر .

فلا عجب أن أقام (سنيكا) من البلاغة – والخطابة بلاغة – إلهاً مجهولا فى صدر البليغ ، وجعلها (كانتيليان) الواسطة للحصول على الحقيقة ، ووضعها (كنار) فى القلب والتصور ، ومثلها الأقدمون بإله يتكلم ، فتنتظم من فمه

سلاسل من ذهب تربط السامعين. ولا عجب أن قال النبى عليه الصلاة والسلام : إن من البيان لسحراً .

٣ - لماذا ندرسها ؟

إذا كانت الخطابة لها هذا الأثر العظيم فى حياة الأمم والجماعات والأفراد فهى جديرة بأن تدرس ، وجديرة بأن توضع لها أصول .

ذلك أن فن الخطابة يحاول تحليل الخطب ، واستنباط الأصول العامة للخطابة الناجحة ، ويرسم السبل التى يسلكها الخطيب ليستميل الجمهور ويقنعه .

وبهذا تقوى الخطابة ، ويتزود الخطباء بتجارب سابقيهم ، وتنضج مواهبهم ، ويقفون على خصائص الخطباء الكبار ، وعلى ما فى خطبهم من دقائق كفلت لهم البراعة .

ومنذ القديم وضع أرسطو للخطابة أصولا ما تزال تراعى ، وقرر أنها فن فى قوله : « إن كل الناس يلجأون للخطابة والجدل بدرجات متفاوتة ، وبعض الناس يمارس الخطابة والجدل فطرة وسليقة ، وبعضهم الآخر يمارسها بالمرانة التى اكتسبها من مقتضيات الحياة ، والوسيلتان ممكنتان ، فواضح أن تكون هناك طريقة ، وأن يكون هناك مجال لتوجيه تطبيقها ، ولضرورة النظر فى السبب الذى يؤدى إلى إنجاح هذا العمل المنساق بالعادة ، أو المندفع بالفطرة والسليقة ، ولا يشك إنسان فى أن مثل هذه الدراسة من خاصة الفن[١] » .

ولقد يعترض بأن الخطابة سلاح ذو حدّين ، فهى أحياناً تتخذ وسيلة للشر والإيذاء ونصرة الباطل على الحق ، ويجيب أرسطو على ذلك بقوله : « هذا الاعتراض يرد - إذا استثنينا الفضيلة - على كل خير ومفيد ، كالقوة والصحة واليسار والقيادة العسكرية ، فهذه كلها وسائل للعمل ، قد تؤدى إلى خير كثير لو أحسن الانتفاع بها ، وقد تؤدى إلى كثير من الشرور لو أسئ تطبيقها[١] » .

(١) الخطابة لأرسطو ٩٠/١ ترجمة الدكتور إبراهيم سلامه .

(١) المرجع السابق ٩٦/١ .



الخطيب

(ا) عدّته وصفاته :

١ – الاستعداد الفطرى .

٢ – اللّسن والفصاحة .

عيوب النطق : اللثغ ، والحصر والاستعانة .

٣ – سعة الثقافة .

٤ – معرفة نفسية السامعين .

٥ – سرعة البديهة .

٦ – حرارة العاطفة .

٧ –روعة المنظر ، جودة الإلقاء :

الوقفة ، حسن الإشارة ، جهارة الصوت وحلاوته ، جمال الهندام ، جمال الخَلْق .

٨ – سمو الخُلُق .

(ب) الشاعر والخطيب .

(جـ) الخطيب والممثل .

عرفنا مكانة الخطابة فى حياة الأمم والأفراد ، ونريد الآن أن نعرف صفات الخطيب ، والعدّة التى يخوض بها هذا الميدان والتى يتميز بها من غيره .

١ – الاستعداد الطبيعي

وأول ما يعترضنا هذا السؤال : أيستطيع الإنسان أن يصير خطيباً بكثرة المرانة والمزاولة أم لا غنى له عن هبة طبيعية سابقة تنميها المرانة ، وتذكيها المزوالة ؟ فهى كالبذرة الحية تنبت وتزكو إذا بذرت فى تربة خصيبة وجو صالح ؟

وجوابنا على ذلك أن الخطيب كالشاعر والموسيقار والرسام لابد أن يكون فى فطرته استعداد لهذا الفن البليغ ، ينبع من نفسه ويمده ، ونحن نعلم أن الناس متباينون فى ميولهم وفى استعدادهم ، فمنهم من لا تهزه المناظر الرائعة أو المروعة ، ومنهم من يصمت أمام هذه المناظر دهشاً مذهولا ، وفيهم من تجيش بالأحاسيس نفسه ، فيعبر عن جيشانه بكلمات مصورة لما يحس .

والخطيب والشاعر والكاتب من هؤلاء الذين إذا ماثارت عواطفهم فسحت لها متنفساً فعبروا وصوروا .

وفى بعض تعاريف البلاغة عند العرب والفرنجة ما يؤيد أنها طبع فى البلغاء.

فأبو الحسن الرُّمَّانى يقول : أصل البلاغة الطبع .

وصُحار بن عَيَّاش العَبدى يجيب معاوية وقد سأله : ما هذه البلاغة التى فيكم ؟ بقوله : شئ تجيش به صدورنا ، فنقذفه على ألسنتنا .

ولا هارب يرى أن البلاغة هى التعبير الصحيح عن عاطفة حقيقية .

ولا برونار يذهب إلى أنها نعمة روحانية نسيطر بها على قلوب الناس وعقولهم .

وفيرى يقول : إنها حدة التصور ، وقوة التصوير .

وقد سمى شيشرون البلاغة حركة النفس الدائمة .

وعرفها مارمونتل بأنها فطرة قبل أن تكون فناً .

٢ – اللسن والفصاحة

ولا بد للخطيب أن يكون لِسناً فصيحاً ذَرِبَ اللسان . بليل الريق ، قديراً على التعبير ؛ لأن منطقه هو ثروته وعدته ، وهو بمنطقه يقنع ، وبمنطقه يستميل ، وما هزَّ المنابر فى القديم والحديث ، ولا تزعَّمَ الأمم وقاد الجماهير إلا اللُّسْن الفصحاء .

وقد علِم العرب بتجاربهم أن سَعة الشِّدْقين عَوْن على اللَّسَن فامتدحوها ، قيل لأعرابى : ما الجمال ؟ قال « ...ورَحَبُ الشِّدْقَيْن » .

وتكلم الخطباء عند معاوية فأحسنوا ، فقال : والله لأرمِيَنَّهم بالخطيب الأشدق ، قم يايزيد فتكلم .

ومن مدحهم سعة الشدقين قول الشاعر :

وصُلْعُ الرءوس عظام البطون رحاب الشِّدق طِوال القَصَر[١]

وذموا ضيق الأفواه ، قال الشاعر :

لحىَ الله أفواه الدَّبى من قبيلة إذا ذِكَرتْ فى النائبات أمورها[٢]

فشبه أفواههم بأفواه الجراد .

ومن نقص الخطيب أن يكون بمنطقه عيب يعوق سهولة المخارج وسلامة الحروف واستواءها ، كاللجلجة ، والفأفأة ، والتمتمة ، واللَّثغة ، واللَّفَف ؛ والحُبْسة ، والحُكْلة[٣] .

وتلك عيوب تبدو منذ الطفولة ، راجعة إلى وراثة أو مرض أو سوء محاكاة أو تعجل فى النطق أو خجل الخ ، ولكن من المستطاع علاجها .

---

(١) ، (٢) البيان والتبيين ١١٤/١ – ١١٥ القصر : الأعناق . الدبى : الجراد .

(٣) اللجلجة : التردد فى الكلام . الفأفأه : ترديد الفاء وإكثارها فى الكلام . التمتمة : رد الكلام إلى الفاء والميم . اللثغة واللثغ : تحول اللسان من السين إلى الثاء أو من الراء إلى العين أو اللام أو الياء أو من حرف إلى حرف . اللفف : العى والبطء فى الكلام وأن يملأ لسان المتكلم فمه فلا يبين . الحبسة : تعذر الكلام عند إرادته . الحكلة : العجمة فى الكلام .

(١) اللثغ :

إبدال حرف حرفاً ، والشائع منه إبدال الراءياء أو غيناً ، والغين أقل قبحاً ، وهي كثيرة فى كبار الناس وبلغائهم وأشرافهم وعلمائهم[١] .

ولكنها بالجهد والمثابرة تزول ، فقد كان محمد بن شبيب المتكلم إذا حمل نفسه وقوّم لسانه ينطق الراء صحيحة ، وكثير من معاصرينا زاولوا هذا ونجحوا .

وقد كان واصل بن عطاء ألثغ فاحش اللثْغَ ، وهو شيخ من شيوخ المعتزلة ، ذو رأى يدعو إليه ويذيعه ويلاحى عنه ، ويقارع الأبطال بالخطب الطوال ، فلابد له من بيان سليم ، وسهولة مخرج ، وجهارة منطق ، وتكميل حروف ، وإقامة وزن ، فعمد إلى الراء فأسقطها من كلامه ، وأبعدها من منطقه ، ولم يزل يكابد ذلك ويغالبه ، حتى انتظم له ما حاول ، واتسق له ما أمل « ولولا استفاضة هذا الخبر ، وظهور هذا الحال حتى صار لغرابته مثلا ، ولظرافته مُعْلَماً لما استجزنا الإقرار به والتأكيد له . ولست أعني خطبه المحفوظة ورسائله المخلدة ؛ لأن ذلك يحتمل الصنعة ، وإنما عنيت مُحَاجَّة الخصوم ، ومناقلة الأكفاء ، ومفاوضة الإخوان »[٢] .

ومن أمثلة مجافاته للراء قوله فى بشار بن برد وقد هجاه ، وصوب رأى إبليس فى تقديم النار على الطين : « أما لهذا الأعمى الملحد المشنَّف المكنى بأبى معاذ من يقتله ؟ أما والله لولا أن الغِيلة سجية من سجايا الغالية لبعثت إلى من يبْعَجُ بطنه على مضجعه ، ويقتله فى جوف منزله أو فى حَفْله » .

فلم ينطق بكلمة بشار ، أو ابن برد ، أو المُرَعَّث ، أو الكافر ، واختار عوضاً منها كلمات لاراء فيها ، وقال الغالية ولم يذكر المنصورية أو المغيرية ، وقال «بعثت» بدلا من أرسلت ، وقال «على مضجعه بدلا» من على فراشه .

---

(١) البيان والتبيين ٢٨/١ .

(٢) البيان والتبيين ٢٨/١ .

وكان إذا أراد أن يذكر البر قال : القمح (وهى شامية) والحنطة (وهى كوفية) وهو يعلم أن البر أفصح .

وقد كان بشار – من قبل أن يدين بالرجعة ويكفر الأمة – كثير المديح لواصل بن عطاء ، وقد فضله على خالد بن صفوان وشبيب بن شيّبة والفضل ابن عيسى يوم خطبوا عند عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والى العراق ، لأن خطبته التى نزع منها الراء كانت أطول من خطبهم فقال بشار :

تكلفوا القولَ والأقوامُ قد حفلوا وحبَّروا خطباً ناهيك من خطب

فقام مرتجلا تغلى بداهته كَمِرْجَلِ القين لما حفَّ باللهب

وجانبَ الراء لم يشعر به أحد قبل التصفح والإغراق فى الطلب[1]

وبلغ بالعرب اجتواؤهم للثغ أن طلق أبو رَمادة امرأته حين وجدها لثغاء ، مخافة أن تجيئه بولد ألثغ . فقال :

لثغاء تأتى بحيَفْسٍ ألثغ تَميسُ فى الموشِىِّ والمصَبَّغ[2]

وكانوا يعرفون أن سقوط الثنايا يجلب اللثغ . ولذلك قال سهل ابن هارون : لو عرف الزنجى فرط حاجته إلى ثناياه فى إقامة الحروف وتكميل جميل البيان لما نزع ثناياه .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى سُهَيْل بن عمرو الخطيب (وكان قبل إسلامه من أخطب الناس وأشدهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم) : يارسول الله انزع ثَنِيَّتَيْهْ السفليَيْن حتى يدلَع لسانه . فلا يقوم عليك خطيباً أبداً[3] . وإنما قال ذلك لأن سهيلا كان أعلم من شفته السفلى .

ولما شد عبد الملك بن مروان أسنانه بالذهب قال : لولا المنابر والنساء ما باليت متى سقطت .

---

(١) البيان والتبيين ٣٥/١ .

(٢) الحيفس : الغليظ الضخم . لا خير عنده والذى يغضب ويرضى من غير شئ .

(٣) المغازى للواقدى ١٠١ .

وكان ديموستين خطيب أثينا ومدرهها ألثغ ، فلما خطب هزئ به سامعوه ، فكاد ذلك يوئسه ، لولا أن أستاذه شجعه على إصلاح عيبه ، فعكف على المطالعة وإصلاح لسانه ، حتى لقد رووا أنه كان يحلق نصف رأسه ، ويقيم فى بيته أشهراً يتمرن على الخطابة والإشارة ، وأنه كان يذهب إلى شاطئ البحر ، ويضع فى فمه حصاة ، ويخطب على هدير الموج ، كأنه جمهور عظيم ، حتى صلح لسانه .

(ب) الحصر والرتج :

قد يعترى الحَصَر الخطيب فيبرد جسمه ، وتخور قوته ، ويتصبب عرقه ، ويدور رأسه ، وتطن أذنه ، ويشحب لونه ، وتسرع ضربات قلبه ، وربما يعتريه الحصر حين يعتلى المنبر ، وربما يصيبه وهو يخطب ، لحادث يعرض من السامعين ، أو لوهم يتوهمه . قال أبو هلال العسكرى : « الحيرة والدهش يورثان الحُبْسَة والحصر ، وهما سبب الإرتاج والإجبال »[1] .

حدَّثوا أن عبد ربه اليشكرى كان عاملا على المدائن ، فصعد المنبر ليخطب خطبة الجمعة ، فحمد الله ثم أُرْتِجَ عليه فسكت ، ثم قال : والله إنى لأكون فى بيتى ، فتجئ على لسانى ألف كلمة ، فإذا قمت على أعوادكم هذه — يريد المنبر — جاء الشيطان فمحاها من صدرى . ولقد كنت أحب يوم الجمعة فصرت أبغضه ، وما ذلك إلا لخطبتكم هذه .

وقد يَحْصَر الخطيب مرة فيهجر من بعدها المنابر ، ويخجل من لقاء الجماهير ، ولذلك تعوذوا منه ، وقال النَّمِر بن تَوْلَب[2] :

أعذنى ربِّ من حصَر وعيٍّ ومن نفس أعالجها علاجا

وقال أبو العِيال الهذلى يرثى أخاه :

ألا لله درك من فتى قوم إذا هَبُّوا
وقالوا مَنْ فتى للنحر ب يَرقُبُنا ويرتقب ؟

(١) الصناعتين ص ٢١ .
(٢) البيان والتبيين ١٦/١ .

فكنتَ فتاهُمُ منها   إذا يُدْعَى لها يَثِب
ولا حَصِرٌ بخطبته   إذا ما عزَّت الخطب[1]

فعلى من يتصدى لمواقف الخطابة أن يكون رابط الجأش ، قوى القلب ، جريئا على مواجهة الجماهير ، وتحمل ما قد يحدث أو يقع حتى لا يعيا ولا يحصر . وليثق بنجاحه سلفا ، ويتسلح بثقته فى نفسه وفى تقدير الجمهور له ، والمثل الإنجليزى يقول : لابد من إخفاق المتردد أو المتلعثم He who hesitates is lost

قال غمبتا فى رسالة إلى أبيه قبل اعتلائه المنبر أول مرة : « يوم الخميس سأقف خطيبا لأول مرة ، وإنى لمنتظر هذه الساعة بفارغ الصبر ، وقلبى يخفق لها ، ولكن لا عن خوف أو اضطراب ، ولن يكون لى فى الحياة يوم أسعد من هذا اليوم ... لقد رأيت وسمعت فى شهور ثلاثة مشاهير المحامين وصغارهم ، وأقول لك غير مختال : إن آمالى قد تضاعفت ، وثقتى قد تزايدت . كنت منذ ستة أشهر أرجف فَرَقًا لدى فكرة النضال مع هؤلاء . أما الآن فقد غلبت الجسارة علىَّ ، وفاز باللذة الجسور »[2] .

والخطيب الماهر من يجيد التخلص من الحَصَر إن وقع له ، بكلمة عاجلة أو جملة مؤثرة ، فقد أرتج على عثمان بن عفان رضى الله عنه فى أول خطبة له ، فقال : « أيها الناس إن أول مركب صعب ، وإن أعش تأتكم الخطب على وجهها ، وسيجعل الله بعد العسر يسراً » .

ولما قدم يزيد بن أبى سفيان الشام واليًا عليها لأبى بكر خطب الناس فأرتج عليه ، فعاد إلى الحمد لله ، ثم أرتج عليه ، فعاد ، ثم أرتج عليه ، فقال : « يا أهل الشام لعل الله أن يجعل بعد العسر يسرا ، وبعد عىٍّ بيانا ، وأنتم إلى إمام فاعل أحوج منكم إلى إمام قائل » .

وصعد ثابت قُطْنَة منبر سِجِسْتان يوم الجمعة فرام الكلام ، فتعذر عليه

---

١) البيان والتبيين ١/١٧ .

٢) الخطابة للدكتور نقولا فياس ١١٠ بتصرف .

وحَصِر ، فقال : سيجعل الله بعد عسر يسرا . وبعد عى بيانًا ، وأنتم إلى أمير فعال أحوج منكم إلى أمير قوال .

فإن لا أكن فيكم خطيبا فإننى   بسيفى إذا جَدَّ الوغىَ لخطيب

فلما بلغت كلماته خالد بن صفوان قال : والله ما علا ذلك المنبر أخطب منه فى كلماته هذه[1] .

وخطب عبد الله بن عامر بالبصرة فى يوم أضحى فأرتج عليه ، فقال : والله لا أجمع عليكم عِيًّا ولؤما ، من أخذ شاة من السوق فهى له وثمنها علىَّ[2] .

وبعض الخطباء عجزوا عن التخلص اللطيف فأضحكوا . من ذلك ما روى الجاحظ أنه قيل لرجل من الوجوه : قم فاصعد المنبر وتكلم . فلما صعد حَصِر وقال : « الحمد لله الذى يرزق هؤلاء » وبقّى ساكتاً ، فأنزلوه . وصعد آخر ، فلما استوى قائماً وقابل بوجهه وجوه الناس ، وقعت عينه على صلعة رجل ، فقال : « اللهم العن هذه الصلعة » .

ودُعِى مصعب بن حيَّان ليخطب فى نكاح ، فحصِر ، فقال :

« لَقِّنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله » فقالت أم الجارية : عَجل الله موتك ، ألهذا دعوناك ؟[3] .

(جـ) الاستعانة :

قال رجل للعتَّابى : : ما البلاغة ؟ فقال : كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حُبْسَة ولا استعانة فهو بليغ . قال : قد عرفت الإعادة والحبسة ، فما الاستعانة ؟ قال : أن يقول عند مقاطع كلامه : يا هناه ، ويا هذا ، ويا هيه ، واسمع منى ، واستمع إلى ، وافهم عنى ، أو لست تفهم ؟ أو لست تعقل ؟ فهذا كله وما أشبهه عىّ وفساد .

---

(١) الأغانى ٤٧/١٣ ساسى .

(٢) جمهرة خطب العرب ٣٦٩/٣ .

(٣) جمهرة العرب ٣٧١/٣ ، ٣٧٥

ومن الاستعانة أن يمسح عُثْنونه ، أو يفتل أصابعه . أو يكثر التفاته من غير موجب ، أو يتساءل من غير سعلة ، أو ينبهر فى كلامه ، قال الشاعر :

مـلىء بـبُـهْـرٍ والـتفات وسَعْلةٍ ومَسْحةِ عُثْنون وفَتْلِ الأصابع [1]

وقال آخر :

أعـوذ بـــــالله مـن الإهمال ومن كلال الضَّرْب فى المقال
ومن خطيب دائم السعال

٣ — سعة الثقافة

قيل لعبد الملك بن مروان : عجل إليك الشيب يا أمير المؤمنين . قال : وكيف لا يعجل علىَّ ، وأنا أعرض عقلى على الناس فى كل جمعة مرة أو مرتين أو قال : شيبنى صعود المنابر والخوف من اللحن [2] .

حقاً إن الخطيب يعرض على الناس عقله . ويعرض عليهم ما عنده من تجربة أو فكرة أو عقيدة . الحياة كلها مجاله وميدانه . فهو فى مسيس حاجة إلى التاريخ والدين والاقتصاد والقانون والاجتماع . . . وفى الدين مفتقر إلى التعمق فى مسائله ، وإلى التاريخ ، ودراسة أحوال المجتمع ونظمه وعاداته . . . وفى القضاء يستمد من الشرائع والقوانين وعلم النفس الفردى والجمعى والإجرامى ، وهو فى الخطب كلها يغترف من اللغة والأدب . وكلما استبحرت ثقافته ، واستفاضت قراءته ، غزرت معانيه ، وسمت أفكاره . وقويت أدلته . وسأعرض لهذا الموضوع بالتفصيل فى أنواع الخطب .

وإذا كان خطباء العرب فى الجاهلية قد جروا على الفطرة فإنهم كانوا متفوقين على معاصريهم ، ولم تكن دواعى الخطابة وأنواعها وظروفها قد تشعبت وتعددت

---

(١) البيان والتبيين ٢٧/١ البهر : تتابع النفس . العثنون : اللحية .
(٢) جمهرة خطب العرب ٣٧٦/٣ .

وتعقدت ، وكان الجمهور كله ساذج المعارف ، أما الآن فالخطيب أيا كان موضوعه لا يقنع ولا يستميل إلا إذا كان دارساً لموضوعه ، ومثقفا ثقافة عامة تضفى على قوله جِدَّة .

ليس للخطابة موضوع خاص تبحث عنه بمعزل عن غيره . فإنها لا تَخِيمُ عن النظر فى كل العلوم والفنون . ولا شىء إلا ويتطالُ إليه جيدْ كلامها . ويخضع لسلطان لسانها . ومن ثم يجب على الخطيب أن يكون ملماً بمعارف شتى .

ولا يستغنى الخطيب عن الاطلاع الدائم ، وإلا تخلف وأَكْدَى وفتر تأثيره . فالروح كما قال فولتير : « نار إذا أنت لم تطعمها لتزيد وتقوى تناقصت وخبت » . والإنسان بالتعلم ومجالسة العلماء ، وبطول التقليب للكتب ، يجود لفظه ويحسن أدبه ، وهو كما يقول الجاحظ « لا يحتاج فى الجهل إلى أكثر من ترك التعلم ، وفى البيان إلى أكثر من ترك التخير » . ويقول فى موضوع آخر : « وأنا أوصيك ألا تدع التماس البيان والتبيين ، وإن ظننت أن لك فيهما طبيعة ، وأنهما يناسبانك بعض المناسبة ، ويشاكلانك فى بعض المشاكلة ، ولا تهمل طبيعتك فيستولى الإهمال على قوة القريحة ، ويستبد بها سوء العادة » . ويحذر من مخالفة غير المثقين ومن ترك الاطلاع بقوله : « ولو جالست الجهال والنّوكى والسخفاء والحمقى شهراً فقط لم تُنَقَّ من أوضار كلامهم وخبال معانيهم بمجالسة أهل البيان والعقل دهراً ، لأن الفساد أسرع إلى الناس ، وأشد التحاما بالطبائع[1] » .

على أن الخطب تختلف أنواعها وموضوعاتها فى مقدار حاجتها إلى ثقافة الخطيب ، وفى نوع هذه الثقافة ، فالخطب السياسية والقضائية تحتاج إلى قدر من الثقافة أكثر مما تتطلب الخطب الحربية والحفلية ، والألوان الثقافية التى تقتضيها الخطبة السياسية غير الألوان التى تقتضيها الخطبة القضائية .

كذلك يختلف القدر المطلوب من الثقافة بحسب السامعين ، فلكل جمهور نوع من الثقافة يناسبه .

---

(1) البيان والتبيين ١/٨٦ .

والخطيب فى جميع الحالات محتاج إلى أن يكون مزوداً بقسط من الثقافة يستطيع به أن يجيد الموضوع الذى يخطب فيه ، ويستطيع به أن ينير الطريق أمام سامعيه ، ويشعرهم بأنه أضاف إلى معارفهم جديداً ، ولقد يعتمد على ثقافته فى إضفاء الجدة والطرافة على الموضوعات المعتادة فى خطب التكريم والتأبين ، فيسترعى الانتباه ، وينال الإعجاب .

وفى عصور الثقافة لابد للخطيب أن يضيف عنصر المعرفة إلى العناصر الأخرى التى تقوم عليها شخصيته .

لهذا أوجب أرسطو – متأثراً بعصره – على الخطيب أن يلم بنظم الحكم ، وأصول الأخلاق ، وأنواع الأدلة ، وموارد الدولة ومصارفها ، وطرق تنمية الثروة ، وما شاكل ذلك مما كانت تقتضيه أحوال المجتمع الإغريقى فى القرن الرابع قبل الميلاد .

٤ – معرفة نفسية السامعين

هدف الخطيب أن يتغلغل فى نفوس سامعيه ، فيصرفها كما يشاء ، معتمداً على إثارة عواطفهم ، وإشعال مشاعرهم .

وسبيله إلى ذلك أن يلم بعلم النفس الاجتماعى ، ليعرف روح المجتمع وعقليته ، ويقف على طبائع النفوس وعواطفها ، ويعلم ما يثير هذا المجتمع أو يهدئه ، وما يرضيه أو يغضبه ، وأى الأساليب ملائم له ، أهو أسلوب البسط والإطناب ؟ أم أسلوب الإيجاز والإشارة والاقتضاب ؟

والخطيب الناجح من امتزجت بروح السامعين روحه ، فكان هو وهم كسلكين كهربيين سالب وموجب ، يلتقيان فيشع منهما ضوء وحرارة .

والسامعون من طبقات شتى وبيئات عدة ، فيهم الكبير والصغير ، والمتعلم والأمى ، والفقير والغنى ، والخصم والولى ، فعليه أن يمهد الطريق إلى إقناع هذا الجمهور المتباين وإلى التأثير فيه .

فالعواطف تختلف حسب الموضوعات من سكينة وهياج ، وطمأنينة وخوف ، وكره وحب ، ورضا وسخط . وتختلف فيما يثيرها ، فعواطف الفقير يثيرها مالا يثير عواطف الغنى ، وعواطف الشاب يهيجها غير ما يهيج عواطف الشيخ ، ثم هى تختلف تبعاً لمزاج السامعين وميولهم ، فبعضهم مثلا حساس فيما يتصل بالوطنية ، وبعضهم فيما يتصل بالدين أو الفضيلة وهكذا .

فمثلا للخطابة أدلة وجدانية تثير الرغبة والإحساس ، وهذه صالحة للتأثير فى العامة فى مجال الوعظ والإرشاد وإشعال ثورة أو إخمادها ، ومثلها خطبة شكسبير التى صاغها على لسان أنطونيو فى تأبين قيصر فى رواية (يوليوس قيصر) فقد سحر الجماهير وقلبهم من مؤيدين لقتلة قيصر إلى ناقمين عليهم ، ملتاعين لمصرعه ، مطالبين بثأره .

ومن أمثلتها خطبة الإمام على بن أبى طالب ، وقد أغار الضحاك بن قيس على الحيرة من قِبَل معاوية ، وغنم من أموال أهلها ، فاستصْرخ علىٌّ الناس فتقاعدوا ، فقام فيهم خطيباً ، فوبخهم وقرعهم بأدلة خطابية ، ثم استحثهم على الجهاد لحماية أعراضهم ودينهم ، ثم أقسم لهم أنه لن يصدقهم ، ولن يرجو نصرتهم ، ثم عجب من أن يكونوا رجالا كرجال معاوية ، ولكنهم لا يعملون عمل الرجال . قال : « أيها الناس المجتمعة أبدانهم ، المختلفة أهواؤهم ، كلامكم يوهى الصُّمَّ الصِّلاب ، وفعلكم يُطْمِعُ فيكم الأعداء ، تقولون فى المجالس كيت وكيت ، فإذا جاء القتال قلتم حِيدِى حَيادِ ، ما عزت دعوة من دعاكم ، ولا استراح قلب من قاساكم .

أىَّ دار بعد داركم تمنعون ؟ ومع أى إمام بعدى تقاتلون ؟ المغرور والله من غررتموه ، ومن فاز بكم فقد فاز والله بالسهم الأخيب ، ومن رَمَى بكم فقد رمى بأفوق ناصل .

أصبحت والله لا أصدق قولكم ، ولا أطمع فى نصركم ، ولا أوعد العدو

بكم ، ما بالكم ، ما دواؤكم ؟ ما طِبُّكم ! القوم رجال أمثالكم . . »[1] .

وللخطابة أدلة عقلية منطقية إذا كان المخاطبون علماء أوساسة أو قضاة ، وكثيراً ما يجمع الخطيب بين الأدلة الوجدانية والعقلية .

ثم لابد للخطيب من دراية بنفسية السامعين ليشوقهم دائما حتى لا يملوا ، فإن أحس من نظراتهم فترة ، أو من حركاتهم مَلَلاً ، شوقهم بفكاهة مناسبة أو قصة طريفة ملائمة ، أو عبارات مُلهبة ، فإنهم إن ملوا انصرفوا عنه ، وصار يخطب لنفسه . ولذا قال عبد الله بن مسعود : « حدِّث الناسَ ما حدجوك بأسماعهم ، ولحظوك بأبصارهم ، فإذا رأيت منهم فترة فأمسك » .

وسأعود إلى هذا الموضوع فى (نفسية الجماعة ومسلك الخطيب) .

والأمثلة على هذا كثيرة .

فقد قام عَدِيُّ بن حاتم الطائى يخطب فى الناس ليستنفرهم إلى نصرة على ابن أبى طالب ، وهو يعلم أن الأمل فى ثواب الآخرة لا يكفى وحده فى بعث عزائمهم وترغيبهم فى الإقدام على الحرب ، فحبب إليهم القتال بباعث آخر أضافه إلى ثواب الآخرة هو المغانم ، فقال فيهم : « قد كنتم فى الجاهلية تقاتلون على الدنيا ، فقاتلوا فى الإسلام على الآخرة ، فإن أردتم الدنيا فعند الله مغانم كثيرة ، وأنا أدعوكم إلى الدنيا والآخرة ، وقد ضمنت عنكم الوفاء . وقد أظلكم عليٌّ والناس معه من المهاجرين والبدريين والأنصار ، فكونوا أكثرهم عدداً ، فإن هذا سبيل للحى فيه الغنى والسرور ، وللقتيل فيه الحياة والرزق » . يشير بهذا إلى قوله تعالى : « ولا تحسبنَّ الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يرزقون » .

---

(١) جمهرة العرب ١٣٨/١ حيدى حياد : كلمة يقولها الهارب الفار أى ابعدى وتنحى عنى أيتها الحرب . السهم الأخيب : الذى لا يصيب . أفوق ناصل : سهم ناقص خارج .

٥ - سرعة البديهة

كثيراً ما يتعرض الخطيب لسؤال أو مقاطعة أو اعتراض ، وقد يستوحى الخطيب من ظروف الحالة وأحداثها ، وقد يحس من سامعيه نَبْوةً أو ملالة ، فيغير مجرى حديثه ليسمعهم نغمات شائقة .

ولهذا ينبغى أن يكون حاضر الذهن ، سريع البديهة ، لا يَتَحَبَّس فى جواب ، ولا يتلعثم فى دفع اعتراض .

ولقد يكون سداد الخطيب فى الرد على مقاطع أو معارض أقوى تأثيراً فى نفوس السامعين من الخطبة كلها .

على أنه إن لم تسعفه بديهته بجملة قوية مؤثرة مسكتة فالخير له ألا يرد ، لأن سكوته حينئذ خير من كلامه .

وإذا كان الباعث على المقاطعة والمعارضة إنما هو التهريج والتعويق والتشفى كان السكوت ترفعاً وقلة مبالاة .

خطب أبو جعفر المنصور فحمد الله وأثنى عليه ، فقال أحد السامعين : « أذكِّرُكَ من ذكَّرْتَ به » . فأجاب أبو جعفر بلا تفكير ولا روية : « سمعاً سمعاً لمن حفظ عن الله وذكَّر به ، وأعوذ بالله أن أكون جباراً عنيداً ، وأن تأخذنى العزة بالإثم ، لقد ضللتُ إذاً وما أنا من المهتدين . وأنت أيها القائل فو الله ما أردت بها وجه الله ، ولكن ليقال قام فعوقب فصبر ، وأهْوِنْ بها لو كانت . وأنا أنذركم أيها الناس أختها ، فإن الموعظة علينا نزلت ، وفينا انبثّت [1] » . ثم عاد إلى الخطبة .

ومن ذلك أن بعض الخلفاء العباسيين صعد المنبر ليخطب ، فسقطت ذبابة على وجهه ، فطردها ، فعادت إليه ، فطردها ، فلما تكرر منها ذلك ضاقت

(١) تاريخ الطبرى ٣١١/٩ وصبح الأعشى ٢٦٢/١

نفسه ، واضطرب تفكيره ، فتخلص بآية من القرآن الكريم ملائمة للحالة التى يعانيها ، فقال : « أعوذ بالله السميع العليم ، يا أيها الناس ضُرِبَ مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولوا اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضَعُفَ الطالب والمطلوب » .

ثم نزل ، فاستحسنوا منه هذا التخلص .

ومن الأمثلة الدالة على مواتاة البديهة فى المواقف الحرجة ما قاله قُتَيْبَةُ ابن مسلم ، إذ كان يخطب فى خراسان ، وهو يتقدم فى فتوحه ، فسقط القضيب من يده ، فتشاءم أصدقاؤه ، وتفاءل أعداؤه ، وشعر قتيبة بذلك ، فتناول القضيب من الأرض وقال : ليس الأمر على ماظن العدو ، وخاف الصديق ، ولكن كما قال الشاعر :

فألفت عصاها واستقر بها النوى ... كما قَرَّ عيناً بالإياب المسافر

ولقد يخطئ الخطيب فى حادث يرويه أو خبر يقصه ، فينبرى له بعض سامعيه بتصحيح ما أخطأ فيه ، فيتخلص من ورطته بسرعة خاطرة تخلصاً لبقاً لا يسبب له حصراً ، ولا يزعزع الثقة فيه .

من أمثلة هذا ما حدث لِوَكيع بن أبى أسْوَد التيمى ، أحد الأبطال المسلمين فى فتوح بخارى مع قتيبة بن مسلم ، فقد كان يخطب مرة فى جند العرب بخراسان ، فقال : « إن الله خلق السماوات والأرض فى ستة أشهر » . فرد عليه أحد السامعين بقوله : إنها ستة أيام . فقال وكيع : « وأبيك لقد قلتها وإنى لأستقلها » .

وكذلك فعل عدى بن زياد الإيادى ، فإنه قال فى خطبة له : « أقول لكم كما قال العبد الصالح لقومه : ما أُرِيكم إلا ما أَرَى ، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد » : فقال له أحد الحاضرين : ليس هذا من قول العبد الصالح ، وإنما هو من قول فرعون[1] . فقال عدى : من قاله فقد أحسن .

(١) قال فرعون « ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد » . سورة غافر ٢٩

ومعنى هذا أنه لا يغنيه القائل ، بل يعنيه ما قيل ، لأنه الملائم لحالهم وحاله معهم ، وهذا تخلص حسن .

وكان لويد جورج الخطيب الإنجليزى المعروف يخطب ، ويعد بالحكم الذاتى ، فيقول : سنعطى الحكم الذاتى لكندا . وسنعطيه لإيرلنده . وسنعطيه . . ولم يتم الكلمة حتى قال أحد السامعين : لجهنم . فرد عليه لويد جورج بقوله هو ذاك ، يعجبنى أن يتذكر كل إنسان وطنه .

ولما اعتصب عمال السكة الحديدية فى فرنسا – وهم أكثر من مئة وخمسين ألفاً – امر الوزير بريان بالتعبئة العامة ، فتغلب على الثورة والاعتصاب بدون إراقة دماء ، وكان البرلمان فى عطلة ، فلما انعقدت الجلسة الأولى كانت النفوس هائجة ، والنواب متوثبين لمهاجمة الوزير ، فدخل المجلس فإذا بالأصوات تعلو ، وإذا بهم يهتفون : ليسقط الدكتاتور . فوقف صامتاً حتى أتيحت له فرصة إسماعهم ، فصاح : دكتاتور ! ! مسكين أنا . ما لكم أيها السادة إلا أن تقولوا كلمة أو تبدوا إشارة فأترك هذا المنبر بلا أسف ، وأعود إلى مكانى فى صفوفكم خادماً صغيراً لهذا الوطن .

بهذه الكمات الوجيزة القوية أطفأ جمرات الغضب ، وأمكنه أن ينطلق فى حديثه مبرراً عمله ، فأيده معارضوه ، وصفقوا له وهنأوه[٢] .

---

(٢) الخطابة : نقولا فياض .

٦ – حرارة العاطفة

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما جُعِلَ اللسانُ على الفؤاد دليلا
لا يُعجِبنَّكَ من خطيب قوله حتى يكون مع اللسان أصيلا

فالخطيب المتأثر المعتقد صدق ما يدعو إليه تلتهب كلماته ، وتستقر فى القلوب عباراته ؛ لأنها قبس من نفسه المشتعلة ، وصورة من عواطفه المنفعلة ، وسرعان ما تتصل أرواح السامعين بروحه ، تستمد منها وتتحد معها وتتجاوب ، وتندفع إلى الطريق التى يشقها الخصيب ويريدها ؛ فهو لا يكاد ينطق بالجملة حتى تكون أسماعهم قد تلقفتها ، وقلوبهم قد وعتها .

محقق إخفاق الخطيب إن تكلم بدون حماسة تتضح فى ألفاظه ومعانيه ، وتتجلى فى وقفته وإشارته ، لأنه بذلك لا يستميل ولا يستثير ولا يسيطر على الجمهور .

وقد سبق قول صُحار بن عَيَّاش العبدى لمعاوية عن سر بلاغتهم : « شئ تجيش به صدورنا فنقذفه على ألسنتنا » وقول لاهارب : « البلاغة هى التعبير الصحيح عن عاطفة قوية » .

وقال الحسن البصرى لواعظ لم تؤثر به موعظته : « يا هذا إن بقلبك لشرًّا أو بقلبى »[1] .

٧ – روعة المنظر ، وجودة الإلقاء

لا بد أن يكون الخطيب رائع المنظر ، جيد الإلقاء ، لأن شخصيته ، ووقفته ، وإشارته ، وجهارة صوته ، وحلاوته ، وحسن هندامه ، وبزته ، وحسن خلقه – كل هذه أعوان على التأثير والاستمالة ، ونحن نقرأ خطباً كان لها

---

(١) البيان والتبيين ١/٨٤ .

دوى حين سمعت فلا نحس بها روعة ، لأنها استمدت تأثيرها من الأسباب التى صاحبت إلقاءها .

ولقد يعين على روعة المنظر وإجادة الإلقاء عدة عوامل :

١ – الوقفة :

يقف الخطيب أمام الجمهور ليشرف عليهم ، وليتطلعوا إليه ، ويستطيع أن يقف وقفة تضفى عليه فخامة وعظمة ، مع اجتناب بعض العادات المستهجنة ، كوضع اليد فى الخاصرة ، أوكثرة الحركة ، وذلك بأن يعتدل فى وقفته ، ويبرز إلى الأمام صدره ، ويقدم رجلا على الأخرى ، ليتزن جسمه ، ويستريح نفسه ، ولا يعيا صوته .

وعلى الخطيب إذا ما صعد المنبر أن يتريث قليلا ، ليتعرف الجمهور ، وإن كان قد سبقه خطيب آخر فإن هذا التريث ضرورى ، حتى يهدأ المكان ، ويزول صدى الخطيب السابق من الآذان ، فينتبه السامعون إلى الخطيب الجديد .

وقد اعتاد الخطباء فى الأمم كلها أن يخطبوا وقوفاً إلا نادراً ، فالخطيب الرومانى كان يعتلى نشزًا ، والخطيب العربى كان يقف على شرَف من الأرض أو على ظهر دابة ، وكان يفخم منظرة بلبس عمامة ، والاعتماد على عصا أو مخصرة .

يكاد يزيل الأرضَ وَقْعُ خطابهم   إذا وَصلوا أيمانهم بالمخاصِرِ

أو يعتمد على قوس أو رمح .

ولم يخطبوا قعوداً إلا فى الزواج[1] ، لأن هذا النوع من الخطابة أقرب إلى الحديث والحوار ، وليست به عاطفة جياشة يستدعى إظهارها أن يعتلى لمتكلم نضداً .

ولكن العالم اليوم على اتخاذ المنابر أو المناضد العالية ، فيقف الخطيب على مرتفع وأمامه نضد ، والخطباء الحديثو العهد بالخطابة يؤثرون ذلك ؛ لأنهم

(١) البيان والتبين١/١١١

يتوفهمون أن النضد يفصلهم من الجمهور الذى يتهيبونه ، ولكن الخطباء المدربين يتبرمون بهذه الوقفة ؛ لأنها تغل حركاتهم ، وتحبسهم فى مكان ضيق .

ب – حسن الإشارة .

الإشارة لغة منظورة أو لغة متحركة مفهومة ، فإذا اقترنت الإشارة باللغة فى موضعها الملائم أثرت تأثيراً عظيما . وصوت الخطيب مهما تتغير نبراته ونغماته لا يكفى للتعبير عن العواطف كلها ، فلابد من أن تساعده حركات اليد والرأس والمنكبين ، وملامح الوجه ، ونظرات العينين وإشارات الحاجب .

فالعين هى النافذة التى نطل منها على العالم ، ويطل منها علينا ، تشف نظراتها عن العواطف ، وتكشف عما بدخلة النفس .

وعين الفتى تبدى الذى فى ضميره ... وتعرف بالنجوى الحديث المغمسا[1]

فمثلا العين المفتوحة تمثل الغيظ أو الخوف أو الإعجاب ، والعين المغلقة تشير إلى التواضع أو البغضاء ، والنظر الشزر يترجم عن الاحتقار والاستهانة والكراهية .

والعين المتحركة يميناً وشمالا تنبئ عن الرياء والاشمئزاز ، والعين المتطلعة إلى السماء ترمز إلى الدعاء ، والنظر إلى الأرض تعبر عن اليأس أو الخشوع أو الحياء ، والعين المستقرة فى نظرتها تفصح عن الشدة والإثبات والرجاء ، والعين اللامعة ترجمان عن الظفر .

والوجه كله معبر عن الانفعالات بما يرتسم على صفحته من خطوط وأشكال ، فارتفاع خطوط الجبهة قليلا يمثل الانتباه ، وارتفاعها كثيراً يرسم الدهشة أو الفرح العظيم أو الألم الأليم ، وانخفاضها يدل على القلق والتفكير . والوقفة المعتدلة الناهضة تدل على التحدى ، والوقفة المنحنية تدل على الحنان

---

(١) اليمين المغمسة : الكاذبة التى تغمس صاحبها فى الإثم والمراد هنا الحديث الكاذب .

والشفقة والاستسلام ، وانطلاق الذراع إلى الأمام ينبيء عن التقدم وعن التهديد وهكذا .

وقد يتهدد رافع الصوت والسيف بإشارة من سيفه أو سوطه ، فيكون ذلك رادعاً ووعيداً وتحذيراً ، وقد يجد الخطيب من اللائق ألا يصرح بلفظ فيشير إشارة تؤدى معناه ، فتكون أبرع دلالة وأليق بالمقام .

والإشارة تساعد الخطيب على النفس ، وإعلاء الصوت .

والخطيب الذى يقف جامداً لا يشير يشبه مذياعاً يتكلم .

ذكر الجاحظ أن أبا شِمْر كان إذا ناقش لم يحرك يديه ولا منكبيه ، ولم يقلب عينيه ، ولم يحرك رأسه ، حتى كان كلامه كأنما يخرج من صَدْع صخرة ، وكان يعيب صاحب الإشارة بافتقاره إليها ، وعجزه عن بلوغ غايته ، ويقول : ليس من المنطق أن تستعين عليه بغيره : ولكنه اضطر فى مجادلة بينه وبين إبراهيم بن سيار النظام إلى تحريك يديه ، والخروج عن تزمته وتوقره . وكان الذى غره أن أصحابه كانوا يستمعون منه ، ويسلمون له ، ويميلون إليه ، ويقبلون كل ما يورده عليهم ، ويثبته عندهم ، فلما طال عليه توقيرهم له وترك مجاذبتهم إياه ، وخَفَّت مئونة الكلام عليه ، نسى ما يتذرع به المجادل فى منازعة أكفائه وخصومه [1] .

ولابد أن يراعى الخطيب عدة أمور :

١ – يراعى أن الإكثار من الإشارة باليد خطَل ، وصرف للسامع عن الانتباه ، فعلى الخطيب أن يقلل منها .

٢ – وأن يأتى بها فى مواضعها الملائمة لها المحتاجة إليها .

٣ – وأن يجعلها موافقة للمعنى وسابقة له ، فيشير ثم ينطق ، وإذا اجتمعت فى الجملة صفتان جعل الإشارة للأخيرة ، كما لو قال : الصهيونيون نعام لن يقدروا على نضال العرب الأبطال الأسود .

(١) البيان والتبيين ٩١/١ .

٤ – وعليه ألا يحجب عن الناظرين وجهه بيده ، أو يعترض بها جسمه ، وأن تكون إشارته بيده سريعة إن كان الكلام حاداً ، لتطابق العاطفة ، وأن يستعمل يمناه إذا كانت رجله اليمنى إلى الأمام ، والعكس .

٥ – وأن يتذكر أن بعض الموضوعات لا تحتاج إلى افتنان فى الإلقاء ، كالمناسبات الصغيرة ، وأن يكون الإلقاء والتعمير موافقين لدرجة تأثره ، فإذا لم يكن انفعالة قوياً فليتكلم كما يحس .

ح– جهارة الصوت وحلاوته :

الصوت نعمة من الله على من يغنى أو يخطب ، لأنه يسحر ويبهر بحلاوة نغماته ، وصفاء رناته ، وحسن توقيعاته ، وكثيراً ما يسحر الخطيب بصوته أكثر من سحره ببلاغته ، فتمايل النفوس بنغمه كما تمايل الأفنان بنسيم السحر ، ولذا قال لاروشفو كولد : البلاغة تكون فى الصوت والملامح كما تكون فى اختيار الكلام .

والصوت الجهير القوى الذى يدوِّى فى الحفل من عُدَدِ الخطيب لامتلاك الجمهور وإسماعه كله . وقد ذاعت مكبرات الصوت فى عصرنا هذا ، ولكنها تذهب بكثير من نغمات الخطيب ونبراته ، وتعبير صوته عن انفعالاته .

فعلى الخطيب أن يلائم بين مقدرته الصوتية وبين المكان ، فالصوت فى الأماكن المغلقة أقوى إسماعاً منه فى الخلاء ، وهو فى الهواء الساخن أسرع سرياناً منه فى الهواء البارد .

وعلى الخطيب أن يتجه بصوته إلى وسط المجتمع لا إلى جانبيه ولا إلى فوق .

وعليه أن يوقع بصوته فيجعل نبراته ونغماته ووقفاته ملائمة للأفكار والعواطف ، فهو مبتهج تارة ، وشاك تارة ، وهو ساخط حيناً ، ومتهكم حيناً ، ومتعجب حيناً ، فلابد أن ينوع صوته ليلائم شعوره ، ويساعده على التصوير .

كذلك مما ينبغى أن يراعيه العناية بمقاطع الجمل لتتصل فى الآذان ، فإن المقطع المبهم ينطوى بين شفتيه ، فلا يُسْمَعُ ولا يُفْهَمْ .

وإذا كانت الخطبة طويلة والمكان فسيحاً فعلى الخطيب أن يقتصد فى صوته حتى لا يكل .

ومما يساعده على الاحتفاظ بقوة صوته فى الخطبة كلها أن ينطق متمهلا ، لأن التسرع والتعجل فى المنطق يضعف الصوت ويجهده .

وكان العرب يمدحون الخطيب الجهير الصوت ، ويذمون خافِته ، ولذلك تشادقوا فى الكلام ، ومدحوا سعة الفم ، وذموا صغره ، قيل لأعرابى : ما الجمال ؟ قال : طول القامة ، وضِخَمُ الهامة ، ورَحَبُ الشِّدْق ، وبعد الصوت .

وبالجهارة يفخر شَبَّةُ بن عَقَّال فى قوله :

ألا ليت أم الجهم – والله سامع ترى حيث كانت بالعراق مقامى
عشية بَذَّ الناسَ جهرى ومنطقى وبَذَّ كلامَ الناطقين كلامى[1]

ويقول الأعشى فى وصف خطيب بشدة الصوت :

فيهم الخِصْبُ والسماحة والنجـ ـدة جمعاً والخاطب الصَّلاَّقُ[2]

ويهجو بشار بخفوت الصوت فى قوله :

ومن أعجب الأيام أن قمتَ ناطقا وأنت ضئيل الصوت منتفخِ السَّحْرِ[3]

بل هم مدحوا جهارة الصوت حتى فى غير خطبة ، فقد مدح العباس بن عبد المطلب بأنه كان جهيراً[4] جهير الصوت ، وقد نفع الله المسلمين جهارة صوته يوم حنين ، حين ذهب الناس عن رسول الله ﷺ ، فنادى العباس : ياأصحاب سورة البقرة ، هذا رسول الله . فتراجع القوم ، وأنزل الله عز وجل النصرة ، وأتى بالفتح[5] .

---

(١) البيان والتبيين ١١٩/١

(٢) ، (٣) المرجع السابق ١١٦/١ الصلاق : الشديد الصوت . السحر : الرئة .

(٤) جميل المنظر والهيئة

(٥) البيان والتبيين ١١٥/١

ومدح العُمَّانى هارون الرشيد بقوله :

جهير العُطاسِ ، شديد النياطِ جهير الرُّواء ، جهير النَّغَم[1]

وأثر عنهم ما يدل على أن قوة الصوت ترهب ، فإن وفد الروم لما أتى عبد الملك بن صالح وهو فى بلادهم أقام على رأسه رجالا فى السماطين ذوى أعناق ضخمة ، ورؤوس عظيمة ، ومناكب وأجسام ، وشوارب وشعور . فبينما هم قيام يكلمونه ، ومنهم رجل واقف خلف البطريق ، إذ عطس عطسة ضئيلة ، فلحظه عبد الملك ، فلم يدر أىّ شئ أنكر منه فلما مضى الوفد قال له : ويلك هلا إذ كنت ضيق المَنْخِر كزَّ الخيشوم أتبعتها بصيحة تخلع بها قلب الْعِلْج[2] .

وكان شبيب بن يزيد بن نعيم يصيح فى جنبات الجيش إذا أتاه ، فلا يلوى أحد على أحد ، فقال الشاعر فيه :

إن صاح يوماً حسبت الصخر منحدراً والريحَ عاصفة والموجَ يلتطم[3]

وبالغوا فى ذلك إلى حد لا يصدق ، فزعموا أن أبا عُرْوة – الذى يقال له أبو عروة السباع – كان يصيح بالسبع وقد احتمل الشاة ، فيخليها ويهرب ، فضرب النابغة الجعدى المثل به فى قوله :

وأزجرُ الكاشح العدوَّ إذا اغتا بك عندى زجرا على أَضَمِ
زَجْرَ أبى عروةَ السباع إذا أشفق أن يَلْتَبِسْنَ بالغنم[4]

د– جمال الهندام :

الهندام المنسق يعزز ثقة الخطيب بنفسه ، ويكسبه فى أعين الناس مهابة . والناس مذ كانوا يتأثرون أول وهلة بالبزة الحسنة والمنظر الجليل ، والفرنجة يعتنون بزيهم ، ولاسيما إذا علوا المنابر . وكان العرب فى الجاهلية وما بعدها يلبسون العمائم ، ويفخمون منظرهم إذا ما خطبوا .

---

(١) البيان والتبيين ١/١٨ .

(٢) البيان والتبيين ١/١١٨ .

(٣) ، (٤) البيان والتبيين ١/١١٩ على أضم : على حقد وغضب .

ذكر الجاحظ فى كلامه عن مذهب الهنود فى البلاغة « . . . وزَيْنُ ذلك كله ، وبهاؤه ، وحلاوته ، وسناؤه ، أن تكون الشمائل موزونة ، والألفاظ معتدلة ، واللهجة نقية ، فإن جامع ذلك السِّنُّ والسَّمْتُ والجمالُ وطولُ الصمت فقد تم كل تمام ، وكمل كل الكمال

وروى أن إياس بن معاوية المزنى – وكان صادق الظن ، قوى الحَدْس ، ولاه عمر بن عبد العزيز قضاء البصرة ومات ١٢٢هـ – أتى حلقه من حلق قريش فى مسجد دمشق ، فاستولى على المجلس ، ورأوه أحمر دميا ، رث الهيئة قشيفاً ، فاستهانوا به ، فلما عرفوه اعتذروا إليه وقالوا ، الذنب مقسوم بيننا وبينك ، أتيتنا فى زى مسكين تكلمنا بكلام الملوك[٢] .

على أن بعض الخطباء يعتمدون على مهابتهم المعروفة ، وشهرتهم الذائعة فلا يتأنقون فى مظهرهم . وإذا كان فى هذا بعض الحق فإن الخطيب المجهول يخطئ إن لم يهتم بمظهره وهندامه ، لأنه من مقومات شخصيته .

فمعاوية على حق حين نظر إلى النَّخَّار بن أوس العذرى الخطيب الناسب فى ناحية من مجلسه فأنكره ، وأنكر مكانه زراية به ، وقال : من هذا ؟ فقال النخار : يا أمير المؤمنين إن العباءة لا تكلمك إنما يكلمك من فيها .

لذلك كله أخالف سهل بن هارون فى دعواه أن الجمع يقضى للدميم رزى الهيئة على الوسيم البهى اللباس ، إذا تساويا فى البلاغة ، قال سهل :

« لو أن رجلين خطبا أو تحدثا أو احتجا أو وصفا ، وكان أحدهما جميلا جليلا ، وبهيا ، ذا لباس ، نبيلا ، وذا حسب ، شريفاً ، وكان الآخر قليلا قميئاً ، وباذَّ الهيئة دميا ، وخامل الذكر ، مجهولا ، ثم كان كلاهما فى مقدار واحد من البلاغة ، وفى وزن واحد من الصواب ، لتصدع عنهما الجمع ، وعامتهم تقضى للقليل الدميم على النبيل الجسم ، ولباذ الهيئة على ذى الهيئة ، ولشغلهم التعجب منه عن مساواة صاحبه ، ولصار النعجب منه سبباً للعُجْب

---

(١) البيان والتبيين ٨٧/١ السمت : حسن الهيئة . (٢) البيان التبيين ٩٥/١ .

به ، ولكان الإكثار فى شأنه علة للإكثار فى مدحه ، لأن النفوس كانت له أصغر ، ومن بيانه أيأس ، ومن حسده أبعد ، فإذا هجموا منه على مالم يحتسبوه ، وظهر منه خلاف ماقدروه ، تضاعف حسن كلامه فى صدورهم ، وكبر فى عيونهم ، لأن الشئ من غير معدنه أغرب ، وكلما كان أغرب كان أبعد فى الوهم ، وكلما كان أبعد فى الوهم كان أطرف ، وكلما كان أطرف كان أعجب ، وكلما كان أعجب كان أبدع ...[1] » .

وهو رأى عماده الفرض والقياس ، حيث لا يصح قياس ، وبعيد غاية البعد من الواقع الشائع بين الناس . ومن دراسة نفسية الجماهير ، ولذا قال (بسكال) بضرورة الجبة والشعر للقضاء . ولولاهما لفقدوا ثلاثة أرباع نفوذهم . وسأفصل القول فى نفوذ الخطيب فى (نفسية الجمع ومسلك الخطيب نحوها) .

(هـ) جمال الخلق :

ولست أقصد بجمال الخَلْق أن يكون الخطيب وسيما ، مليحاً ، أسيل الخد ، أدعج العين الخ وإنما أقصد أن يكون مقبول الصورة غير دميم ولا منفِّر ؛ لأن ذلك يقربه إلى قلوب السامعين . والرجل الصحيح الجسم الحسن القامة لا يحتاج فى إظهار شخصيته والتأثير فى سامعيه إلى ما يحتاج إليه الضئيل الجسد الدميم الصورة ، والناس مولعون بالقوة والسلامة والاستواء منذ كانوا .

مدح الرِّمِق بن زيد أبا جُبَيْلة الغسانى ، وكان الرمق دميما قصيرا ، فلما أنشده وحاوره قال : عَسلٌ طيب فى ظَرف سوء .

وتكلم عَلْباء بن الهيثم السَّدوسى لدى عمر بن الخطاب ، وكان علباء أعور دميما ، فلما رأى عمر براعته ، وسمع حسن بيانه ، أقبل يُصَعِّد فيه بصره ويُحَدِّره ، فلما خرج قال عمر : لكل أناس فى جميلهم خِبرة .

وقد ذكر الجاحظ أن زيد بن جُنْدُب كان أَشْغَى أَفْلَح[2] ، ولولا ذلك لكان أخطب العرب قاطبة .

---

(١) البيان والتبيين ٨٨/١ .

(٢) أشغى : أسنانه مختلفة طولا وقصراً ودخولا وخروجا . أفلح الأسنان : أصفرها .

على أن براعة الخطيب ، وبلاغته وجهارة صوته ، وروعة وقفته ، قد تتغلب على دمامته .

فقد كان الأحنف بن قيس صغير الرأس ، مائل الأنف ، مسترخى الأذنين ، متراكب الأسنان ، مائل الذقن ، ناتئ الوجنة ، خفيف العارضين ، مقوس الرجلين ، لكنه كان خطيباً مفوها إذا تكلم جلّى عن نفسه .

وكان ميرابو خطيب الثورة الفرنسية دميم الخلقة ، لكن تكوينه الجسدى جعل منه خطيباً عظيم الشأن ، إذ كان قوى الكتفين ، مرنان الصوت ، نافذ النظرات ، وكذلك كان دانتون بشع الصورة .

لكن قبح الخلقة لم يعق واحدا من هؤلاء عن اختلاب سامعيه ، لأن جمال الخلقة من المكملات الثانوية للخطيب .

وكأنما أراد ضَمْرة بن ضَمْرة هذا المعنى فى رده على النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، فإن النعمان لما نظر إليه ورأى دمامته ونحولة جسمه قال : تسمع بالمُعَيْدِيِّ خير من أن تراه . فقال ضمرة : أبيت اللعن ، إن الرجال لا تكال بالقُفْزان[1] ، وإنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه .

٨ - سمو الخُلق

يقف الخطيب من الجمهور موقف القائد أو الرائد ، يهدى إلى الحق ، ويُبَصِّر بالخير ، ويُحَذِّر من هلكة أو غفلة ، ويشجع على قتال أو استبسال ، ويدعو إلى هدوء وطاعة الخ ، فإن اشتهر بخيانة أو نفاق أو نفعية أو جبن أو رذيلة مّا ، كان أول هادم لمكانته ، ومضيع لتأثير خطبته ، وامترى السامعون فى صدق كلامه وخلوص نيته .

فإذا ما كان حسن السمعة أثر كلامه فى سامعيه ، لأن حسن سمعته كالمقدمة للاقتناع بقوله ، إذ أن مكانته الخلقية العالية تبعث على تصديقه .

(١) القفزان : جمع قفيز وهو مكيال .

ومن العيب أن يدعو خطيب إلى فضيلة ، وهو معروف برذائله ، أو يتحدث عن الحرية ، وهو من انصار الاستبداد ، أو عن الصالح العام ، وهو معروف بالحرص على منافعه الخاصة .

« وأخلاق الخطيب نفسه تنتهى به إلى الإقناع حينما تكون الخطبة محضرة بشكل يبعث على الثقة ، ويملأ نفس الخطيب بالطمأنينة . وليس صحيحاً أن نصدق قالة الذين كتبوا فى الخطابة من أن أمانة الخطيب ونزاهته لادخل لها فى الإقناع ، فنحن نقرر – على عكس ما يقولون – أن للصفات الخلقية التى يمتاز بها الخطيب أكبر الأثر فى قوة الإقناع[1] » .

عليه أن يكون شجاعا فى موقفه ، وفى إعلان رأيه ، لا يرتعد ولا يمارى ولا يضطرب ، فإذا ماوثق من نفسه ، وعرف ما يريد أن يقول ، وعبر عنه تعبيراً خطابياً فنياً فقد حقق الغرض المنشود .

وكثيراً ما يضطر إلى تفنيد حجج خصمه فى السياسة والقضاء ، فليفندها فى أدب رفيع . وإذا هاجمه زميل فليتلق هجومه بصبر وهدوء ؛ لأن هذا يرفع مكانته ، ويبعد عن الخطل فكرته . وإن غضب فليغضب غضباً خطابياً لا سباب فيه .

وقد تدعو الضرورة فى خطبة حفلية أو دينية إلى إبراز التعاون بين الخطباء ، كأن يخفق أحدهم فيشيد به تاليه ، ويثنى عليه ، غير متظاهر بأنه يحابيه ، أو يجامله ، أو يجبر زلته ، وكثيراً ما تتأثر الجماعة بهذا التعقيب وتتقبله ، بل تعتقده .

---

(١) الخطابة لأرسطو ١/١٠١

الخطيب والشاعر

الخطيب والشاعر صنوان فى قوة الحس ، وجيشان العاطفة ، وسرعة البديهة ، وقوة التصور ، وبراعة التصوير . كل منهما يتأثر فيعبر عن تأثره ، ليشرك السامعين معه فى عاطفته ، الخطيب بلسانه ، والشاعر بقلمه .

وكلّ منهما يؤثر ويستميل ويجنح إلى الخيال يستثير به العاطفة .

وهما معا يعتمدان على الإيقاع ، فالشاعر يعتمد على الأوزان ، والخطيب يعتمد على توازن الجمل وطريقة إلقائها .

فليس عجيباً أن نجد من الشعراء خطباء ، ومن الخطباء شعراء .

ذكر الجاحظ كثيراً ممن شعروا وخطبوا ، منهم عِمران بن حِطّان ، ودَغْفل ، ونصر بن سيَّار ، وبشار بن برد ، والطِّرِمَّاح بن حكيم ، والكُمَيْت . وقد قال محمد بن سهل راوية الكميت : أنشدت للكميت قول الطرماح :

إذا قُبِضَتْ نَفسُ الطرماح أخْلَقَتْ عُرَى المجد واسترخى عِنَانُ القصائد

فقال الكميت : إى والله وعنان الخطابة والرواية .

ومنهم كلثوم بن عمرو العتَّابى ، وسهل بن هارون .[1]

وكان حافظ إبراهيم يلقى قصائده إلقاء الخطيب المِصْقع المجيد ، فيتأثر بها سامعوه أكثر من قارئيه ، وكان الجارم يفْتَنُّ فى إلقاء شعره فيخلب ، على حين أن شوقى لم يلق قصيدة من قصائده ، وإنما كان يتخير من يلقيها فى المحافل .

وفى الفرنجة كثير من الشعراء الخطباء ، مثل لامرتين الذى هز المنابر بخطابته ، كما هز القلوب بشعره ، ومثل جورس الخطيب الشاعر الذى كان فى العشرين من عمره يمشى على شواطئ الكمارون مردداً فى الفضاء نثره الشعرى الرائع ، وكليمانصو شاعر فى كتابته وخطابته ، وبيرون خطيب فى شعره .

(١) البيان والتبيين ١/٥٣ — ٦٠ .

لكن الخطيب والشاعر يفترقان فى كثير أيضاً فالخيال فى الشعر أكثر ألواناً ، وأبعد أفقاً . وأسلوب الشعر مركّز متسام . والخطيب فى أكثر حالاته مرتجل أو كالمرتجل ، ومتدفق . ويشكل خطابته حسبما يوحى إليه الجمع ..

أما الشاعر فإنه فى أكثر حالاته مُعِدٌّ قصيدته ، مقيد بما أعدَّ ، ويندر أن يتعداه بالزيادة .

والخطيب يعتمد فى إقناعه على الأدلة الملائمة للموضوع وللجمهور ، أما الشاعر فلا يراعى ذلك .

وللقصيدة وحدة عضوية ، أما الخطبة فإنها ذات أجزاء ومراحل فى أكثر الأحيان .

الخطيب والممثل

إذا كانت المشابهة قوية بين الخطيب والشاعر ، فإن المفارقة بين الخطيب والممثل أقوى من التشابه ، فالخطيب كما قلنا واسع الثقافة ، وليست الثقافة بشرط فى الممثل ؛ لأن الخطيب يعرض موضوعاً ، ويورد أدلة ، ويُفَنِّد حججاً ، ويَرُد على مقاطع أو مستفسر ، ولكن الممثل محصور فى أداء الدور الذى نيط به كما رسمه المؤلف والمخرج ، فوظيفته أن يجيد تمثيل الشخصية التى انتحلها ، فيتقمص روحها ويصدر عنها.

ثم إن الخطيب حر فى تعابيره وفى معانيه وفى انتقاله من فكرة إلى فكرة ، وفى استطراده أو إيجازه وإطنابه ، وفى جدِّه أو هزله ، إلى غير ذلك مما يقتضيه المقام ، أما الممثل فإنه مقيد بكلام خاص لا ينطق بغيره .

والخطيب منفعل انفعالا أصيلا ذاتياً ، ولكن الممثل يتصنع الانفعال ، أو يتسامى بفنه فيندمج فى دوره فينفعل . فبعض الممثلين والممثلات يبرعون فى تمثيل أدوار الحب والتضحية والشفقة والعفة ولا نصيب لهم من هذا .

والممثل قد يقتضيه الموقف حركات ، كأن يثب أو يجرى أو ينطرح على الأرض أو يتلوى ، وهى حركات لا تليق بالخطيب ، على أنها مرسومة للممثل ومعدة من قبل . أما حركات الخطيب وإشاراته فهى وَحْىُ لحظتها ، ووليدة العاطفة التى تجيش بنفسه ، أو الخاطرة التى تدور بذهنه ، فلم يُعِدَّها ولم يرسمها .

كل ما بين الخطيب والممثل من تشابه أنهما يحاولا التأثير فى جمهور من الناس ، وأن نبرات صوتهما وبعض حركاتهما وإشاراتهما تتشابه .

الفصل الثانى

نشأتها وعوامل رقيها

نشأتها

ضرورة اجتماعية وسلاح معنوى :

منذ اجتمع الناس فى مكان واحد استوطنوه ، وتفاهموا بلسان واحد ، عرفوا الخطابة ، لأنه من الطبيعى أن يختلفوا فى رأى أو عقيدة ، ومن الطبيعى أن يتنافسوا على غنيمة أو متاع أو سلطة ، فيحاول المتفوق أن يستميل إليه من يخالفون ، وأن يقنعهم ، فإذا ما أقنعهم واستمالهم فهو خطيب وقوله خطبة . ثم إنه من الطبيعى أيضاً أن تنشب أمور تستدعى تعاون المجتمع ، وتضافر قواه على اجتلاب نفع عام مشترك ، أو اتقاء ضير ، فيتصدر بعض النابهين من هذا المجتمع لقيادة الجماعة وزعامتها عُدَّتهم فى ذلك خطابتهم .

على أن الناس فى حياتهم القديمة تسلحوا بأسلحة مادية للدفاع والعدوان ، وتسلحوا أيضاً بسلاح معنوى هو اللسان ، ومازالت الخطابة إلى الآن سلاحا مرهفا تتصاول به الأمم ، وإن جَيَّشَتْ جيوشها وافتنَّت فى اختراع القذائف والمدمرات .

لذلك لم يَخْلُ من الخطابة سجلُّ أمة وعى التاريخ ماضيها ، فقد حفظها خط أشور المسمارى ، وقيدها خط الفراعنة الهيروغليفى ، ثم رواها تاريخ اليونان السياسى والأدبى منذ القرن السابع قبل الميلاد ، وبها أخضع بوذا الجموع الهندية لتعاليمه ، وبها أذاع الدين أنبياء بنى اسرائيل ، وكان لها مكانها العظيم فى مجامع العرب قبل الإسلام وفى أسواقهم الأدبية بنوع خاص .

عوامل رقيها

١ – الحرية

إنما تزدهر الخطابة فى عصور الحرية الفكرية والقولية ، فيتحرر كل شخص فى تفكيره ، وينطلق إلى إذاعة ما اهتدى إليه ، وهو آمن عقاب الحاكم الظالم ، واستبداد المسلّط الغاشم ، ولا يتهيب الخطباء موضوعا أو محفلا . ويحتذى بهم غيرهم من الطامحين إلى الشهرة ، أو التواقين إلى الإصلاح ، فتنتشر الخطابة فى الشعب ، وتتعدد أنواعها ، وتعبر تعبيراً صادقا عن عواطف القائلين . والخطباء على كثرتهم يتسابقون إلى الإجادة ، ويتنافسون فى طيران الصيت .

وسأضرب من تاريخ الأمم أمثلة لهذا .

٢ – طموح الأمة إلى حياة أرقى

وتزدهر أيضاً إذا تفشى فى الأمة سخط على نظام من نظمها الدينية أو السياسية أو الاجتماعية ، وارتبط هذا السخط بطموح إلى مثل أعلى ، وحياة أرقى ، وجدّ فى تبديل الحالة ، وتحقيق المثل .

وتاريخ الأمم يؤيد هذا :

١ – فقد كانت الخطابة راقية عند اليونان قبل الميلاد بخمسة قرون فى كنف الحرية والنضال السياسى ، وقد تزعمها بركليس فى القرن الخامس ، وديموسنيس فى القرن الرابع : وكان صوت ديموسنيس المتوفى ٣٢٢ ق . م آخر ما اهتزت له منابر أثينا ، لأن مقدونيا انتصرت عليها ، وصرعت خطابتها ، وبقيت أثينا مَرَاداً للعلم والأدب ، ولكن منابرها عَطِلَتْ من تلك النغمات السواحر . وفقدت مكانتها السياسية بعد فتوح الإسكندر ، وصارت لا تمتاز من

مدينة أخرى . بل إن العواصم الجديدة كالإسكندرية وانطاكية وبيزانس كان يؤمها الناس من كل صوب ، ليتلقوا فن الخطابة على خلفاء ديموسنيس .

٢ – وكانت الخطابة فى الأمة الرومانية شبيهة بهذا كله ، فالرومان كانوا فى أول أمرهم محكومين بحكم دكتاتورى استبدادى ، فكانت خطابتهم خافتة ، ثم بدأ الشعب يتحرك لتغيير حاله ، ويثور على الطبقة الأرستقراطية ، فقويت الخطابة .

وفى القرن الثانى للمسيح اصطبغت الخطابة بالدين ، وكان نزاع بين المسيحية والوثنية ، فنبغ خطباء من رجال الكنيسة ينشرون الدين ، وينافحون عنه ، فلما أزالت المسيحية الوثنية ، وعادت الدكتاتورية إلى سطوتها ، زال الباعث على رقى الخطابة ، فعادت إلى ضعفها ، وضاقت موضوعاتها ، وكان أكثرها فى خدمة الاستبداد .

٣ – وقد ازدهرت الخطابة عند العرب فى العصر الجاهلى ؛ لأنهم عاشوا طلقاء فى جزيرتهم لا يحد من حريتهم تعسف من حاكم ، أو نظام جائر ، فهم أحرار فى تفكيرهم ، وفى البوح بها ، والدعاوة لها ، حريتهم فى التنقل فى هذه البيئة الرحبة .

ثم أتى الإسلام يدعو إلى توحيد الخالق سبحانه ، ونبذ أديانهم الوثنية ، وكان صراع عنيف ، معنوى ومادى ، بين الدعاة إلى الجديد وبين المستمسكين بالقديم ، وانضم الصراع إلى الحرية فانتعشت الخطابة .

ثم قامت الدولة الأموية ، وانقسم المسلمون إلى شيع سياسية ودينية ، ولكل حزب خطباؤه المصاقع ، وهم جميعاً أحرار لا يدينون إلا لعواطفهم الثائرة ، فأينعت الخطابة .

فلما آلت الخلافة إلى بنى العباس ، وأرسوا قواعد ملكهم ، ونكلوا بالأحزاب المخالفة لهم ، وتصرف الأعاجم فى شئون العرب والمسلمين ، وراح العرب يرضون بماهم فيه ، وضلوا عن المثل الأعلى الذى يجب أن ينطلقوا إليه ، أو ضل

عنهم هذا المثل ، ركت الخطابة وبُحّ صوتها حتى اختنق ، إلى أوائل العصر الحديث .

٤ – وفى العصر الحديث شرع الشرق يستفيق من سباته ، وكانت مصر أول من استيقظ من شعوبه ، وهالها أن يتسلط الأجنبى عليها ، وأن تحيا حياة غير كريمة ، فهبت غضبى تطالب بحريتها المسلوبة ، وحقوقها المغصوبة ، فارتقت الخطابة ، ونبغ فى الثورة العرابية عبد الله النديم ، والشيخ محمد عبده ، ثم تتابعت الحركات السياسية ، وتعددت الأحزاب ، وجاد الزمن بزعماء الخطابة فى العصر الحديث مثل مصطفى كامل ، وسعد زغلول .

٥ – وفى العصر الحديث أيضاً ضاق الفرنسيون بما كانوا يعانون من بؤس وضير ، وألهب الكتاب شعور الشعب ، فجدّ ليحيا حياة أرق ، فكانت الثورة ، وكانت الخطابة وقودها ونارها ونورها ، ونبغ ميرابو وروبسبير ودانتون وغيرهم .

وقد ربّت الثورة ونشّأت فى عشر سنوات خطباء لم يسبق لفرنسا عهد بمثلهم عدداً وتأثيراً ، وذلك لضخامة الآمال التى أرادت الثورة أن تحققها ، ولتعاقب الحوادث وتواليها فى سرعة ، ولشدة النزاع وخوف كل امرئ على حياته ، ولكن الثورة أكلت مثيريها ، وقضت على كثير من أمراء الخطابة ، فأقوت المنابر ، وجاء نابليون ، وكان لا يحب الخطباء ، بل يؤثر هزيم المدافع ، فلم تسمع فرنسا إلا قصف مدافعه يتخللها فى فترات السكون صوت واحد هو صوت نابليون .

ثم كان لهذه الثورة صدى فى انجلترا ، فهب الإنجليز يبتغون الإصلاح السياسى ، وظهر وليم بت وغيره .

٣ – الأمية وسرعة البديهة

وإذا تفشت الأمية فى شعب لجأ إلى الخطابة وسيلةً للإقناع والاستمالة . وإذا كان انتشار التعليم وذيوع الصحافة يرقى الخطابة من حيث موضوعها وفنها ، فإنه يضعفها من حيث شمولها وذيوعها .

وهذه الأمية مشفوعة إلى استعداد العرب الفطرى لإجادة القول رقت الخطابة عندهم ؛ لأن أميتهم أرهفت حوافظهم وذواكرهم ، فكانوا يتدفقون فى الخطابة تدفقاً .

وأميتهم بعثت فى نفوس المعمرين منهم أن ينفضوا ماضيهم وأحداثهم إلى السامعين ، ليعظوهم أو لينفسواهم عن أنفسهم بالتحلل من بعض ما يثقلهم من أخبار وأسرار ، أو ليُزْهَوْا بما كان لهم فيه من شأن عظيم .

ومن هذه الأمية المربية للحافظة والذاكرة نشأت سرعة البديهة وإسعاف الخاطر ، مما جعل أبا حيان يروى فى مقابساته : « نزلت الحكمة على رءوس الروم ، وألسن العرب ، وقلوب الفرس ، وأيدى الصين .... وقد زادتهم جزيرتهم شراً ، ولكنهم عوِّضوا الفطنة العجيبة ، والبيان الرائع ، والتصرف المفيد ، والاقتدار الظاهر .. ووصلوا بحدة الذهن إلى كل معنى معقول ، وصار المنطق الذى بان به غيرهم من الاستخراج مركوزاً فى أنفسهم من غير دلالة عليه .. بل فشا فيهم كالإلقاء والوحى ؛ لسرعة الذهن وجودة القريحة[1] » .

ويقول الجاحظ : « وكل شئ للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولامكابدة ولا إجالة فكرة ولا استعانة وإنما هو أن يَصْرِفَ وهْمه إلى الكلام ، وإلى رجَز يوم الخصام ، أو حين أن يَمْتَحَ على رأس بئر ، أو

---

(١) المقابسات لأبى حيان .

يحدو ببعير ، أو عند المقارعة والمناقلة ، أو عند صراع أو فى حرب ، فما هو إلا أن يصرف وَهْمَهُ إلى جملة المذهب ، وإلى العمود الذى إليه يقصد ، فتأتيه المعانى أرسالا ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا ، ثم لا يقيده على نفسه ، ولا يُدَرِّسه أحداً من ولده ، وكانوا أميين لا يكتبون ، ومطبوعين لا يتكلفون ، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه أقدر وأقهر ، وكل واحد فى نفسه أنطق ، ومكانه من البيان أرفع . وخطباؤهم أوجز . والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسر ، من أن يفتقروا إلى تحفظ أو يحتاجوا إلى تدارس ، وليس هم كمن حفظ علم غيره ، واحتذى على كلام من كان قبله »[1] .

٤ – الأحداث السياسية والدينية والاجتماعية

وإذا اضطربت الأمة لتغيير سياستها ، أو تبديل دينها ، أو إصلاح نظام اجتماعى من نظمها ، انبعث منها خطباء يتصدرون الدعوة ويحتضنونها ، فيدعون إلى الجديد ، ويكشفون عن مزاياه ، ويزعزعون القديم من النفوس ، وينفرون منه حتى يقوضوه . ولكن فى الناس من يحرص على القديم ويُلاحى عنه ، فيصطرع هؤلاء وهؤلاء ، وهم جميعاً يتذرعون بالخطابة ، وإن تسلحوا بأدوات القتال ، وقد مرَّ أثر الإسلام والنصرانية ، وأثر الدعوات السياسية فى رفع الخطابة .

وفى مصر خطباء يعالجون مشكلات المجتمع فى محافل عامة ، كمشكلة الفقر ، والجهل ، والمرض ، والبطالة ، والانحلال الخلقى وغيرها .

---

(١) البيان والتبيين ٣/٢٠ – ٢٦ .

٥ – الحروب والثورات

قد تندلع فى الشعب ثورات تنجلى عن رجات تهز النفوس ، وتفك عُقَدَ الألسنة ، وتتكشف عن وجهات نظر شتى فتنتعش الخطابة وينفسح ميدانها ، كما حدث فى الثورة الفرنسية ، وفى مقتل عثمان ، وفى الثورة العرابية ، وثورة مصر سنة ١٩١٩ ، وثورة يولية سنة ١٩٥٢ .

وقد تشتعل حرب بين أمتين ، لطمع إحداهما فى الأخرى ، أو منافستها لها فى مكانة أو مجال حيوى ، أو جريا وراء شهوة الغلب ، أو انتقاما وثأراً الخ . فتنطلق الألسنة داعية إلى جمع الكلمة ، ووحدة الغاية وبذل المال والروح ، كما كان يحدث بين القبائل العربية ، وبين الجمهوريات اليونانية ، كما حدث فى الحرب العالمية الأخيرة ، فكم من خطب سمع العالم وقرأ لهتلر وموسولينى وتشرشل وروزفلت ، وكما حدث فى مصر أيام العدوان الثلاثى .

وكثيراً ما يُسكر القائد جنوده بخطبة حربية قبيل خوض المعركة ، يحبب إليهم الجود بالنفس ، ويمنيهم بالنصر ، ويرهبهم من عواقب الهزيمة ، كما فعل طارق بن زياد لما عبر إلى الأندلس .

٦ – الأحزاب السياسية

وإذا تعددت الأحزاب السياسية فى أمة كثر خطباؤها وارتقت خطابتها ، فقديماً انقسمت أثينا إلى حزب وطنى يتزعمه ديموستين ، خطته أن يبقى بمعزل عن محالفة ملك مقدونيا ، وأن تحيا أثينا حرة مستقلة ، وحزب يتزعمه أشين يدعو إلى هذه المحالفة ، وكان من آثار هذا الانقسام أن أينعت الخطابة فى أثينا .

وحديثاً تعددت الأحزاب السياسية فى العالم ، وكان فى تعدادها إنعاش للخطابة .

وقد كان فى مصر أحزاب عدة ، ولكل حزب خطباؤه اللُّسْن ، يخطبون فى البرلمان ، وفى المحافل ، وفى المناسبات ، وكثير منهم جذاب خلاب .

— ٧ —

وهناك عوامل أخرى مثل انتشار التعلم ، وازدهار الثقافة ، والوعى القومى ، والحكم الدستورى النيابى ، وكثرة المؤتمرات الدولية ، وتعدد المشكلات العالمية .

الفصل الثالث
نفسية الجماعة ومسلك الخطيب نحوها

وحدة شعورها وتفكيرها .

خضوعها لسلطان الوجدان أكثر من سلطان الفكر .

غلبة روح الجماعة حتى على المستنيرين .

انتشار الشعور الجمعي بالتأثير والعدوى ، والمغالاة فى هذا الشعور .

لعب الخطيب بخيال الجماعة .

نفوذ الخطيب وعلاقته بتسيير الجمع ، وأنواع هذا النفوذ وعوامله .

عوامل الاستمالة .

* * *

سبق أن الخطابة لابد أن تكون فى جمع من الناس ، يحاول الخطيب إقناعهم ، ويجدُّ فى استمالتهم .

وسبق أن الخطيب لابد أن يعرف نفسية السامعين وعقليتهم ، ليسلك المسالك الموصلة إلى إقناعهم واستثارتهم والتصرف فى مشاعرهم .

واذكر الآن أن الخطيب أحوج إلى الاستمالة منه إلى الإقناع ، لأن الجماعة أقدر على العمل منها على التفكير .

١ – وحدة شعورها وتفكيرها :

أهم ما تمتاز به الجماعة سريان روح عامة تصوغ أفرادها على شعور واحد ، وتفكير واحد ، فتعمل بطريقة تغاير طريقة الفرد ، سواء تشابه أفراد الجمع أم تغايروا فى أعمالهم وأخلاقهم ومداركهم .

وسبب ذلك انضمامهم وصيرورتهم جماعة واحدة . ومن الأفكار والمشاعر مالا يتولد أو يتحول فيخرج من القوة إلى الفعل إلا عند الفرد فى جماعة . فالجماعة ذات عارضة متألفة من عناصر مختلفة اتصل بعضها ببعض إلى أجل كخليات الجسم الحى التى ولدت باتصالها ذاتاً أخرى لها صفات غير صفات كل خلية منها . ولا يوجد بين العناصر التى تتكون منها الجماعة حدّ وسط ، وإنما الذى يوجد مزيج وصفات جديدة ، كما يحدث فى الجواهر الكيميائية ، ألا ترى أنك إذا جمعت جوهرين مثل القواعد والأحماض تولد عن اجتماعهما جسم جديد ذو خواص تخالف تماماً خواص كل واحد من الجوهرين ؟[1] » .

٢ – خضوعها لسلطان الوجدان أقوى من خضوعها لسلطان الفكر :

والجماعة يسيرها الوجدان أكثر مما يوجهها الفكر ، لأن الأفراد إن فرقت بينهم الخواص الفكرية المتأثرة بالتربية ، والوراثة الخاصة ، والمواهب الطبيعية ، فإنهم يتشابهون فى الخواص الوجدانية والشهوات «وأعظم الرجال لا يتفاوتون عن العامة فى الأمور التى مرجعها إلى الوجدان ، كالدين والسياسة والأدب والميل والنفور وهكذا إلا نادراً فقد يكون بين الرياضى الكبير وصانع حذائه بُعْدُ ما بين السماء والأرض ، من حيث العقل والذكاء ، ولكن الفرق بينهما فى الطباع معدوم فى الغالب أو هو ضعيف جداً »[2]

ولذلك إذا اجتمع الأفراد فى مجتمع خضعوا للوجدان والعواطف والأهواء ، واستترت قُدَرهم العقلية ، وانزوى التفكير الفردى ، وصار السلطان للخواص المتشابهة النابعة من الوجدان . .

فالجماعة تسيرها عواطفها ولا يحكمها عقلها « حتى إنك لا تجد فرقاً كبيراً فيما يقرره جمع من نخبة الرجال ذوى الكفايات المختلفة ، وما يقرره جمع كله من البلداء فى موضوع المنفعة العامة ، لأنهم لا يمكنهم أن يشتركوا فى هذا العمل إلا

---

(١) روح الاجتماع ٢٨ .

(٢) روح الاجتماع ٣٠ .

بالصفات العادية التي لكل الناس ، فالذى يغلب فى الجماعات إنما هو البلاهة لا الفطنة »[1] .

ولست أوافق جوستاف لوبون فى هذا الرأى موافقة كاملة . فإن علماء الاجتماع الآن اصطلحوا على أن الجماعة خاضعة للأفكار أيضا إلى جانب العواطف . ولكن مما لا مساغ للشك فيه أن العواطف تتحكم فى الجماعات البدائية أكثر من العقل ، والجماعة المدنية أمام الخطيب المدنى تنزع إلى التفكير البدائى ، فتميل إلى جانب العاطفة أكثر من الفكر .

فعلى الخطيب أن يثير بخطبته العاطفةَ والشعور ؛ لينقل أحاسيسه ومشاعره إلى الجمهور .

قال دلامير : « إن الذى يكتفى بالإقناع دون التحميس متكلم لا بليغ »
قال رفالور : « إن الأهواء والعواطف هى الخطيب فى الجماهير » .
وقال ميرابو : « إنما السر فى البلاغة الخطابية أن يكون الإنسان ملتهباً بالعواطف » .

٣ – غاية روح الجماعة حتى على المستنيرين :

ولقد يتأثر بروح الجماعة حتى المستنير المتبصر . فينطبع بطابعها . ويتسم بالسذاجة وسرعة التصديق . ويصير ثائراً عنيفاً تخلبه الألفاظ والصور خلابة ما كانت لتُهَدْهِد قلبه . وتمتلك عواطفه لو أنه منفرد .

وذلك هو السر فى أن المحلَفين يقررون أموراً يرفضها كل منهم إذا عُرضت عليه منفرداً . لأن ثقافتهم ليست قانونية . فهم يخضعون للظروف وفى أن المجالس النيابية تسن قوانين أحياناً لا يرضاها الأعضاء منفردين .

ولقد يفقد الفرد استقلاله الذاتى إذا انخرط فى الجمع . وتتبدل أفكاره ومشاعره ، فيصير البخيل جواداً ، ويستحيل المتردد موقناً ، وينقلب الجبان

(١) روح الاجتماع ٣١ .

شجاعا » هكذا قرر الشرفاء لما تحمسوا ليلة ٤ أغسطس سنة ١٧٨٩ التنازل عن امتيازاتهم ، ومن المحقق أنه لو طلب ذلك من كل واحد منهم على انفراد لرفضه رفضاً باتا[١] » .

وحتى على فرض أن الفرد يستطيع أن يُسْهم مختاراً فى إيجاد بعض الانفعالات الاجتماعية ، فإن الحالة النفسية التى يشعر بها فى الجماعة مغايرة لما يشعر به منفرداً .

« فإذا انفض الجمع ، وكفت العوامل الاجتماعية عن التأثير فينا ، ووجد كل امرىء منا نفسه وجهاً لوجه ، فإن العواطف التى مرت بشعورنا قبل ذلك تبدو لنا غريبة ، إلى حد أنا لا نكاد نصدق أنها مرت بشعورنا فعلا .

ومن الممكن جداً أن يندفع بعض الأفراد المسالمين كل المسالمة إلى قيام بأعمال همجية متى وجدوا فى جماعة . وينطبق هذا الانفجار الاجتماعى المؤقت على حركات الرأى العام الأكثر دواما ، أى على تلك التيارات الاجتماعية التى تحدث فى بيئتنا دون انقطاع ، أى التى تنشأ إما فى المجتمع بأسره ، وإما فى بعض دوائره الضيقة التى تمس العقائد الدينية والسياسية ، أو التى تتعلق بالآراء الأدبية والفنية وغيرها »[٢] .

فالعواطف الاجتماعية التى تنفجر فى حفل ليست معبرة فقط عن مقدار من العاطفة مشترك بين أفراد هذا الحفل ، بل هى معبرة أيضاً عن شىء جديد ، فهى وليدة الحياة فى جماعة ، لأن المجتمع ليس مجرد مجموعة من الأفراد ، وإنما هومركب جديد ينشأ من اتحادهم ، ولهذا المركب صفاته الخاصة .

فيعلم الخطيب أن الجماعة تنقاد بالاستهواء والتأثير أكثر مما تنقاد بالمحاجَّة والإقناع ، وأنها إن كانت أضأل من الفرد تفكيراً ، وأقل ترْوية ، فإنها أغزر شعوراً ، وأسرع استجابة ، وهى قابلة للمقادة إلى الخير وإلى الشر ، فليستفزها الخطباء إلى الغيرة على الوطن ، والذود عن الشرف ، وإلى التضحية لنصرة الحق

---

(١) روح الاجتماع ٣٥ .

(٢) قواعد المنهج فى علم الاجتماع ٣٦ .

والدين والمذهب ، وإلى التفانى فى كسب المجد والفخار ، فإنهم حينئذ يهزون أوتار القلوب ، فيستجيب لهم الشباب والشيب .

ولقد حدث هذا فى الصراع العنيف بين الشيعة والأمويين والخوارج ، وحدث فى ثورة سنة ١٩١٩ وفى ثورة مصر سنة ١٩٥٢ ، وفى كثير من الأحداث التى ولتها إلى اليوم .

٤ – انتشار الشعور الجمعى بالتأثير والعدوى ومغالاة الجماعة فى شعورها :

وسرعان ما ينتشر الشعور فى الجماعة بالتأثير والعدوى ، ويمتد هذا الشعور ويقوى بإطباق الكل على قبوله ، فتغالى فيه الجماعة ، لأنها دائماً تتغالى فى شعورها ، ولذا لا يستهويها إلا المشاعر المغالى فيها .

فالخطيب التواق إلى قيادتها محتاج إلى الإكثار من التوكيد والتكرار والمبالغة ، لأن الجماعة تتطلب من أبطالها الغلو أيضاً فى مشاعرهم ، فهم القبس الأول الذى يسرى فى الجماعة نوراً يهدى أو ناراً تحرق ، وقد شوهد أن الجماعة تطلب من أبطال الروايات فى المسارح شجاعة وأخلاقاً وفضائل ليست لأحد فى الوجود الحقيقى (١) .

وتأثر الجماعة بالعدوى ظاهرة اجتماعية لا نفسية ، معتمدة على المحاكاة ، كأن يصفق الصف الأول مثلا فتصفق الصفوف الأخر ، أو يهتف شخص فيردد الجميع هتافه . وهم فى عملهم هذا مدفوعون بشعورهم لا بفكرهم ، فالتأثر بالعدوى خارجى لا داخلى .

وكثيراً ما يتأثر الفرد فى الجماعة بعدوى شعورية فيأتى عملا ، فإذا انفرد وفكر فيما أتى دهش من نفسه أو خجل ، ولو أن شعوره كان داخلياً نفسياً ما دهش وما خجل . ونجد هذا فى المحافل ممثلا فى الهتافات وفى التأثر الوقتى الذى لا يلبث أن يزول أو يضعف ، ثم فى الأحكام العامة التى تصدرها الجماعات غير مستندة إلى تعليل ولا تحليل ، وإنما هى نوع من الإيحاء والعدوى .

---

(١) روح الاجتماع ٥٩ .

٥ – لعب الخطيب بخيال الجماعة :

كيف يصور الخطيب عاطفته ؟ وكيف يشرك الجمع معه فى هذه العاطفة ؟ وسيلته إلى ذلك الخيال والتصوير الشعرى ، فنى الخيال جاذبية وسحر ، وتهويل وتشويق ، وتفتير للعقل ، وإلهاب للعاطفة .

ولكن ليحذر الخطيب أن يغرق فى الخيال ، أو يلتزم وتيرة واحدة حتى لا يسئم السامعين ويفترهم ، كمن يديم النظر إلى جدول رقراق ، ويطيل الإنصات إلى خريره ، أوكمن يطيل استماع الأمواج المصطخبة والرياح الهوج ، أوكمن يطول به السفر فى قطار يقعقع ، فإن كل واحد من هؤلاء يألف ما يرى وما يسمع فيغالبه النوم ، وحتى النغمات الموسيقية المطربة تمل وتنوم إن لم يكن فيها تنويع وتغيير ، وصوت المغنى والمغنية – وإن كان حلواً عذباً مطرباً – يسأم إذا لم يسعفه التلحين بتغيير النغمات وتنويع النبرات .

كذلك الخطبة إن ازدحمت فيها المعانى الشعرية والصور الخيالية وسمتها بطابع التشابه ووحدة المنظر ، فأضعفت أثرها . وأنامت المستمعين لها . والجماعة تتأثر بالصور التى ترسم لها ممثلة نكبة أو خيانة أو تضحية الخ ؛ لتأثرها بالحوادث التى تراها وتشارك فيها . فهى تشبه حالم اليقظة يغفو وعيه ، وينطلق عقله الباطن فيرسم أحلاما ورؤى . فإذا ما تنبه الوعى ذهبت بدداً .

فالتخيل هو الطريق إلى استمالة الجماعة ، والصور هى التى تجذبها وهى التى تفزعها . وهل إقبال الجموع على المسارح ودور الخيالة ، إلا من نتائج هذا الميل ؟ لأن الصور هناك ممثلة فى أجلى معارضها ، فيها مبالغة ، وتحيط بها ظروف تعظم من شأنها كالملابس والأضواء .

وهذا هو السبب فى أن الساسة فى كل عصر وكل قبيل أسسوا حكمهم على التخيل لأممهم .

وليست وسيلة التخييل أن نخاطب العقل ، أو نلجأ إلى المنطق والبحث ، فإن أنطونيو لم يوغر صدور الشعب على قاتلى قيصر ببلاغة العبارة وقوة الدليل ، بل أوغرها بقراءته وصية القتيل وإشارته إلى جثته . إنما وسيلة التخييل توليد

صور واضحة مؤثرة ، فيها إبهام وإدهاش وهزة ورجة « ومئة جرم صغير أو مئة رزء صغير لا تؤثر أقل تأثير فى تصور الجماعات ، لكن جرماً واحدا كبيراً أو رزءاً كبيراً واحداً يؤثر فيها أثراً شديداً ، وإن قل ضرره كثيراً عن ضرر مئة الرزء كلها ، لأن الحوادث لا تؤثر فى تخيل الجماعات بذاتها ، بل المؤثر كيفية وقوعها وكيفية تمثيلها[1] »

فالخطيب الذى يعرف طريقة التأثير فى خيال الجماعات هو الجدير بأن يقودها ويتزعمها .

وبضرب جوستاف لوبون مثلا على تأثير الجماعة بحادثة واحدة — لأنها ارتبطت بصورة مثيرة أكثر من تأثرها بحوادث مشابهة لم ترتبط بصور مثيرة — أن إحدى البواخر انقطعت أخبارها ، فظن أنها غرقت ، فكان لهذا الظن تأثير كبير فى خيال الجماعات دام نحو ثمانية أيام ، ودل الإحصاء على غرق ٨٥٠ مركباً شراعياً و٢٠٣ مركباً تجاريا فى سنة ١٨٩٤ وفقدت معها أرواح وأموال لا تقدر قيمتها ، ومع ذلك لم تشغل هذه الخسائر الناس لحظة واحدة .

٦ — نفوذ الخطيب :

الجماعة تتأثر بالتوكيد ، ويزداد تأثرها به إذا كان موجزاً وخلواً من التدليل والاحتكام إلى العقل ، ولابد من تكرار هذا التوكيد ، ليعمق أثره ويرسخ فى القلوب سلطانه ، وإذا ما أكد أمر وكُرِّر نجَم عن التكرار والتوكيد تيار فكرى هو العدوى .

ومما يقوى تأثير التكرار والتوكيد والعدوى أن يكون الخطيب ذا نفوذ ، فيملأ القلوب روعة ، ويقبض على أزِمَّة العواطف بسلطانه الروحى .

وقد يكون النفوذ من مظاهر بعيدة عن نفسية الخطيب وشخصيته ، وقد يكون نفسياً شخصيا ، فالأول مستمد مثلا من رنين اسم الخطيب وشهرته ومجده الموروث ، أو وظيفته أو لقبه أو زيه أو سمعته ، ولذا قال (بسكال) بضرورة الجبة والشعر للقضاة ، ولولاهما لفقدوا ثلاثة أرباع نفوذهم .

(١) روح الاجتماع ٨٤ .

وروى الجاحظ أن إياس بن معاوية المزنى أتى حلقة لقريش فى مسجد دمشق فاستولى على المجلس ، ورأوه أحمر دميما ، رث الهيئة قشيفا ، فاستهانوا به ، فلما عرفوه اعتذروا إليه وقالوا : الذنب مقسوم بيننا وبينك ، أتيتنا فى زى مسكين تكلمنا بكلام الملوك[1] .

وقد يكون النفوذ للفكرة نفسها ، وهو نفوذ اكتسبته من التكرار وتقبل الأجيال « فمثلا مطالعة هومير تورث قراء هذا الزمن مللا شديداً ، ولكن لا يجرؤ أحد على القول به[2] » .

والنفوذ الشخصى قوة مغناطيسية توهب قلة من الناس ، يسيطرون بها على غيرهم ، ويجذبونهم إلى آرائهم ، وكان هذا سلاح الأنبياء ، وميزة من مزايا بعض الزعماء الخطباء مثل سعد زغلول ، وقد قال فيه لورد كرومر حين مغادرته مصر : « لقد علمنى كيف أحترمه » وقرر سكرتير لورد ملنر بعد وفاة سعد أن الشخصية التى أجلّها — بعد شخصية تشمبرلن — هى شخصية سعد باشا زغلول ، وإذا عرفنا أن سكرتير لورد ملنر صحبه إلى باريس ، وبقى بها طول انعقاد مؤتمر الصلح محتكاً بأقطاب السياسة الأوربية ، فلم يتأثر بشخصية واحد منهم كما تأثر بشخصية سعد ، أيقنا أن سعداً قد فاقت شخصيته شخصيات أقطاب مؤتمر الصلح ، ومنها بريان ولويد جورج .

النفوذ الشخصى إذاً عصا الخطيب السحرية ، والناس يحاكون ذا النفوذ الشخصى عامدين أو مسوقين بفطرتهم .

وإنما ينجح الخطباء فى المجالس النيابية بنفوذهم لا ببراهينهم ، ولذا يفقد العضو تأثيره إذا ما فقد نفوذه . وقد وصف مسيو ديكوب — وهو أحد النواب ، ومن علماء النفس المدققين — النائب الذى لا نفوذ له بقوله : « اذا استوى على منبر الخطابة أخرج من محفظته أوراقاً فنشرها أمامه على الترتيب ، وشرع يخطب مطمئناً ، وهو يفتخر فى نفسه بأنه سيثبت عقيدته لتسكين روح سامعيه ؛ لأنه

(١) البيان والتبيين ١/٩٥ .
(٢) روح الاجتماع ١٦٦ .

وزن أدلته وحررها ، وأعد شيئاً كثيراً من الإحصاء والحجج ، وأيقن أن الحق فى جانبه ، وأن معارضه لا يثبت أمام الحقيقة الناصعة التى يأتى بها . هكذا يبدأ معتمداً على صواب رأيه وإصغاء إخوانه ؛ لاعتقاده أنهم لا يطلبون إلا السجود أمام الحق ، وبينا هو يخطب إذ تأخذه الدهشة من اضطراب الحاضرين ، ثم يتقزز بالضوضاء الناتجة من ذلك الاضطراب ، ويتساءل كيف لا يسود السكون ؟ وما السبب يا ترى فى هذا الانصراف العام ؟ وما الذى يدور على ألسنة أولئك الذين يتحادثون فيما بينهم ؟ وما السبب القوى الذى يحمل ذاك على ترك مجلسه ؟ يتساءل الخطيب هكذا والحيرة تعلو جبهته ، فيفرك حاجبيه ، ويمسك عن الكلام . ويشجعه الرئيس فيعود بصوت مرتفع ، فيزيد الأعضاء فى عدم الإصغاء إليه ، فيجهر ويهتز ، فتزداد الجلبة حواليه ، ويعود لا يسمع نفسه ، فيمسك عن الكلام مرة أخرى ، ثم يخشى أن يدعو سكوته إلى أصوات (الإقفال : الإقفال) فيرجع إلى خطابته بما فيه من قوة ، وهناك تعلو الجلبة ، ويختلط الحابل بالنابل ، مما لا يقدر على وصفه الواصفون »[1] .

ومن دواعى نفوذ الخطيب نجاحه فى خطبه ، فيدين له الناس ، ويستعدون لسماعه متأثرين سلفاً ، وكذلك عزيمته القوية ، وعقيدته الحارة الصادقة ، فإن الجموع تذوب إرادتها فى إرادة محركها وزعيمها .

وكثيراً ما يغرر بالجماعة خطيب كاذب العاطفة ذو هوى خاص يخفيه ، ولكن تأثيره لا يدوم طويلا ، لأنه سيتكشف عن نفسية وضيعة وسفسطة ، أما أصحاب العقائد الراسخة والعواطف الصادقة فإن أثرهم دائم ، لأنهم أسكروا الناس بعد ما انْتَشَوْا هم ، مثل رجال الثورة الفرنسية ، وزعماء الحركة الوطنية فى مصر .

---

(١) روح الاجتماع . ٢٥٣ .

٧ – الاستمالة :

تقدم القول فى صفات الخطيب التى بها يسيطر على الجمهور ويروعه ، فيسحره بخطابته ، ويستميله إلى غايته .

أما الجمهور فإنه كما تقدم يستمال بإثارة المشاعر أكثر مما يستمال بالمنطق والدليل ، وحتى العدول المحلفون « لا يثبتون أمام امرأة توضع طفلها ، أو أمام صغار يتامى إذا نظروا إليهم ، قال مسيو جلاجو : ويكفى أن تكون المرأة ظريفة لتنال عطف العدول »[١] .

والجمهور ينبهر بنفوذ الخطيب كما سبق . وقد قيل فى وصف محام إنجليزى : « كان يترافع وهو يترقب حركات العدول . . . فكان يقرأ فى وجوههم أثر كل جملة وكل كلمة بما أوتى من الفراسة والتجارب ، ليعرف ما ينبغى بعد ذلك ، وكان يتفرس أولا فى العدول الذين صاروا معه ، ويخطو معهم فى خطابه الخطوة الأخيرة التى تمكنه من انحيازهم إليه ، ثم يلتفت إلى من يشعر منه بالانحراف عنه ، ويجتهد فى استكناه سبب ميله عن المتهم ، وهذا أدق ما فى عمل المحامى ، لأن الأسباب التى تبعث عن الرغبة فى الحكم على رجل بالعقوبة كثيرة بقطع النظر عن عدالة الحكم أو ظلمه »[٢] .

ومن المعروف عن المحامى الشهير لاشو أنه كان فى مرافعاته فى محاكم الجنايات لا يفتر عن ملاحظة العدلين أو الثلاثة الذين يتوسم أنهم أصعب مراساً من الباقين ، وأنهم أصحاب النفوذ . واتفق له مرة أنه لحظ بين العدول واحداً حاول أن يقنعه وأن يستميله بأقوى الوسائل ثلاثة أرباع الساعة ، فلم يفز بطائل ، وكان مجلسه السابع فى أول الصف الثانى ، وكاد اليأس يستحوذ على المحامى ، وفيما هو يفيض بلاغة إذ به يتوقف فجأة ، ويلتفت إلى رئيس المحكمة قائلا : « سيدى الرئيس ، أتسمحون فتأمرون بإسدال الستار الذى أمامنا ؟ فإن الشمس

(١) روح الاجتماع ٢١٧ .

(٢) روح الاجتماع ٢١٩ .

تخدش عيني حضرة العَدْل السابع » فاحمر وجه العدل وتبسم ، وشكر ، وصار من أنصار المحامى .

ومما يساعد الخطيب على الاستمالة :

١ – أن يراعى أصول المجاملة مع سامعيه ، فلا يجابههم بما ينفرهم منه ، بل يتخذهم أصدقاء لأفكاره .

٢ – أن يتحدث فيما يتصل بخبرته ، فليس من المستساغ أن يتحدث واعظ دينى فى أمور طبيّة ، ولا أن يتحدث طبيب فى أدق المسائل الخارجية ، بل على من يتحدث فيما لا يتصل بخبرته أن يكتفى بالإشارات لا بالتفصيل .

٣ – أن يراعى المستوى العقلى للسامعين ، فللعامة أفكار ، وللمثقفين أفكار .

٤ – أن يتجنب المظاهر التى تدل على ترفعه وكبريائه وتعاليه على سامعه .

الفصل الرابع
أنـــواع الخطب
تقســيم أرســطو

قسم أرسطو الخطابة ثلاثة أقسام ، لأن العناصر المكونة لكل خطبة ثلاثة :

(١) الخطيب (٢) الموضوع (٣) السامع .

والغاية فى الخطابة تتعلق بعنصرها الأخير أى السامع .

ولأن المستمعين ثلاثة :

فالسامع إما أن يكون قاضيا ، وإما أن يكون مستمعا عادياً .

كذلك القاضى إما أن يقضى فيما يتعلق بالماضى ، أو فيما يتعلق بالمستقبل ، فمن يقضى فى مسائل ماضيه فهو القاضى ، ومن يقضى فى مسائل آتيه فهو عضو المجامع العامة ،ومن يحكم على مقدرة الخطيب فهو المستمع العادى .

فأنواع الخطابة إذن ثلاثة :

١ – الخطابة الاستشارية (الْحَمْلِيَّةً) .

٢ – الخطابة القضائية .

٣ – الخطابة الاستدلالية ، أى خطب المدح والذم .

ولكل نوع منها اتجاه خاص .

١ – فى الخطابة الاستشارية يتوجه الخطيب إلى السامعين بالنصيحة أو بالتحذير ، والغاية من نصحه وتحذيره بيان النفع والضرر ؛ لأن الناصح يعرض ما يتقدم به على أنه الأصلح ، والمحَذِّر يعرض ما يرى فيه الضرر كله ، وما وراء النفع والضرر من شتّى الاعتبارات ، كالعدل والظلم والحسن والقبح مرده إلى هذين الغرضين .

٢ – وفى الخطبة القضائية يتوجه الخطيب إلى الاتهام أو إلى الدفاع . ومهمة

المتقاضين لا تخرج عن هذين ، لأنهم يهدفو إلى العدل أو الجور ، وعليهما يحمل كل ما يقال .

– وفى الخطبة الاستدلالية يتوجه الخطيب إلى المدح إلى أن الذم ، وهدفه الحسن والقبح الخلقيان ، وإليهما ترجع الأمور المتعلقة بهما .

ثم أخضع أرسطو تقسيمه للزمن ، فقال إن المستقبل هو ما يرمى إليه الناصح المشير ، فى الخطابة الاستشارية ما سيحدث هو مدار الخطبة ، وللمستقبل تكون النصيحة ، وفى المستقبل يكون التحذير .

والماضى هو جهة المتقاضى ، فالاتهام يكون بعمل قد وقع ، والدفاع يكون عن أمر قد حصل .

والزمن الحاضر هو مدار الخطبة الاستدلالية ، فالخطباء يمدحون ويذمون بحوادث ماثلة أمامهم .

وهذا لا يمنع أننا كثير ما نلجأ إلى الماضى نستمده الدليل ، أو إلى المستقبل لنفترض وقوعه[1] .

نجد من هذا أن أرسطو قسم الخطب إلى ثلاثة أقسام ، مراعياً للزمن من الخطبة وهى :

١ – الاستشارية أو الحملية ، وهى التى يقصد بها إثبات شىء أو نفيه . وذلك بالاستشارات ، وبمعادلة الآراء ، وحمل السامعين على الاقتناع بما يدعو إليه الخطيب ، أو الحمل على الخصيم بدحض رأيه وتفنيد حججه ، ومنها الخطب البرلمانية وهى تتناول شئون الدولة العامة من حرب وسلم وتشريع واقتصاد .

والخطابة الاستشارية متعلقة بالزمن المستقبل ، لأن الخطيب يريد حمل السامعين على فكرة أو إبعادهم عن فكرة ، كتأييد الحكومة أو لومها ، وفرض ضريبة أو إلغائها ، وهذا مرتبط بالزمن المستقبل لا بالماضى .

(١) الخطابة لأرسطو– ١/١١٢– ١١٥ .

٢ – القضائية ، وهى التى يدافع بها الخطيب عن متهم ليبرئه بوسائل شتى ، بعضها معتمد على وقائع معينة ، وبعضها مستنتج من أحداث ، وبعضها يشرح الظروف التى أحاطت بالمتهم فحملته على الجريمة ، مما يتلمسه المدافع عنه للاعتذار عنه وتبرير مسلكه .

وهذه متعلقة بالزمن الماضى ؛ لأن موضوعها جريمة حدثت ، أو تهمة لصقت وانتهى زمنها .

٣ – الاستدلالية ، وهى خطب المدح والذم لإنسان أو شىء ، وهى مبنية على الزمن الحاضر ، لأن المادح أو الذام يتناول شخصاً أو شيئاً حاضرا أمامه .

مناقشة هذا التقسيم

١ – ليس هذا التقسيم دقيقاً ، لأن الزمن يتداخل بعضه فى بعض ، فمثلا الخطابة الحملية – وهى مبنية فى نظر أرسطو على الزمن المستقبل – كثيراً ما تتناول الماضى والحاضر . والخطابة الاستدلالية – وهى مؤسسة فى رأيه على الزمن الحاضر – كثيراً ما تتعلق بالزمن الغابر ، كأن يعرض الخطيب إلى حياة المكرّم أو المؤّبن ليستخلص منها وقائع تدل على العظة ، ثم إن الخطيب الماهر من يتخذ هذا الضرب من الخطابة وسيلة لتحبيب البطولة إلى الجمع المستمع ، وترغيبه فى الخير والحق ، وهذا متعلق بالمستقبل . وكذلك الخطابة القضائية المرتبطة بالزمن الماضى فى نظر أرسطو قد تنجرُّ إلى المستقبل ، كالثقة بعدالة القضاة ، والنفرة من الجريمة .

ولكن هذا التقسيم – على عيوبه – قد استمد نفوذه وسلطانه من مكانة أرسطو ، فاستمر حتى القرن الثامن عشر ، وفى ذلك يقول الأب باتو Batteux فى كتابه (مبادئ الأدب) : ليس من التحكم أن نجارى بعض الخطباء الحالين القائلين إن هذا التقسيم عتيق وغير مبنى على قواعد متينة ، فلم يعد التقسيم صالحاً للاتجاهات الأدبية والفكرية الحديثة ، وقد ناقضه ديموستين فى خطبته المشهورة المسماة (خطبة العرش) فهو يتحدث عن القضية فى الماضى ،

ولكنه هاجم (إشين) Eschine مهاجمة عنيفة ، فبينما هو يخطب خطبة قضائية إذا به يسترسل فى خطبة استدلالية غرضها المدح والذم ، وزمنها الحاضر لا الماضى ، وكذلك فعل شيشرون فى دفاعه عن ميلون الذى قتل كلاديوس ، فخطابته ، قضائية ، ولكنها كانت مملوءة بعبارات المدح والذم ، وبالنظرات الاجتماعية التى راعى فيها مستقبل الجماعة وأمنها[1] .

٢ – وكثيراً ما تتداخل الأقسام ، كأن يلجأ المحامى – وخطبته قضائية – إلى الاعتماد على أمور سياسية ، ويعتمد الخطيب السياسى على أمور قضائية .

وقد أحس أرسطو نفسه أن الأقسام متداخلة ، وقرر ذلك فى قوله :

«كذلك الذين يهدفون إلى المدح أو الذم لا يبحثون فيما إذا كان ما يصدر عن ممدوحهم أو مذمومهم يعود بالنفع أو بالضرر (لأن غايتهم الحسن والقبح) وكثيراً ما يمجدونه ويثنون عليه ، لأنه احتقر منفعة خاصة فى سبيل الاستجابة لعمل من الأعمال الحسنة ، فهم يمدحون أخيل Achille مثلا ، لأنه انتقم لصديقه باتروكل Patrocle . وأخيل يعلم أنه كان يسلق حتفه ، وكان فى إمكانه أن يعمل على بقائه ، لأن الموت فى هذا السبيل كان أجل فى نظره من الحياة ، فالموت فى ساحة الشرف جميل» ، وكانت المنفعة فى استبقاء حياته ، فأخيل آثر العمل الجليل على المنفعة الخاصة[2] ونحن نعلم أن الغرض من خطب المدح والذم بيان الحسن والقبيح لا المنفعة الخاص .

٣ – ثم إن تقسيم الخطابة على أساس الغاية منها غير صحيح أيضاً ؛ لأن أرسطو يرى أن الغرض من الخطبة الاستشارية بيان النفع والضرر ، ومن القضائية تقرير العدل ورفع الجور ، ومن الاستدلالية معرفة الحسن والقبح . وهذه أغراض متداخلة ، فإن العدل حسن والجور قبيح ، وفى الإشادة بفضائل المكرَّم نفعٌ للشعب كله ، ودعوة ضمنية إلى الاقتداء بالمثل العالية . وهكذا تتداخل الغايات من الخطب .

(١) محاضرات الدكتور إبراهيم سلامة فى الخطابة .
(٢) الخطابة لأرسطو ١/١١٤ .

التقسيم الحديث

لا يبنى المحدثون تقسيم الخطابة على الزمن ، ولا على الغرض من الخطبة كما فعل أرسطو ، لأن الخطبة تستمد نوعها من ظروفها ، ومن اتجاه الخطيب نفسه . فالخطبة التى تلقى فى المجامع فى شأن من شئون الدولة العامة خطبة سياسية ، والتى تلقى فى المحاكم قضائية ، والتى تلقى فى المجامع للتكريم أو التأبين هى خطبة المدح ، فإذا كانت لإصلاح حال المجتمع فهى اجتماعية .

على أن أرسطو أهمل نوعين آخرين من الخطابة هما الخطابة الدينية ، والخطابة الحربية .

ولا نستطيع أن ندمج الخطابة الدينية أو الحربية فى نوع من الأنواع الثلاثة السابقة إلا بتعسف . لأن لكل منهما طابعاً خاصاً غير طابع الأنواع السابقة ، وغرضا خاصاً غير الأغراض السابقة .

فالتقسيم الحديث للخطابة تقسيم طبيعى يستند إلى موضوع الخطبة . ويعتمد على توجيه الخطيب نفسه .

وهى على هذا تنقسم إلى سياسية وقضائية ، وحربية ، وحفلية . ودينية .

على أن بعضها قد يتداخل ، فمثلا قد يخطب الخطيب فى تكريم شخص فيتناول مسائل سياسية ، أو يخطب فى ساحة القضاء فيتعرض لمسائل علمية ، ولكن هذا لا يخرج الخطبة عن أن تسمى باسمها الأصيل ، ولا يبعدها عن نوعها وطبيعتها .

الخطابة السياسية

تعريفها :

هى التى تدور حول الشئون العامة للدولة ، فتشمل الخطب التى تلقى فى البرلمان ، وفى المجتمعات الانتخابية ؛ والأندية الحزبية ، والمؤتمرات الدولية السياسية ، سواء تعلقت بأمور خارجية كالمعاهدات والحرب والسلام ، أو بأمور داخلية كالتعليم والاقتصاد والزراعة والتشريع ونظام الحكم .

عوامل ازدهارها :

هذا النوع من الخطابة يزدهر فى الدولة الدستورية ؛ لأنه وليد الحرية .

وقد بدأ عند اليونان فى القرن الخامس قبل الميلاد ، إذ كان الحكم جمهورياً ، للشعب فيه القيادة والتوجيه ، فارتبطت السلطة الحاكمة برضا الشعب وتأييده ، واعتمد طلاب الحكم على استرضاء الشعب وإقناعه ، وكانت الخطابة وسيلتهم إلى ذلك .

ثم ارتقت عند الرومان فى الجمهورية الديمقراطية ، إذ كانت شئون الدولة تناقش فى حرية بمجلس الشيوخ وبالمجتمعات الشعبية .

والحق أن الحياة السياسية عند اليونان والرومان كانت أعظم مشجع على ازدهار الخطابة السياسية ؛ لأنها كانت الوسيلة الوحيدة للاتصال بالشعب ، ولأن المهن التى تشغل الناس فى أيامنا هذه وتستنفد جهودهم كالصناعات والطب كانت عند اليونان والرومان من أعمال الأرقاء ، أما الأحرار فقد كان هدفهم الوصول إلى الوظائف العامة والمشاركة فى الحكم .

وفى العصر الحديث عظم شأن الخطابة فى الحكومات الديمقراطية النيابية كانجلترا وفرنسا ومصر .

والعصر الحديث عصر الخطابة السياسية ، لكثرة الأحزاب المختلفة فى وسائلها وغاياتها ، المعتمدة على الخطابة فى إقناع الجماهير بصواب الحزب وابتغائه الخير للأمة ، وفى استمالتها إلى نصرة الحزب وتأييده ، وفى تفنيد برامج الأحزاب الأخرى وانتقاص أعمالها ، ثم لقوة اتصال الأمم ، فقد ألغت وسائل الاتصال المسافات ، وربطت العالم ربطاً تنجم عنه مشكلات دولية ومؤتمرات لدراستها وحلها ، والمؤتمرون يتسلحون بالخطابة وتأثيرها ، ثم لانتشار الحكومات الديمقراطية والمجالس النيابية وفيها يتصاول الخطباء ، ثم ليقظة بعض الشعوب التى كانت فى سبات وتطلعها إلى حياة راقية كريمة ، على أن الوعى القومى نضج عند بعض الأمم ، وكاد ينضج فى بعضها ، وهذا من شأنه أن يوقظ الناس إلى حقوقهم فتزدهر الخطابة .

وهذا النوع وثيق الصلة بالشعب ، لأنه يتعلق بالشعب ، والحكم فيه للشعب ، فهو وصف Fenelen « القوة الوحيدة التى تسير القوم إلى الحرب أو تجنح بهم إلى السلم ، والشعب لا يؤثر فيه غير الكلام » .

عدة الخطيب السياسى

١ – يجب عليه أن يدرس الموضوع دراسة استيعاب وتعمق ، خصوصاً إذا خطب فى البرلمان ؛ لأن السامعين كلهم أو بعضهم على علم بالمسائل التى يخطب فيها ، وقد يكون بعضهم أغزر من الخطيب علماً ، وعليه أن يكون إذاً دارساً للائحة المجلس الداخلية ، ولشئون الدولة ولنظام المجتمع .

ومن الخطأ والخطر معاً أن يتصدى للخطابة السياسية من لم يُعِد نفسه ، ويدرس موضوعه ، ويلم بما يتصل به ، يقول موليير فى وصف نوع من هؤلاء : إن عباراتهم منمقة محفوظة ، وكلماتهم ضخمة جوفاء ، وفى أصواتهم نبرات ممتعة للإحساس ، وهم مهرة فى الضرب بالأيدى[1] .

وقديما قرر أرسطو أن أهم الموضوعات التى يتشاور فيها الناس – الخطابة

---

(١) نظرية الأنواع الأدبية ٧٥/٢ .

السياسية – تنحصر فى خمسة أشياء : الإيرادات ، الحرب والسلم ، حماية الوطن ، الاستيراد والتصدير ، التشريع .

وذكر الثقافة التى يجب أن يكون الخطيب ملماً بها فى كل موضوع من هذه الموضوعات الخمسة .

ويكفى أن نمثل بما ذكره فى الإيرادات ، قال : « على الخطيب أن يعرف موارد المدينة التى يعيش فيها ، وطبيعة هذه الموارد ، وعددها ، حتى يضيف إليها جديداً ، أو يزيد الناقص منها ، وكذلك عليه أن يعرف نفقات مدينته (وطنه) حتى يحذف منها غير الضرورى ، وينتقص مما يبهظها ، فليست الثروة فى زيادة الدخل فقط ، وإنما هى فى التقليل من الاستهلاك أيضاً ، ولا يكفى فى الشئون المالية مجرد التجربة لتكوين فكرة شاملة عنها ، بل لابد من عمل بحث تاريخى عن الوسائل التى ابتكرتها الشعوب الأخرى ، حتى يمكن إسداء النصائح الحكيمة فى المسائل المالية[1] » .

ثم تابع ما تتطلبه الشئون الأخرى من معرفة ودراسة[2] .

٢ – وأن يدرس نفسية السامعين ، ليعرف المنافذ إلى مشاعرهم ، والطريقة المثلى لاستمالتهم وإقناعهم .

٣ – وأن يكون سريع الخاطر حاضر البديهة ، قديراً على الرد فى مهارة ولباقة وإفحام إذا فجأه سامع بسؤال أو معارضة أو مقاطعة . وقد مر طرف من هذا فى صفات الخطيب ، قالت سيدة لخطيب من غير حزبها وهو مسترسل فى الخطابة : . لو كنت زوجى لسقيتك السم » فقال لها على البديهة : « ولو كنت زوجتى لشربت السم من يدك راضياً » .

٤ – أن يكون حار العاطفة ، معتقداً ما يقول ومقتنعاً به ، لينقل حماسته إلى السامعين ، فإن الكلام إذا صدر من القلب وصل إلى القلب .

(١) الخطابة لأرسطو ١١٩/١ .
(٢) الخطابة لأرسطو ١٢٠/١ – ١٢٢ .

٥– أن يكون قديراً على تنفيذ آراء خصمه بالأدلة،وأن يبتعد فى تفنيده عن المسائل الشخصية ، وينصرف إلى الموضوع نفسه ، فيبين ما فى آرائه من الخير للأمة ، وما فى آراء خصمه من الضرر .

وبهذه العدة بَهَر مصطفى كامل ، وسحر سعد زغلول ، وأثر ميرابو وغامبتا ووليم بت ، وهم جميعاً لاسلاح لهم أقوى تأثيراً فى النفوس من الكلام .

خصائص أسلوبها :

١ – تعتمد على الخيال لإثارة العاطفة ، فالخطيب فى هذا النوع شاعر حريص على الاجتذاب والاختلاب بما يجلو من الصور ، وبما يعقد من الموازنات ، وبما يرسم من آمال ، وهو شديد الحاجة إلى هذا فى الحفلات الانتخابية ، ليهز سامعيه ، ويستميلهم إلى جانبه ، فهم كما قال جوستاف لوبون : قلما تذكروا وعود الخطيب بعد نجاحه فى الانتخابات ، أو ساءلوه عن البرنامج الإصلاحى الذى وعدهم به[١] .

ولعل هذا وأمثاله يقرب إلينا تعريف توسيديس للخطابة بأنها استعمال عبارات خلابة لتحقيق غايات جنائية . وقد تلطف أحد رؤساء الوزارة البريطانية فوصفها بأنها الخديعة السياسية[٢] .

٢ – تتنوع أساليبها الرائعة من شدة إلى لين ، ومن جد إلى هزل ، ومن إخبار إلى استفهام ، ومن تسليم إلى إنكار إلخ .

٣ – اللباقة فى التعبير بحيث تؤدى الجملة ما يريد السياسى ، فقد تكون صريحة لا التواء فيها ، وقد تكون مبهمة كما فى بعض التصريحات السياسية .

٤ – الاستشهاد بنصوص القوانين والمعاهدات ، وتصريحات الساسة إذا عرض الخطيب لتصرف سياسى ذى صلة بالقانون ، وكثيراً ما يحدث هذا فى البرلمان وفى هيئة الأمم المتحدة وفى مجلس الأمن ، والاقتباس من مأثور الكلام

---

(١) روح الاجتماع .
(٢) الخطابة . نقولا فياض .

الرائع ذى السلطان على النفوس ، كآية كريمة ، أو حديث شريف ، أو بيت طائر ، أو مثل سائر .

أمثلة للخطابة السياسية

١ – منها خطب الخلفاء حين توليتهم ، والولاة والعمال حينما يعهد إليهم بالولاية ، ليبينوا للناس سياستهم أو يبشروهم بوعود ، أو يسكنوا من ثورة ويخمدوا من فتنة .

ولعل أول خطبة من هذا النوع هى خطبة أبى بكر بعد بيعته ، التى قال فيها :

« أيها الناس إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتمونى على حق فأعينونى ، وإن رأيتمونى على باطل فسددونى ، أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لى عليكم .

ألا إن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم » .

٢ – وتتابعت خطب الخلفاء والولاة[١] ، كزياد بالبصرة والحجاج بكوفة والبصرة وعبد الملك بن مروان بدمشق وأبى حمزة الشارى بالمدينة ، كقول أبى حمزة[٢] حينما بلغه أن أهل المدينة يعيبون أصحابه لحداثة أسنانهم ، وخفة أحلامهم :

« يا أهل المدينة ، قد بلغتنى قالتكم لأصحابى ، ولولا معرفتى بضعف رأيكم وقلة عقولكم لأحسنت أدبكم .

ويحكم ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزل عليه الكتاب ، وبيّن له فيه

(١) راجع كتاب (أدب السياسة فى العصر الأموى) للمؤلف .

(٢) هو المختار بن عوف الازدى أحد زعماء الإباضية ، بايع بالخلافة عبد الله بن يحيى سنة ١٢٨ هـ فوجهه عبد الله إلى مكة . فغلب عليها ، ثم غلب على المدينة سنة ١٣٠ هـ .

السنن ، وشُرع له فيه الشرائع ، وبُيِّن له فيه ما يأتى وما يذر ، فلم يكن يتقدم إلا بأمر الله ، ولا يحجم إلا عن أمر الله ، حتّى قبضه الله إليه ، صلى الله عليه وسلم ، وقد أدَّى الذى عليه ، وعلَّم المسلمين معالم دينهم ، ولم يَدَعهم من أمرهم فى شبهة .

وولَّى أبا بكر صلاتهم ، فولاه المسلمون أمر دنياهم حين ولاه رسول الله أمر دينهم ، فعل بالكتاب والسنة ، وقاتل أهل الرد ، وشمَّر فى أمر الله حتّى قبضه الله إليه ، والأمة عنه راضون ، رحمه الله .

ثم ولِّى عمر بن الخطاب ، فسار بسيرة صاحبه ، وعمل بالكتاب والسنة ، وجنَّد الأجناد ، ومَصَّر الأمصار . . . حتّى قبضه الله إليه ، والأمة عنه راضون ، رحمة الله عليه ورضوانه ومغفرته .

ثم ولِّى من بعده عثمان بن عفان ، فسار ست سنين بسيرة صاحبيه ، وكان دونهما ، ثم سار فى الست الأواخر بما أحيط به الأوائل ، واضطرب حبل الدين بعدهما ، فطلبها كل امرئ لنفسه ، وسرّ كل رجل منهم سريرة أبداها الله عنه حتّى مضوا على ذلك .

ثم وُلِّىَ على بن أبى طالب ، فلم يبلغ من الحق قصداً ، ولم يرفع له مناراً ، ثم مضى لسبيله .

ثم وُلِّى معاوية بن أبى سفيان ، لعين رسول الله ﷺ وابن لعينه[1] ، وجِلْف من الأعراب ، وبقية من الأحزاب ، فسفك الدم الحرام ، واتخذ عباد الله خَوَلا ، ومال الله دُوَلا ، وبغى دينه عِوجا ودَغَلا ، وأحلَّ الفرج الحرام ، وعمل بما يشتهيه حتّى مضى لسبيله ، فالعنوه ، لعنه الله .

ثم وُلِّى بعده ابنه يزيد . . .[2] » .

---

(١) روى أن أبا سفيان كان على جمل ومعاوية يسوقه وعتبة يقوده ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم العن الراكب والسائق والقائد .

(٢) البيان والتبيين ٦١/٢ والأغانى ١٠٤/٢٠ وشرح نهج البلاغة ٤٥٩/١ .

٣ – من خطبة لسعد زغلول فى ١٩ سبتمبر سنة ١٩٢٣ .

« يقول خصومنا إننا حماة الأقلية فيكم ، لأنكم قوم متعصبون ، فلابد من أن نبقى بينكم ، لنحفظ العدل فيكم . هذه الحجة سقطت باتحادكم ، ولكنهم الآن انتهزوا فرصة الانتخاب ليبثوا الانقسام فيكم ، فاحذروا هذه الدسيسة ، واعلموا أنه ليس هناك أقباط ومسلمون ، وليس هناك إلا مصريون فقط ، ومن يسمونهم أقباطا كانوا ولا يزالون أنصاراً لهذه النهضة ، وقد ضحوا كما ضحيتم ، وعلموا كما علمتم ، وبينهم أفاضل كثيرون يمكن الاعتماد عليهم . فاحثوا التراب فى وجوه أولئك الدساسين الذين يفرقون بين مصريين ومصريين ، إنه لا امتياز لواحد على آخر إلا بالإخلاص والكفاءة . . ولولا وطنية فى الأقباط وإخلاص شديد ، لتقبلوا دعوة الأجنبى لحمايتهم ، وكانوا يفوزون بالجاه والمناصب بدل النفى والسجن والاعتقال ، ولكنهم فضلوا أن يكونوا مصريين معذبين محرومين من المناصب والجاه والمصالح ، يسامون الخسف ، ويذاقون الموت والظلم ، على أن يكونوا محميين بأعدائهم وأعدائكم .

هذه المزية يجب علينا أن نحفظها ، وأن نبقيها دائماً فى صدورنا . وإنى أفتخر بكم كل الافتخار كلما رأيتكم متحدين متساندين ، فحافظوا على اتحادكم .

وهناك افتخار آخر لهذه النهضة وهو التفاف الأمة حول شخصى الضعيف .

تعودتم طاعتى وأنا لم أكن أميراً فيكم ، ولا قريباً لبيت مُلك اعتدتم الخضوع له ، ولا أنا من بيت كبير ، بل أنا فلاح ابن فلاح من بيت صغير يقول عنه خصومنا إنه حقير ، ونعمت الحقارة هذه . ولم أكن غنياً ليكون التفافكم حولى طمعاً فى مال ، ولا أنا ذو جاه أوزع الجاه على من يطمع فيه ، ولكنكم التففتم حولى ، فدللتم بذلك على أنكم لا تطلبون مالا ولا جاها ، بل السجن فى بعض الأوقات » .

٤ – من خطبة لمصطفى كامل بالإسكندرية ١٨٩٧ :

« أيها السادة ، إنكم باجتماعكم اليوم هذا الاجتماع الوطنى ترفعون كثيراً من

مقام الوطنية المصرية ، وتخففون من الآم مصر العزيزة التى قاست وتقاسى أشد العذاب على مشهد منكم يا أعز بنيها ويا نخبة أنجابها .

فكل اجتماع وطنى تذكر فيه مصر ويطالب بحقوقها ، ويعلن أبناؤها إخلاصهم لها هو فى الحقيقة مرهم لجراحها ، ودواء لدائها . فاذكروها ما استطعتم ، فإن فى ذكراها آلامها ، وذكرى الآلام تجر حتما إلى ذكر عوامل الشفاء . اذكروها كما يذكر الولد الحنون أمه الشفيقة ، وهى على سرير المرض والعناء . اذكروها بآلامها وإن كان غيركم يذكر بلاده بمجدها ورفعة شأنها . اذكروها فإنكم ما دمتم مقدرين لمصائبها عارفين بحقيقة آلامها دام الأمل وطيداً فى سلامتهاودام الرجاء ، اذكروها فمن المستحيل أن يرى العاقل النار فى داره ، والداء فى شخص أمه ، ويهمل النار ويهمل الداء . ومن المستحيل أن يكون الوطن فى خطر ونحن نيام ، وأن يعمل الأجنبى لامتلاك بلادنا وسلب حياتنا بل لاستعبادنا واسترقاقنا ونحن جامدون لا عمل لنا ولا حراك .

ألقوا أيها السادة بأنظاركم قليلا إلى الأمم الحرة تجدوا كل فرد فيها يدافع عن وطنه ، ويذود عن حوض بلاده أكثر من دفاعه عن أبيه وأمه ، بل هو يرضاهما ضحية للوطن ، ويرضى نفسه قبلهما قرباناً يقدمها لإعلاء شأن بلاده ، ويعد الموت من أجل الوطن حياة دونها الحياة البشرية ، ووجوداً دونه كل وجود ، فلم لا يكون المصرى على هذا الطراز ، ووطنه أجمل الأوطان وأحقها بمثل هذه المحبة الشريفة الطاهرة ؟

اسألوا التاريخ أيها السادة ما واجب أمة دخل الإنجليز ديارها خدعة ، وعملوا لامتلاكها وسلبها كل سلطة وكل قوة ؟ يجبكم التاريخ أن واجب أمة هذا شأنها أن تعمل بكل ما فى استطاعتها ضد مغتصبيها ، وأن تبذل فى سبيل خلاص وطنها كل ما تملك من مال ورجال » .

٢ – الخطابة القضائية

تعريفها :

هى التى تلقى فى المحاكم سواء كان الملقى ممثل النيابة أم المحامى عن المتهم .

نظامها اليونانى والرومانى :

وهى قديمة العهد عند اليونان والرومان ، وكانت لها أصول تغاير ما عندنا .

١ – كان القضاة (المحلفون) فى محاكمهم أكثر عددا ، حتى بلغوا فى بعض القضايا عند الرومان أربع مئة قاض ، فكان المحامون يتجهون إلى التأثير فى عواطف هذا الجمهور أكثر من اعتمادهم على القانون ، ولكن عدد القضاة عندنا لا يزيد على ثلاث مئة ، فالمحامى يخاطب عقل القاضى أولا ، ثم يحاول أن يستميله .

على أنهم لم يسمحوا فى المحاكم المدنية بالتأثير العاطفى .

٢ – وكان قضاتهم مفسرين للقانون ومشرعين ، فكان المحامى يجتهد فى التأثير على عواطفهم ، ليحكموا وفق ما يريد ، وكان لا يحصر دفاعه فى دائرة القانون ، أما الآن فالقضاة مطبقون للقانون فحسب ، والمحامى مقيد فى دفاعه بهذا القانون أيضا ، وكيف ينتظر من محلّفين لا دراية لهم بالقانون أن يلتزموا القانون ؟

٣ – ولم تكن القوانين عندهم كاملة منوعة كما هى الآن ، فالخطابة القضائية الآن أعسر مما كانت عندهم .

٤ – وكان المحامون عند اليونان لا ينوبون عن أرباب القضايا ، بل كان صاحب القضية يترافع بنفسه ، ولكن الناس لا يستطيعون كلهم أن يجيدوا المرافعة ، فكانوا يلجأون إلى الخطباء ليعدوا لهم خطبهم ، فكثر المحترفون بإعداد الخطب وبتعليمها ، واشتهر بذلك السفسطائيون .

وكثيراً ما جاب بعض الخطباء بلاد اليونان وخطبوا فى موضوعات متخيلة على جموع الناس فى الأندية والمؤتمرات.

٥ – أما الرومان فقد أباحوا للمتقاضين أن ينيبوا عنهم محامين.

غايتها

الغرض منها تمييز الحق من الباطل. والفصل فى المنازعات، ومساعدة العدالة على القصاص من الجانى، وتبرئة المتهم البرئ، وحماية المجتمع من الجريمة، ولذلك يجب أن يتعاون القاضى والنائب والمحامى على إحقاق الحق، ونصرة المظلوم، ومحاربة الجرائم.

ومن الباطل أن يحترف بها بعض المحامين للاستغلال وكسب المال، وذلك بتنجية المجرم الآثم بقوة البيان، وفصاحة المنطق، وذلاقة اللسان، وهم يعلمون أنه أثم، ولكنهم يبتدعون الحيل لإفلاته بدعوى أنه لم يجرم، على أنهم فى حل من أن يحاولوا تخفيف العقوبة ببيان دوافع الجريمة وظروفها وعللها.

ولخطورة الخطابة القضائية نظر إليها القدماء نظرة فيها وجَل وتردد، فمثلا كان قدماء المصريين فى بعض عصورهم يقيدون المرافعة بأن تكون مكتوبة، مخافة أن تتأثر العدالة بخلابة الخطابة.

وتبين اليونان أثر مرافعتهم، فسنوا القوانين لمنع الخطباء من استخدام الوسائل المثيرة للوجدان، وبالغوا فى ذلك حتى عينوا رجلا يقاطع المحامى أو يسكته، إذا رآه يحاول إثارة العاطفة.

أما الرومان فقد تركوا الدفاع حرًّا يقول ما يشاء، ثقة بالقضاء واعتماداً على صراحة القانون ووضوحه، وهذا هو النظام المتبع فى العالم اليوم.

وإذا كان بعض القضاة يؤجلون الحكم مدة بعد سماع المرافعات، فإنما يفعلون ذلك ليدرسوا ويوازنوا أقوال الدفاع بأقوال الاتهام، وهم بنجوة من تأثير هؤلاء وهؤلاء.

مرافعة النيابة وخصائصها :

النائب هو الذى يقوم بإثبات الجريمة ، ويدلل على اقتراف المجرم لها ، ويطلب من القاضى إدانته بمواد من القانون مناسبة لجريمته .

وعليه فى مرافعته :

١ – أن يذكر الأدلة خالية مما يهيج العاطفة ضد المتهم إلا بقدر ، فإذا توقع أن الدفاع سيثير العاطفة كان له أن يستثيرها .

٢ – أن يصور الجريمة تصويراً واقعياً حقيقياً لا خيال فيه ولا تَزَيدٌ ، حتى تنكشف الحقيقة أمام القاضى .

٣ – أن يشرح الجريمة فى غير إيجاز مخل يُعَمِّى على العدالة ، ولا إسهاب مُمِلٍ يضيع وقت القاضى ، ويضعف نشاطه .

٤ – أن تكون عباراته عن المتهم مهذبة لا تهجم فيها ولا عدوان ولا سباب ، لأن المتهم برئ حتى تثبت إدانته .

٥ – أن يحدس قوة المحامين ، ويعرف أقدارهم ، فإن كانوا من ذوى البلاغة والرسوخ فى المهنة جاراهم من غير أن يتجنى على المتهم أو يُلَبِّس على العدالة .

٦ – وعلى النائب أن يختار العبارات السهلة المنسجمة المترسلة الواضحة المعنى ، وألا يتكلف المحسنات البديعية والأساليب البيانية ، حتى لا تلتبس الحقائق بالخيال . وقد عيب أحد رجال النيابة المصريين فى قضية شهيرة سنة ١٩٤٧ لأنه عمد إلى هذا الأسلوب .

٧ – وإذا ما عرض لقوة القانون وسلطانه فليتخير الألفاظ الفخمة والعبارات القوية ، ليمثل مهابة القانون .

ومن البارزين فى مصر فى هذا المجال ثروت وأبو السعود وزكى الإبراشى ولبيب عطية ، طيب الله ثراهم .

قال النائب العام عبد الخالق ثروت فى قضية الوردانى الذى قتل بطرس غالى رئيس الوزراء :

« إن الوطنية التى يَدَّعى الدفاع عنها بهذا السلاح المسموم لَبَرَاءٌ من مثل هذا المنكر .

إن الوطنية الصحيحة لا تَحُلُّ فى قلب ملأته مبادئ تستحل اغتيال النفس ، إن مثل هذه المبادئ مقوضة لكل اجتماع .

وماذا يكون حال أمة إذا كانت حياة أولى الأمر فيها رهينة حكَمٍ مُتَهَوِّسٍ يبيت ليله فيضطرب نومهُ ، وتكثر هواجسهُ ، فيصبح صباحَه ، ويحمل سلاحه ، يغشاهم فى دار أعمالهم فيسقيهم كأس المنون ؟ ثم إذا سئل فى ذلك تبجَّح وقال : إنما أخدم وطنى ، لأنى أعتقد أن مثلهم خائنون للبلاد ضارون بها .

تباً لتلك المبادئ ، وسَحْقاً لها .

كيف يقوم لنظام قائمة مع تلك المبادئ الفاسدة ؟ إن مبادئ كل اجتماع ألا ينال إنسان جزاء على عمل مهما كان هذا الجزاء صغيراً إلا على يد قضاة اشترطت فيهم ضمانات قوية ، وبعد أن يتمكون من الدفاع عن نفسه ، حتى ينتج الجزاء النتيجة الصالحة التى وُضِع لها من حماية الاجتماع .

فإذا كان هذا هو الشأن فى أقل جزاء يلحق بالنفس أو بالمال ، فما بالك بجزاء هو إزهاق الروح والحرمان من الحياة ؟

تلك مبادئ لا وجود لمجتمع إلا بها ، ولا سعادة له بدونها . فالطمأنينة على المال والنفس هى أساس العمران ، ومن الدعائم التى دُعِمَ عليها فى كل زمان ومكان ، ولكن الوردانى له مذهب آخر فى الاجتماع ، فهو يضع نفسه موضع الحكَم على أعمال الرجال ، فما ارتضاه منها كان هو النافع ، وما لم يرتضه كان هو الضار ، ويريد أيضاً أن يكون القاضى الذى يقُدِّر الجزاء ، ثم يقضى به من غير معقب ولا راد .

كل ذلك والأمر لم يتعدَّ أرجاء صدره ، ولا يعلم ذلك المسكين الذى سيَنْصَبُّ عليه هذا القضاء أنه على قيد شبر من الموت ، جزاء له على جناية لم يُسْأَلْ عنها ، ولم يعلم من أمرها شيئاً .

إن مثل هذا الحق لا يمكن أن يكون إلا لله سبحانه وتعالى المطلع على السرائر العليم بالنيات ، ومع ذلك فإنه جل شأنه شرع الحساب قَبْلَ العقاب . ثم إن هذا الحق لم يتطلع إليه أحد من العالَمين حتى الأنبياء أنفسهم ، وقد أجمعت الشرائع على عصمتهم من الزلل والخطأ ، ولكن الوردانى يريد أن يضع نفسه فوق كل الدرجات المتصورة لحاكم وحُكْم وَقَتْل .

إنى لترتعد فرائصى إذا تصورت منظر البلاد وقد فشا فيها البلاء الأكبر بفشوّ تلك المبادئ القاضية[1] »

المحامى وخصائص مرافعته :

المحامى وكيل المتهم ونائب عنه ، ومهمته شاقة ، وكثيراً ما يناط به تبرئة متهم مظلوم حيكت حوله أحابيل ، أو تخفيفُ العقاب عن جان كان خاضعاً لمؤثرات فوق طاقته .

فليجعل هدفه تبرئة البرئ الذى يعتقد براءته ، أو تخفيف العقوبة عن جان اقترف جرماً لظروف وبواعث .

ويعينه على ذلك أن يكون على ثقافة بأحوال الجماعة وطوائف الأمة ، وما يجرى بين الناس فى شئونهم المختلفة ، وأن يكون على دراية تامة بالقانون وشروحه وآراء الفقهاء ، وملماً بعلوم شتى ، لأنه يستمد مرافعته من كل علم ، وأن يكون نهّازة للفرص يراقب ما يجرى فى المحكمة ، وما يقول الشهود والخصوم . قال الهلباوى : «كثيراً ما شعرت بتحول فى تيار فكرى إلى نقط تصلح لموكلى أستنبطها من طريقة الخصم ، أو من ملاحظة المحكمة ، وأعظم نقطة أشكر الله

---

(٢) الكتاب الذهبى للمحاكم الأهلية .

عليها توفيق فى انتهاز هذه الفرص فى لحظتها ، ثم التعبير عنها ، والاستفادة منها » .

ومن وسائل نجاحه أن يكون حاضر البديهة ، لِسناً جريئاً لا يضطرب إذ هوجم .

خصائص مرافعته :

١ – من حيث الإعداد :

يجمع عناصر القضية ، ويدرسها دراسة محكمة ، ويرتب عناصرها ترتيباً متسلسلا ، ويكيفها التكييف القانونى الذى يراه . وعليه أن يتمثل حجج خصمه وردوده حتى يستعد لدحضها ، وأن يبدأ بأقوى الأدلة ليستميل القاضى ويقنعه بعدالة مطلبه ، ويدخر بعض الأدلة القوية ليراوح بينها وبين الأدلة الأقل قوة ؛ ليضمن توازن الدفاع وانتباه القاضى ، ومن الخطأ تتابع الأدلة القوية ، ثم توالى الأدلة الضعيفة ؛ لأن ذلك يضعف ختام المرافعة ، وخير للمترافع أن يكون ختام مرافعته قوياً ناصع الحجة ، ثم عليه أن يتذكر الحوادث مسلسلة واضحة ليسهل على القاضى أن يستنبط .

وليلاحظ أن لغة المرافعة لغة حديث لا كتابة ، حديث يشافه به المحامى القاضى مستعيناً بوسائل الإلقاء من حركة وإشارة ونبرات وشخصية وسرعة بديهة الخ .

وإذا كان أكثر المحامين يعدون مرافعتهم ، فإنما يراعون أن يكتبوها بلغة غير لغة الكتابة ، لغة كأنها مرتجلة . وخير طريقة إلى ذلك أن يتخيلوا محكمة يترافعون فيها . وقد وصف المحامى الشهير فارير طريقته فى إعداد مرافعاته فقال : إنه كان يفكر أياماً قبل المرافعة فى قضية عظيمة ، فإذا مادنت الجلسة أوى إلى مكتبه ، وترك قلمه حراً يسجل ما يجول بخاطره ، كأنه يخطب فى المحكمة ، فإذا ما فرغ طوى ما كتب ، وقد ارتسم فى ذهنه واتضحت أمامه معالم الدفاع ، ثم يترافع مهتدياً بما رسم ومعتمداً على موهبة الارتجال .

٢ – من حيث الإلقاء :

حسن الإلقاء فى كل أنواع الخطب عون للخطيب ، ومن الخطأ أن يلقى من مكتوب أمامه ، بل يرتجل بعد أن درس وحَضَّرَ وأعد ، ليستطلع بنظراته ما حوله من إعراض وإقبال ، وليكون طلقاً يتصرف فى دفاعه حسب الظروف ، لا جامداً مقيداً بما كتب ، ثم ليستطيع أن يشير ويتحرك ويلاحظ .

ولابد له من تغيير نبرات الصوت ليصور عاطفته ، وليجدد نشاط القاضى

٣– من حيث التعبير :

(ا) أن تكون اللغة موائمة لذوق رجال القانون ، ملائمة لعرفهم وعقليتهم ، واضحة لا إسفاف فيها ولا تعالى .

(ب) أن يَلبَس نفسية المتهم ، ويتقمص روحه ، فيبين ظروف الاتهام أو ظروف الجريمة كأنه هو المتهم ، لتكون لغته حارة .

(حـ) أن يمهد لمرافعته بعبارات شائقة مثيرة للاهتمام ، حتى إذ أحس أن النفوس مهيأة لسماعه شرع يفصل موضوعه . يروى عن محام فى إحدى القضايا الكبرى أنه بدأ مرافعته بهذه الجملة الجذابة : . موكلى يطلب من عدلكم مليونين ومئة وخمسة وعشرين ألفاً وثلاث مئة واثنى عشر فرنكا وخمسة وعشرين سنتيما ، ولا أنسى السنتيم ، لأن حقى واضح ، فأنا أطلب الكل أو لا شئ »[1] .

(د) أن يتوخى سهولة العبارات ، وقد ذكر هنرى روبير فى كتابه (المحامى) أن أحد كبار المحامين كان يترافع فى إحدى القضايا الجنائية ، وكان بين الحاضرين شخص يبدو عليه الإعجاب بالمرافعة ، فلما أتم المحامى مرافعته سأل ذلك الشخص أحد جيرانه عن المحامى فقال له : أولا تعرفه؟ إنه الأستاذ فلان ، فقال السائل فى دهشة : أهذا هو فلان؟ ولكنه يتكلم بسهولة .

ويذكر الأستاذ حسن الجداوى ، أنه دخل مرة قاعة جلسة محكمة الجنايات

(١) الخطابة للدكتور فياض ١٣٤ .

فى ليون بفرنسا ، فلفت نظره أن المحامى يترافع بسهولة مدهشة ولغة عادية ، ولكنها واضحة جلية مرتبة ، تصاحبها حركات نادرة متناسقة مع العبارات ، ومع ذلك كان المحامى بنبرات صوته ، وجمال معانيه ، وبلاغة تعبيره ، وقوة حججه ، مسيطراً على سامعيه من جمهور وقضاة وزملاء ، حتى لتحسبهم يغضبون إذا غضب ، ويشفقون إذا لان صوته واستدرَّ رحمتهم . ولما سأل عن المحامى وعرف أنه هنرى روبير ازداد إعجاباً(١) .

وكان من هذا الطراز فى مصر سعد زغلول والهلباوى وأبو شادى وأحمد لطفى .

(هـ) أن يمزج فى مرافعته الاستمالة بالإقناع ، ولقد يتساءل أحد : لماذ يحتاج المحامى إلى استمالة وإقناع ؟ أليس الحق وحده هدفه وقصده ؟ وهل يَخفَى الحق حتى يفتقر إلى إظهار ؟ وإذا كان المحامى لا يقصد إلا إحقاق الحق ففيم حاجته إلى الافتنان وسحر البلاغة ؟ ماذا يبتغى من اختلاب القضاة وإثارة مشاعرهم ؟

والواقع أن الحق فى كثير من الأحيان أو فى أكثر الأحيان لا يتبلَّج وحده كما يتبادر إلى الأذهان ، لأن الباطل يخفيه بألاعيبه ، أو لأن العهد قدم به فصار كالمعدن الكريم المستقر فى الأعماق ، أو لسبب غير ذلك ، فالاعتماد على قوته الذاتية مَضْيَعَة له وخطأ من طلابه ، فلابد من لسان فصيح بليغ يكشف الحجب عن الحق المستور ، فيقنع به ويستميل إلى نصرته .

ثم إنه قلما وُجِدَ حق غير ملتبس ببعض الباطل ، أو باطل غير ملتبس ببعض الحق ، والمحامى البليغ هو الذى يصرع حقُّه باطلَ خصمه ، ويتغلب حقه هو على باطل نفسه .

والقضاة بَشَر ذوو وجدان تأسره البلاغة ، ويخلبه جمال العرض ، ولين الاسترحام ، أو قسوة التحريض على الانتقام ، ولذا قال النبى ﷺ لرجلين اختصما إليه فى مواريث وأشياء قد درَسَت « إنما أنا بشر ، وإنه يأتينى الخصم ،

---

(١) المرافعة للأستاذ الجداوى .

فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صدق فأقضى له بذلك ، فمن قضيت له حق مسلم فإنما هى قطعة من النار ، فليأخذها أو ليتركها[1] » .

ورحم الله الإمام أبا حنيفة ، فقد قال يوما لتلاميذه : « أراكم تسرفون فى الأخذ عنى ، فو الله إنى لأرى اليوم رأياً أعدل غداً عنه إلى عكسه » .

وسأله سائل مرة : « هذا الذى تفتى به أهو الحق الذى لاشك فيه ؟ قال : والله لا أدرى ، فقد يكون الباطل الذى لا شك فيه » .

وقلما نجد دعوى لا يختلط فيها حق بباطل ، كالذهب فى منجمه يخالطه تراب وصخر ، والمحامى البارع هو الذى يستخرج الذهب ويخلصه مما يشوبه ، وذلك بأن يذكر العلل الخارقة ، ويجلو الأمور المبهمة ، ويحل المسائل المعقدة ، ويقوى الحق بدفاعه ، فرب حق خذله المطالب به المدافع عنه ، ورب دليل قوى قعدت به اللغة الركيكة والإلقاء المتهافت .

مثال :

من دفاع (لاشو) فى قضية تروبمان القاتل : « لقد سألنى تروبمان أن أدافع عنه ، فإذا بى أمام واجب لابد من أدائه . وربما أدهش موقفى هذا بعض الذين يجهلون وظيفة المحامى . إن الذين قالوا : إن من الجرائم ما يفوق هَوْلُها كل وصف ، ومن المجرمين من بلغوا غاية القسوة والفظاعة ، فمن العبث أن تسعى إلى تخفيض عقابهم ، أقول إن هؤلاء ليسوا على حق ، وهم فى غضبهم المحمود يخلطون بين العدل وحب الانتقام ، هؤلاء يتبعون عاطفة النفس الكريمة مشفقين على الضحايا , ولكن إشفاقهم يجرهم من حيث لا يدرون إلى ارتكاب ذنب اجتماعى هو أشد الذنوب خطراً لأن فيه تضحية القانون .

أما أنا فأفهم واجبات الدفاع على خلاف ذلك ، لأن المشرِّع أراد أن يكون إلى جانب المتهم أيًّا كان صوت شريف صادق يرتفع ليوقف إذا أمكن تأثيرات

(١) فتح المبدى للشرقاوى ٢٣٨/٢ .

الجمهور ، تلك التأثيرات الصادرة عن طيبة نفس ، ولكنها قد تكون وخيمة المَغَبَّة ، لأنها تستطيع أن تطمس الحقيقة .

أى جريمة فى العالم تضاهى هذه الجريمة وتفتقر مثلها إلى الدفاع ؟ لقد اهتزت البلاد من أقصاها إلى أقصاها لهذه الجناية الفظيعة ، وتعالت الأصوات من كل الصدور طالبة الانتقام ، وإنزال العقاب الصارم بالجانى ،. من هو تروبمان ؟ هذا ما لم أبرح أسأل عنه دون أن أجد جواباً شافيا ، إنسان أم وحش كاسر ؟ وعاقل أم مجنون ؟ تلك هى العقيدة التى لاتحل .

إن ما يشعر به النائب العمومى من جراء هذه القضية أشعر به أنا أيضا ، ومن هو الرجل الذى لا ينتفض جزعاً وغضباً لمرأى هذه الضحايا أو لتذكارها ؟ لقد قال لنا الرئيس بالأمس إنه بينما الرعدة تتمشى فى مفاصل القوم كان الرجل وحده هازئاً لا أثر للجنون عليه . لماذا ؟ من أية طينه جبل هذا الإنسان ؟ من يكون ؟ فلنبحث .

لم يكن لتروبمان طفولة ولا شباب كسائر الناس ، وإنكم لتذكرون حالة عقله وتقيده بفكرة لا تَحوُّل عنها ، وفى الحديث الذى أسره لأحد رفقائه معان كثيرة . لقد استولت عليه وهو فى السابعة عشرة أفكار غريبة لا تتزعزع ، والسبب انه قرأ كتاباً أهاج أعصابه ، هذا الكتاب هو اليهودى التائه ، يقص عليه ثروة تبلغ مِئتىْ مليون يشتهيها رودين فيقتل من أجلها أسرة عن آخرها ، ستة من الأبرياء يموتون موتاً فظيعا . كان هذا الكتاب رفيقه الدائم ، وسميره ليل نهار ، فتركت قراءته أثراً كبيراً فى دماغه ، حتى اعتل بدنه ، ودبت إليه عقارب المرض ، وأصبحت أفكاره كلها منصرفة إلى جهة واحدة ، محصورة فى دائرة لا قبل له بالخروج منها ، وأصبحت فكرة القتل ، قتل ستة من الناس حلماً لا يتخلى عنه فى قعوده وقيامه ويقظته ومنامه .

سلوا أهل العلم يجيبوكم أن مثل هذا الرجل غير صحيح ولا سليم ، افحصوه وادرسوه ، حولوا نظركم قليلا عن الضحايا إليه ، وافهموا ما انطوى عليه ، انظروا إلى تركيب جسمه الغريب ، إلى ذراعه ويديه ، فقد قال لى بالأمس

أحدهم : تأمل إن فى صورة هذا الرجل شيئاً من الضوارى . أجل إذا كانت قضيتنا قضية وحش لا مسئولية عليه ، فقصاصه الربط والتكميم لا القتل (حركة وضجة فى الجمهور) إن ضميرى يتكلم ، وعندما أتشرف بأداء الواجب فإنى أشفق على الذين لا يفهمون ما يجب عليهم من الاحترام لوظيفتى[1]

مثال آخر :

جاء فى ختام مرافعة المرحوم الأستاذ أحمد لطفى عن الوردانى قاتل رئيس الوزراء بطرس غالى : « أما أنت أيها المتهم فقد همْتَ بحب بلادك حتى أنساك ذاك الهيام كل شئ حولك . أنساك واجباً مقدساً هو الرأفة بأختك الصغيرة ، وأمك الحزينة ، فتركتهما تبكيان هذا الشباب الغض ، تركتهما تتقلبان على جمر الغضا ، تركتهما تقلبان الطرف حولها فلا تجدان غير منزل مقفر غاب عنه عائله ، تركتهما على ألا تعود إليهما ، وأنت تعلم أنهما لا تطيقان صبراً على فراقك لحظة واحدة ، فأنت أملها ورجاؤهما .

دفعك حب بلادك إلى نسيان هذا الواجب ، وحجب عنك كل شئ غير وطنك ، فلم تعدْ تفكر فى تلك الوالدة البائسة ، وهذه الزهرة اليانعة ، ولا فيما ينزل بهما من الحزن والشقاء بسبب ما أقدمت عليه ، ونسيت كل أملك فى هذه الحياة ، وقلت إن السعادة فى حب الوطن وخدمة البلاد ، واعتقدت أن الوسيلة الوحيدة للقيام بهذه الخدمة هى تضحية حياتك ، أى أعز شئ لديك ولدى أختك ووالدتك ، فأقدمت على ما أقدمت راضياً بالموت ، لا مكرها ولا حباً فى الظهور .

أقدمت وأنت عالم أن أقل ما يصيبك هو فقدان حريتك ، فنى سبيل أمتك بعت حريتك بثمن غال .

فاعلم إذاً أيها الشاب أنه إذا اشتد معك قضاتك – ولا إخالهم إلا راحميك – فذلك لأنهم خَدَمَةُ القانون ، وهذا هو السلاح المسلول فوق رأس

(١) الخطابة للدكتور فياض ١٩٠ .

العدالة والحرية . وإذا لم ينصفوك – ولا أظنهم إلا منصفيك – فقد أنصفك ذلك العالمَ الذى يرى أنك لم ترتكب ما ارتكبه بِنيَّة الإجرامَ ، ولكن باعتقاد أنك تخدم بلادك ، وسواء وافق اعتقادك الحقيقة أم خالفها فتلك مسألة سيحكم التاريخ فيها .

وإن هناك حقيقة عرفها قضاتك وشهد به الناس ، وهى أنك لست مجرماً سفاكا للدماء ، ولا فوضوياً من مبادئه الفتك ببنى جنسه ، ولا متعصباً دينيا ، وإنما أنت مغرم ببلادك ، هائم بوطنك .

فليكن مصيرك أعماق السجن أو جدران المستشفى ، فإن صورتك فى البعد والقرب مرسومة على قلوب أهلك وأصدقائك ، وتقبل حكم قضاتك باطمئنان ، واذهب إلى مقرك بأمان[1] » .

---

(١) الكتاب الذهبى للمحاكم الأهلية .

٣- الخطابة الحفليّة

موضوعها :

هى الخطب التى تلقى فى المحافل لتكريم أو تأبين ، أو فى تهنئة بنعمة خاصة أو عامة ، أو فى علاج مشكلة اجتماعية .

وهذا النوع يكاد يكون موقوفاً سماعه على الخاصة وأنصاف المثقفين ، فقلما يسمعه العامة ، ولهذا رأى شيشرون أنه أصعب الأنواع كلها ؛ لأن السامعين من الطبقة الممتازة ، فلا يستطيع الخطيب أن يلقى الكلام بغير تروية فيه وتجويد .

خصائصها :

١- يحسن أن تكون فى جملتها واضحة الأفكار ، سهلة التعبير ، طلية رقيقة معتمدة على الوسائل الخطابية وبعض المنطق ، ولا تكفى الوسائل الخطابية وحدها ؛ لأن الخطبة ستنشر وتقرأ . ولا تجزى الأدلة المنطقية ، لأن هذا النوع فى حاجة إلى فن الأدب والفكاهة الحلوة والأسلوب الرشيق .

٢ – وعلى الخطيب أن يَصْدُق فى قوله ، فلا ينسب للمكرَّم أو المؤبَّن محامد ليست من حُلاه ، وأن يقتصد فى ثنائه ، فلا يكيل المدح جزافا ، وأن يتخذ خطبته وسيلة لتوجيه السامعين إلى التحلى بصفات النبل التى من أجلها يكرَّم المحتفل به ، أو يؤبَّنُ المتوفى .

٣ – وأمام الخطباء ثلاثة طرق فى منهج التكريم والتأبين :

أن يذكروا تاريخ المحتفل به ، وما مر به من أحداث منذ صغره ، ويشفعوا ذلك بملاحظاتهم ، وتعليقهم على بعض مواقفه . أو أن يدرسوا قيمة المحتفل به وأثره فى أمته ومميزاته . وقد يجمعون بين الطريقتين إذا انفسح لهم الزمن .

ولكن المنهج الحديث أن يتركوا تفاصيل تاريخ الحياة إلى الجرائد والمجلات لأن سردها مُمِلّ لا يستثير العواطف ، فالخطيب الآن تدور خطبته حول بيان

نواحى العظمة فى المحتفل به ، وصفاته التى ميزته ، ومكانته فى التاريخ بين أمثاله ، والدروس التى تستفيدها الأمة من عظمته ، وذلك يحتاج إلى مهارة فى تحليل الشخصية ، ولباقة فى الموازنة بين المزايا والعيوب ، وتقدير المحتفل به تقديراً عاماً .

والخطابة الحفلية أنواع :

(١) خطبة التكريم والمديح

هى التى تقال ثناء على عظيم أو ذى فضل .

ومهمة الخطيب أن يبرز سمات عظمة المكرم وفضله .

١ – والفضائل أنواع شتى ، منها العدالة والشجاعة والمروءة والعفة والسخاء والعظمة والتسامح وصِدْقُ الحسِّ والحكمة .

وكبريات الفضائل ما كانت أكثر نفعاً للناس ؛ لأن الفضيلة هى القوة التى تستطيع أن تمدنا بخيرات كثيرة ، ولذلك تعلو العدالة والشجاعة سائر الفضائل ، لأن العدالة تؤثر تأثيراً كبيراً فى وقت الحرب ، ويأتى بعد هاتين الفضيلتين الكرم ، لأن الكرماء يعطون بلا حساب ، ولا يفكرون فى موارد الثروة ، ولا يجادلون فيها غيرهم ، بينما يريد غيرهم المزيد منها .

وقد عرف أرسطو كل فضيلة من هذه الفضائل ثم قال : وليس من الصعب أن يفهم الإنسان ما وراء هذه الفضائل ، فمن الواضح أن كل ما ينشأ عن الفضيلة جميل[١] .

٢ – ثم يتعمق الخطيب فى نظرته إلى الجميل من الأعمال ، فيقرر أن الأشياء التى يكافأ عليها بالكرامة وحدها خير مما يجازى عليه بالمال ، وأن كل ما عُمِل بدافع من الإخلاص المجرد عن المنفعة الشخصية جميل يستحق المدح . والأشياء

(١) الخطابة لأرسطو ١٦٨/١ – ١٧٠

التى تقدم لخير الوطن فى غير رعاية للمصلحة الذاتية جميلة ، والأشياء المفيدة بطبيعتها وليست مفيدة لمن قام بها جميلة ، إذ لو كانت مفيدة لعُدَّ مدفوعا إليها بدافع من الدوافع الذاتية.

وجميل أيضاً كل مايمكن أن يفيد ميتاً ولا يفيد حيا ، لأن مايعمل للمنفعة الذاتية يرتفق به حيٌّ لاميت.

وكذلك كل الأعمال التى تعمل لمنفعة الغير ، لأن المنفعة الذاتية هنا فى المرتبة الثانية (١) .

٣ – وقد ينبغى فى أدلة المدح والذم ألا يقتصر الخطيب على ما يتفق تمام الاتفاق مع الصفات الحقيقية ، بل يعالج أيضاً ما هو قريب منها من فضائل تنشأ عنها أفعال النقيصة ، ومن نقائص تنشأ عنها أفعال الفضيلة ، فلا بأس من إظهار الحريص فى مظهر الخائف أو المراوغ ، وإظهار الرجل الطيب بمظهر الغفلة والبلَه ، وعلى العكس يمكن إظهار الرجل السهل بمظهر الرجل الشريف ، وبطىء الإحساس بالرجل السهل الحياة.

وفى كل حالة يختار من بين الصفات المتقاربة أقربها وأجداها على صاحبها فمثلا يشبه الرجل الغضوب الذى يثور لأدنى مثير بالرجل المخلص ، والمتكبر بالعظيم المتسلط ، ويظهر من يجدهم فى حالة انفعالية غير عادية بمظهر من يملك الصفات المتصلة بهذه الانفعالات ، فمثلا يكون المتهور شجاعا ، والمسرف كريما (٢) .

٤ – وعلى الخطيب المكرِّم أن يظهر ممدوحه مختاراً لما قام به من جلائل الأعمال ، مريداً لها ، وأنه كثيراً ما قام بأمثالها.

٥ – خطبة المدح فى حاجة إلى إطناب وتفصيل ، كأن يذكر الخطيب أن الممدوح أول من قام بهذا العمل الجليل ، أو فكر فى هذا الصنيع ، أو أنه

---

(١) الخطابة ١٧١/١ .

(٢) الخطابة لأرسطو ١٧٣/١ .

الوحيد الذى قام به ، أو أن قليلا من الناس عملوا مثل ما عمل ، أو أنه تفوق على من أشبهوه فى عمله .

وكذلك يوضح الظروف والملابسات التى أحاطت بالعمل الجليل الذى قام به المكرَّم .

والإطناب مستحب فى خطب التكريم ؛ لأن التكريم يتناول الإشادة بفضائل يشترك الناس فى تقديرها من الوجهة الخلقية ، فليس أمام الخطيب إلا أن يفصلها ويجملها ويطنب فى تحلية المكرَّم بها .

٦ – وليس من المستحب أن يتعرض الخطيب لشىء آخر غير الفضائل ، كثراء المكرَّم ، أو مآثر آبائه ، إلا تبعاً لمميزاته الخلقية والنفسية ، كأن يثبت عراقة نسبه ، ليؤكد أن عظمته تتمشى فى أصوله ، وأنه نَبَتَ فى تربة مخصبة ، أو عاش فى جو ينمى العظمة ويغذيها ، ثم يعرض لصفاته المكتسبة .

٧ – ولقد يتعرض الخطيب للبيئة التى ولد فيها المكرَّم ، فيعرج على الحالة السياسية والدينية والاجتماعية والفكرية التى عاصرت مولده ونشأته ،

ثم يبق تأثيره فيها من حيث تغييره هبوطها إلى رفعة ، وضلالها إلى هدى ، وتأخرها إلى تقدم ، أو من حيث تأثره بها إن كانت صالحة ، وتقدمه بها إلى استكمال الصلاح .

ولابد للخطيب من مراعاة السامعين فيما يعرض من مدح ، فيمدح المكرَّم أمام من يحبه ، كما قال سقراط : « من السهل أن نمدح الأثينيين فى أثينا » ويمدحه بما يعرفه قومه عنه ، وإن كانت معرفة إجمالية .

أمثلة :

١ – عرف عرب الجاهلية نوعاً من الخطب ، موضوعها المباهاة فى الجمع الحاشد بعراقة الحسب ، ونبالة الأصل ، وعلو المكانة ، وشرف الأخلاق ، وهذه هى المفاخرة أو المنافرة .

وليس من المستطاع الاطمئنان إلى ما ورد من نصوصها الجاهلية ، لأنها من النثر الذى لا يطمئن الباحث إلى صحته كما يطمئن إلى الشعر ، ولأن ما بقى من هذه المنافرات موسوم بلغة متأنقة مسجوعة ليست مما يقال عفو الخاطر . من ذلك منافرة عامر بن الطفيل وعلقمة بن عُلاثة إذ تنازعا الرياسة ، فقال علقمة لعامر : أنا خير منك أثرا ، وأحد منك بصراً ، وأعز منك نفراً ، وأشرف منك ذكراً . وقال عامر : إنى أسمى منك سِمَة ، وأطول منك قمة ، وأحسن منك لِمَّة ، وأجعد منك جُمَّة ، وأسرع منك رحمة ، وأبعد منك همة .

وشتان ما بين هذه العبارات وما ورد من منافرة بنى تميم للنبى عليه الصلاة والسلام .

٢ – فقد وفد بنو تميم على النبى صلى الله عليه وسلم لينافروه ، فقالوا : جئنا لنفاخرك ، ثم قام خطيبهم فقال : الحمد لله الذى له علينا الفضل وهو أهله ، الذى جعلنا ملوكا ، ووهب لنا أموالا عظاماً ، نفعل فيها المعروف ، وجعلنا أعز أهل المشرق ، وأكثره عدداً ، وأيسره عُدة ، فمن مثلنا فى الناس ؟ فمن يفاخرنا فليعدِّد مثل ما عَدَدْنا وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام ، ولكنا نستحى من الإكثار فيما أعطانا وإنا نُعْرَف بذلك .

أقول هذا الآن لتأتونا بمثل قولنا ، وأمْرٍ أفضل من أمرنا .

فأمر النبى ثابت بن قيس بأن يرد عليه فقال :

« الحمد لله الذى خلق السماوات والأرض خَلْقَه ، قضى فيهن أمره ، ووسع كرسيه علمه ، ولم يك شىء قط إلا من فضله . ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكا ، واصطفى من خير خلقه رسولا ، أكرمهم نسباً ، وأصدقهم حديثاً ، وأفضلهم حيا ، فأنزل عليه كتابه ، وأتمنه على خلقه ، فكان خيرة الله من العالمين .

ثم دعا الناس إلى الإيمان ، فآمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوى رحمه ، أكرم الناس أنساباً ، وأحسن الناس وجوهاً ، وخير الناس فعالا .

ثم كان أول الخلق استجابة لله نحن ، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله ، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه ، ومن كفر جاهدناه فى الله أبداً ، وكان قتاله علينا يسيراً .

أقول قولى هذا وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات » .

ولقد أبطل الإسلام كثيرا من عادات الجاهلية ، وسوى بين الناس جميعا وآخى بينهم ، وأنكر العصبية الجاهلية ، فتوارت المفاخرة حيناً ، ثم عادت فى العصر الأموى فى قالب من الحوار .

٣ – ومنها خطب الوفود التى وفدت على سيف بن ذى يزن لتهنئته بطرد الحبش من اليمن ، والوفود التى قدمت إلى النبى تعلن إسلامها ، والتى جاءت إلى الخلفاء الراشدين ومَنْ بعدهم لتعلن تأييدها ، أو تجهر بشكواها .

ومنها خطب الزواج التى كان يلقيها أهل الخطب فى أهل الفتاة يشيدون بمكانة أنفسهم ، ويعرضون على أهل الفتاة رغبتهم فى الإصهار إليهم ، ويحددون المهر ، ويذكرون من محامد العروس ما يكافىء مكانة المخطوب إليهم .

وكثيراً ما كان أهل الفتاة يردون عليهم ، مرحبين بهم ، ومفتخرين بأقدارهم .

وإذا كان مجال هذا النوع ضيقا ، وكانت العواطف فيه هادئة ، والأفكار التى يعرض لها الخطيب محدودة ، استحسنوا أن يخطب فيه الخطيب قاعداً لاقائما وشعر كثير منهم بأنه شاق على النفس ، ولذلك قال عمر بن الخطاب : ما يَتَصَعَّدُنى كلام كما تتصدنى خطبة النكاح[1] .

ومن أمثلة هذا النوع خطبة أبى طالب فى زواج النبى بالسيدة خديجة كقوله : « الحمد لله الذى جعلنا من زرع إبراهيم وذرية إسماعيل ، وجعل لنا بلداً حراماً وبيتاً محجوجا ، وجعلنا الحكام على الناس . ثم إن محمد بن عبد الله ابن

(١) يريد ما يشق على كلام مثل خطبة النكاح .

أخى ، من لا يوازَن به فتى من قريش إلا رجح عليه برًّا وفضلا ، وكرماً وعقلا ، ومجداً ونبلا ، وإن كان فى المال قُلٌّ ، فإنما المال ظل زائل ، وعارية مسترجعة .

وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتم من الصداق فعلىّ » .

٤ — وفد جماعة من قريش على سيف بن ذى يزن بعد انتصاره على الحبش وإجلائهم من اليمن ، فخطب عبد المطلب قائلا :

« إن الله أيها الملك أحلك محلا رفيعاً ، صعباً منيعاً ، باذخا شامخا ، وأنبتك منبتا طابت أرومته ، وعزت جُرْثومته , ونبْل أصله ، وبَسَق فرعه ، فى أكرم معدن وأطيب موطن ، فأنت أبيت اللعن رأس العرب ، وربيعها الذى به تُخْصب ، وملكها الذى به تَنْقاد ، وعمودها الذى عليه العماد ، ومَعْقِلها الذى يلجأ إليه العباد ، سَلَفُك خير سلَف ، وأنت بعدهم خيرُ خلَف ، ولن يَهْلك من أنت خلفه .

نحن أيها الملك أهل حرم الله وذمته ، وسَدَنة بيته ، أشْخصَنا إليك الذى أبهجنا بكشفك الكَرْب الذى فدَحنا ، فنحن وفد التّهنئة لا وفد المَرْزِئة » .

فمدح الملك بالرفعة والمتعة ، وبطيب المنبت وعراقة الأصل ، ثم مدحه بأنه سيد العرب وموئلها ومعقلها ، وبأنه خير سلف ، ثم بين أنهم قد وفدوا للتّهنئة لا لنيل العطاء .

(٢) خطبة التأبين

هى الخطبة التى تلقى على قبر الراحل العظيم أو المتوفى العزيز ، أو فى حفل تأبينه ، أو فى ذكرى وفاته .

فيبين الخطيب عظم الفجيعة فيه ، ويعدد مناقبه ، ويجلى آثاره ، ويواسى آله وأحبابه .

وقد عرفها اليونان منذ زمن قديم ، وذكرها المؤرخ الكبير توسيديد فى القرن الرابع قبل الميلاد ، وكانوا يلقونها فى محافل رسمية لتأبين شهداء الوطنية .

وكذلك مارسها الرومان ، ووردت منها نصوص منذ القرن السادس قبل الميلاد .

١ – والمتبع أن يبدأ الخطيب خطبته بتصوير الفاجعة ، والأسى والحسرة كما قال عبد الخالق ثروت فى تأبين سعد زغلول :

أيها السادة :

فى هذا الحشد الذى يريد كل فرد فيه أن يؤدى حق فقيدنا العظيم عليه وعلى البلاد – إما باللوعة الصامتة والذكرى الباقية ، وإما بالزفرات يرسلها كلمات ، وبحياة الفقيد يحملها مناقب وعظات – أردت أن يكون لى نصيب فى الوداع الناطق للراحل الكريم .

ولكن سعداً ليس كغيره من الرجال ، فلكل عظيم ناحية من العظمة ، ولسعد منها نواح متعددة ، والعظيم يملأ فراغاً فى جانب من الحياة ، وسعد قد شغل الحياة المصرية عامة ، فقد اجتمع فيه تاريخ مصر الحديث ، وانتهت إليه نهضتها الكبرى ، فلا غرو إذا جلَّتْ مصيبتنا فى فقده ، وكثرت وجوه القول ، وتعددت شعاب الذكرى فيه .... [1] »

٢ – ثم يعرض تاريخ الفقيد ، ويشيد بما كان له من جهاد أو إصلاح أو نبل ، أو يحلل شخصيته ، ويبرز نواحى عظمته ، ويضرب الأمثال من تاريخه وحوادثه .

ومن هذا قول مكرم عبيد فى خطبة تأبينه لسعد زغلول هذه الفقرة التى يحاول بها تحليل شخصية العظيم :

« وأعجب ما فى عظمة سعد أن عظمة شخصه امتزجت بعظمة المجموع إلى حد أصبح من المتعذر معه على بعض الناس أن يدركوا أهو يعطى أم يأخذ ؟

(١) عبرات الشرق على الزعيم سعد زغلول ٢٦٨ .

. يوحى أم يوحَى إليه ؟ غير أن الواقع الذى لا مِرْيَةَ فيه والذى يتمشى مع طبيعة الأشياء أنه كان يتبادل العظمة مع أمته ، فكانت تعطيه ويعطيها ، وتُنَمِّيه فينميها .

غير أن العظمة قَتَّالة لشخص العظيم ، وإن كانت مصدر حياة لبيئته ، إذ العظيم من عَظُمَتْ تضحيته ، وفَنِيَتْ فى سعادة المجموع سعادته . ولقد كان سعد عظيما فاختصته العظمة ببلواها ، كما اختصته بمزاياها ، واجتمعت فيه آلام أمة كما اجتمعت فيه آمالها .

ولم يكن الرئيس بغافل عن تكاليف تلك العظمة وثمنها الباهظ ، فقد كان والله يدفع ذلك الثمن مقسّطا على سِنِى شيخوخته ، ومحتسَباً على مَنِيَّته ، فكانت لا تمضى سنة إلا ويؤدى ما فى ذمته من تضحية لبلاده مقاسيا آلام النفس والجسم ، من إساءة وامتهان وتشهير ، وإلى اضهاد ونفى ومرض ، إلى أن جاءت منيته ، فسقط فى حومة الوغى دون أن يسقط علم الجهاد من يده .

ولا أرانى فى حاجة إلى التدليل على عظمة سعد ، فقد أحنى الخصوم قبل الأصدقاء رءوسهم لها ، واعترفوا له ميتا بما أنكروه عليه حيا ، ولا بدع فالموت ميزان الحقائق ، لأن حقيقته هى الحقيقة البشرية الوحيدة التى يصح أن تسمى مطلقة لا تشوبها ريبة ، ولا تحيط بها شهوة .

وليس أبعدَ عن قَصْدِى من أن أحاول تحليل عظمته ، فالعظمة لا تحَلَّل إلى عناصر أولية كالمادة ، إذ من مقتضيات التحليل أن تَرْجِعَ الأمور إلى نصاب مشترك ، ومستوى واحد ، بينما العظمة هى التفرد والنبوغ ، والخروج عن نطاق المألوف والتسامى عن مستواه .

ثم إن العظمه قَبَسٌ من نور الله لا يُفتَرَض ، لأنه يوجد ولا يفْهَم ، بل يُرَى ولا يُفكَّر فيه ، بل يُحَسُّ به ، وقد كان يكفى أن نرى سعدا أو نسمعه لنحس إحساساً يكاد يكون ماديا بتلك الشخصية العظيمة المنبعثة من كل حاسة فيه ، فتارة يبرق بها نور عينيه ، وأخرى تسكن بها كبرياء ملامحه ، وتارة يَهْدِرُ بها صوته ، ويثور بها غضبه ، وأخرى يجلُّ بها صَمْته . ويلين بها عذب ابتسامته ،

وتارة تتدفق بها حماسته ، وأخرى تَضِنُّ بها وداعته ، وتارة يجيش بها قلبه ، وينطلق بها خياله ، وأخرى يدق بها منطقه ، ويستوى بها اعتداله ، وتارة يُجَلِّلها مشيب رأسه ، وأخرى يزينُها شباب قلبه . وصفوة القول فقد كانت عظمته ناراً ونوراً ، وفكراً وشعوراً ، وقوة فى وداعة ، وسكوناً فى حماسة .

هذه مظاهر عظمته ، أما العظمة فى لبها وجوهرها فهى سرإلهى إذا تكشفت لأعين الناس جميعاً لم تَعُدْ سراً ، وإذا كانت فى متناول كل إنسان لم تعد عظيمة .

ولكن إذا لم يكن كل إنسان عظيما فى مقدوره ومن واجبه أن يكون أمينا ، وإذا لم يكن نبياً فمؤمنا ، وإذا لم يكن قائداً فمجاهدا ، وإذا لم يكن كل مصرى سعداً فمن الشرف أن يكون مصريا . .[2] » .

ومن خطبة شاب فى تأبين المرحوم الأستاذ أبو الفتح الفقى رئيس جماعة دار العلوم ، ووكيل كلية دار العلوم :

« سلاماً يا أبا الفتح الطائف فى كل مُقْلة ، الهاتف فى كل أذن ، الماثل فى كل قلب .

يا أبا الفتح الذى جَمَعَ الشَّتِيتَ ، وألَّف القلوب ، ووحد القِبْلة ، وأنشأ الجماعة[3] ، وأعز الضعيف وزاد القوى قوة ، حُزْننا عليك أحرق القلوب ، وأدْمَى العيون ، وأغاض البهجة حتى فى أيام البهجة .

يا أبا الفتح الذى دوَّى صوته فى البرلمان ، واعتز بنجاحه على دعائم محبة الأهل وتقدير الجيران ، وعلى شرف الجهاد وطيب السمعة ، عز فى الرجال ضريبك .

يا أبا الفتح الرابض قبره هنالك بين الحقول الخُضْر ، والزروع النضْر ، فى صمت الريف وجلاله ، فى الوطن الصغير العزيز الذى ستهللت على أرضه ، ثم عدت إلى أرضه ، فى التُّرْب الذى دَرَجْتَ عليه صبيا ، واختال بك كهلا ، ثم

---

(٢) عبرات الشرق على الزعيم سعد زغلول ٢٨٠ .

(٣) المراد جماعة دار العلوم .

كنزك ميتا ، على مرأى من عيون الذين شرّفوا بك كما شرفنا ، واعتزوا بك كما اعتززنا ، على مقربة من القطار الرامز إلى أن الحياة سفرة قصيرة فى هذه الدنيا .. سلاما .

يا أبا الفتح الذى أظلّنا بلوائه ، ورفعنا كلنا إلى سمائه ، وعاش لنا أكثر مما عاش لنفسه ، وماتت بهجتنا منذ أودعناه فى رمسه .. سلاما .

يا أبا الفتح الطُّوالَ العود من طول ما اشرأبَّ إلى السماء ، السَّمْهَرِيَّ القامة قد صُلبَتْ على الأحداث والأنواء ، الرفيعَ الهامة لم تطأطئها مذلة ولا مهانة ، الصافى العينين تلمع محاجرهما وراء المنظار فى صفاء الزئبق ، وتسحر نظراتهما فتجذب وتُفحِم ، الجهيرَ الصوت فى ثقة بالنفس ، وعزة بالمكانة ، وشجاعة فى الحق ، فى عصر نَدَرَتْ فيه الشجاعة ، الخاطرَ فى الرَّدَهات والحجرات مُرْسِلاً يسراك فى جيبك ، خطرات الوالد الناعم البال بأبنائه وإخوانه ، شاقنا والله أن نمتع النظر بمرآك ، وشاقنا والله عطفك وحبك وهُداك .

يأبا الفتح لم أذق مرارة الفقد إلا يوم موتك ، ولم أرهب الموت إلا يوم خطفك ، ولن أنسى جلال تشييعك فى القاهرة ، وحرارة توديعك فى الدلجمون[٤] وفجيعة إيداعك فى المقبرة .. فقد بكاك يا أبا الفتح كل من شيعوا ، وتفجع عليك من عِلّيَةِ القوم من وَدَّعُوا ، ومن حِيلَ بينهم وبين أن يودعوا ، وبَسَرَتْ لموتك وجوه كانت دائما مشرقة ، وحزنت قلوب كانت دائما مستبشرة ، ونسى فى جنازتك الشيخ وقاره فبكى بكاء مرًّا ، وعصى الصبورَ صبره ، فذرف الدمع سخيناً حاراً ، واختلط جئير النائحين بولولة النائحات .

يا أبا الفتح هناك جثمانك الطاهر ، وهنا ذكرك العاطر ، وطيفك الزائر ، وصدى صوتك الرنان الآسر .

وسيبقى دائما ذكرك وطيفك وصوتك ما بقى فى الدنيا وفاء ، وما دام فى

(٤) بلد الفقيد بالقرب من كفر الزيات .

الناس اعتزار بالفضيلة ، وتقدير للرجولة ، وإيمان بالعظمة ، والسلام عليك فى علاك » .

٣ – ثم يشارك الخطيب آل الفقيد فى فجيعتهم ويعزيهم ، ويواسيهم بأن عظمة الفقيد باقية فيهم ، وأن منهم خلفاء له كما سبق فى خطبة مكرم عبيد .

٤ – ثم يوجه السامعين بلباقة إلى الاقتداء بالفقيد .

من ذلك قول ثروت فى ختام تأبينه لسعد :

« إن حزننا على فقيدنا عظيم ، ولكن يجب ألا يكون عقيما وخير ما يلد هذا الحزن هو حُسْنُ التأسِّى ، فلنتأسَّ بسعد فى جهاده للحق ، وصبره على المكاره ، ودعوته إلى ضم الصفوف ، وإيثار المصلحة العامة .

وإنى لأعلم أنى لا أنبه غافلا ، ولا أوقظ نائما ، فإن سيرتكم منذ مات سعد ناطقة بأن روحه لا تزال معكم ، ولا أشك أنكم لن تزالوا سالكى هذا الطريق فى توفيق من الله ، وتأييد من صاحب العرش ، وأوقن أنه ليس شئ أحب إلى سعد فى قبره من أن تثابروا على المضى فى هذا الطريق الحكيم ، حتى نبلغ غايتنا جميعا » .

٥ – وقد يختم الخطبة بكلمة يتوجه بها إلى روح الفقيد ، يدعو له بالثواب ، ويطمئنه على أن من خلفوه حريصون على تعاليمه ، قوامون على رعاية ما كان يرعى .

ومن ذلك مناجاة لسان الدين بن الخطيب للمتوفى بأن ابنه سيخلفه :

« لِيْهنكَ أن صَيَّر الله تعالى ملـكك من بعدك إلى نَيِّر سعدك ، وبارق وَعْدك ، ومُنجز عهدك ، أرْضَى وُلْدِك ، ورَيحَانَةُ خُلْدِك ، وشِقَّةُ نفسك ، والسرحة المباركة من غرسك ، ونور شمسك ، ومُوصل عملك إلى البرّ إلى رمسك » .

ومناجاة ثروت لسعد زغلول فى خطبة تأبينه بقوله :

« نم هادئا مطمئنا ، فإن البذر الذى بذرته من خلالٍ حسنة ، ودعوة صالحة ، سيؤتى ثمره إن شاء الله .

وستحفظ لك مصر أكبر الذكرى .

وإذا كان لمحزون أن يتعزى ، فإن هذه الجموع التى تنوء برزئك الكبير ، بعض العزاء لشريكتك فى الحياة التى شاطرتك المتاعب والآلام ، والتى جمعت إلى صفاتها الممتازة أنها كانت خير مثال للحب والوفاء ، كما أن فى الروح التى بعثتها فى الأمة بعض العزاء للصديق الذى فقد بموتك العضد البار الوفى الأمين .

فرحمة الله ورضوانه عليك[٥] » .

(٣) الخطبة الاجتماعية

هى الخطبة التى تعرض لدراسة مشكلة من مشكلات المجتمع ، فتبرز العيوب وأسبابها ، وتَطِبُّ لها .

وبعض هذه الخطب تنتظمه الخطابة وبعضها لا تنتظمه ، فإذا اعتمد الخطيب على الدراسة وحدها .. ولم يضف إليها الإلقاء الخطابى فهو محاضر لا خطيب .

وإذا أضاف إلى الدراسة إثارة المشاعر بفنه الخصب ، وتصويره الجميل ، وتخييله الساحر فهو خطيب لا محاضر .

أمثلة :

١ – خطب مصطفى كامل فى حفل افتتاح مدرسة الشوربجى بكوم حمادة سنة ١٩٠١ فتحدث عن أثر العلم والتعليم فى إنهاض الأمم فقال : « ليس فى تشييد المدارس وإقامة المستشفيات والتنافس فى الخيرات النافعة شئ يسر الوطن ويشرح صدره مثل نفى تهمة الموت الأدبى عن المصريين .

---

(٥) عبرات الشرق على الزعيم سعد زغلول ٢٧٢ .

قال القائلون وردد المرددون : إن المصريين اتفقوا على ألا يتفقوا ، وسرت هذه الكلمة فى الأمة ، وتناقلها الصغير عن الكبير ، وشرحها فلاسفة السوء ، واعتقد الكثيرون صحتها ، حتى أخذ القوم يتساءلون عن مبلغ هذه الأمة من القوة والحياة ، يتساءلون هل هى إلى المجد والارتقاء سائرة ؟ أو إلى الموت والفناء هاوية ؟ فأجبهم يامن رفعت للعلم والوطن مناراً عالياً ، أجبهم بأن المصريين اتفقوا على أن يتفقوا ، وأن جمعية العروة الوثقى فى الإسكندرية ، وجمعية المساعى المشكورة فى المنوفية ، والجمعية الخيرية الإسلامية فى أنحاء القطر ، تنادى بأن فى الأمة رجالا أحياء ذوى همم عالية وعزائم صادقة .

أجبهم بأن هذه المدارس الأهلية التى أنشئت فى الديار بهمم الأفراد هى الحجج الدامغة على حياة الأمة ، ووجود من يهتم بأمر تقدمها ونهضتها » .

٢ — من خطبة فى الإخاء للآنسة مى زيادة فى إحدى الجمعيات الخيرية سنة ١٩١٨ « إن كلمة الإخاء التى ينادى بها دعاة الإنسانية فى عصرنا ليست ابنة اليوم فحسب ، بل هى ابنة جميع العصور . وقد برزت إلى الوجود منذ شعر الإنسان بأن بينه وبين الآخرين اشتراكا فى فكرة أو عاطفة أو منفعة ، وبأنهم يشبهونه رغبات واحتياجات وميولا .

يجب أن يتألم المرء ليدرك عذوبة الحنان ، ويجب أن يحتاج إلى الآخرين ليعلم كم يحتاج غيره إليه ، يجب أن يرى حقوقه مهضومة يُزْدَرى بها ليفهم أن حقوق الغير مقدسة يجب احترامها ، يجب أن يرى نفسه وحيداً ملتاعاً دامى الجراح ، ليعرف نفسه أولا ، ثم يعرف غيره ، فيستخرج من هذا التعارف العميق معنى التعاون والتعاضد .

كذلك ارتقى معنى الإخاء بارتقاء الإنسان » .

٣ — قال محمد توفيق دياب فى خطبة له موضوعها (الشباب المصرى خيوط الحاضر ونسيج المستقبل) .

« لابد من أن يؤمنوا ، لا رجاء فى أمة إلا أن يكون لها إيمان ، ولا فى شباب أمة إلا أن يكونوا مؤمنين .

أما الإيمان فى الإنسان فليس طبيعة ولا غريزة ، ولكنه كسب عن تقليد ، أو كسب عن تفكير ، فإذا رسخ نتجت عنه البواعث الملهمة .

وليس المهم كيف تؤمن ، وإنما المهم أن تؤمن . نعم ولكنْ تؤمنُ بماذا ؟ تؤمن بشئ أنت دونه وتريد أن تسمو إليه ، تؤمن بقوة تستعين بها على ضعفك ، تومن بباعث عظيم من بواعث الأمل وبواعث العمل ، تؤمن بمثل من الأمثلة العليا تريد لنفسك فرداً ولأمتك جماعة ، تؤمن بمثل عال من الشجاعة يصونك عن التذلل والخَوَرَ ، تؤمن بمثل عال من الكرامة يصونك عن كل مهين وخسيس .

أما أنا فواحد من الذين يؤمنون بالقوة العظمى التى تجمع الصفات الحسنى فى اسم الله ، وإيمانه به إيمان الضعيف بالقوى ، ولكنى حين أستمد منه القوة أحس كأننى ارتفعت فوق المناعم والمتاعب ، وفوق الفقر والغنى ، وفوق الإخفاق والنجاح ، بل فوق الموت والحياة ، لأنى ركنت إلى العَمَد الباقى .

ولقد أكون فى المأزق الضنك ، أو فى الليلة الشادهة فألقى بضعفى بين أحضان تلك القوة ، فإذا بى قد أوتيت همة جديدة ، وقدرة جديدة على المجالدة والثبات .... أجابنى هاتف من قرارة روحى : لابد لمصر من مؤمنين بالله وبالوطن ، قل لهم إن ربكم عن إيمانكم به جد غنى ، أما مصر فإلى إيمانكم بها جدُّ فقيرة ، قل لهم إن قلوبكم إذا خلت من ذكر الله فإن ذاكريه فى الأرض والسماء ليس يحصيهم العدد ولو طال ، فأما مصر فلو خلت قلوب المصريين من ذكرها فمن ذا يذكرها سوى المصريين ؟

قل لهم : ليس مؤمناً بالله من لا يؤمن بالوطن ، أليست مصر كبرى أنعمه عليكم؟ أجرى فيها كوثره ، وأسبغ عليها رزقه ، وكساها من جماله ، وجعل لها آية السبق فى الأولين ليلحق بها المتخلفون ، وامتحنها فى الحاضرين بمحنة التخلف لتنهض فتلحق السابقين . قل لهم : إن من جحد نعمته ، وعق كنانته ، واتخذها سخرية ولعباً فهو بربه من الساخرين »[1] .

(١) جريدة الجهاد ١٠ نوفمبر سنة ١٩٣٤ .

٤ – الخطابة الدينية

موضوعها :

هى التى تعتمد على إثارة العاطفة لتحبب إليها الخير ، وتنفرها من الشر ، وتوجهها إلى تقوى الله وحبه وخشيته .

وقلوب السامعين متفتحة للتأثر بالخطب الدينية ؛ لأنها تصلهم بالخالق سبحانه وتعالى ، وتعلو بهم عن الأرض إلى السماء ، وتبصرهم بما ينفعهم فى الدنيا والآخرة ، فالخطيب يتكلم من قِبَل الله ، والموضوع دينى روحى ، وثمرة الخطبة سعادة الفرد والمجتمع ، وتمجيد الله وطاعته وابتغاء الخير .

لماذا أخفقت ؟

ولكن كثيراً من الخطباء الدينيين – فى الأديان الثلاثة – لم يبرعوا فى خطابتهم للأسباب الآتية :

١ – خطبهم ذات موضوعات عدة ، من دعوة إلى فضائل شتى إلى تنفير من رذائل منوعة ، فتبدو الخطبة كشكولا جامعاً لموضوعات عدة مبتسرة مقتضبة ، لم يدرس واحد منها دراسة كاملة ترسخ فى أذهان السامعين ، وتمتلك مشاعرهم ، والخطبة الناجحة لابد أن تكون ذات موضوع واحد .

٢ – وهذه الموضوعات الكثيرة ذوات معان واحدة مكرَّرة ، وأحياناً ذوات أسلوب واحد ، تكرر على مسامع الناس فيملونها . وقد مضت على الخطباء فترة من الزمن – وما زالت لها بقية – كان الخطباء يحفظون فيه خطبهم ، أو يلقونها من كتب مطبوعة ، متمشية مع أسابيع كل شهر من كل عام ، فلا تَصَرُّفَ ولا تجديد ، ولا مراعاة لأحوال السامعين .

٣ – على أنها بموضوعاتها المتعددة ، ومعانيها الموحدة متخلفة عن قافلة الزمن ، مباينة للحياة الواقعية ، ليست فيها جِدَّة ، وكثيراً ما يشغل الناسَ حدث

جلل أو طارئ ، ويتشوقون إلى سماع كلمة الدين فيه ، فإذا بهم يسمعون نغمات قديمة لا صلة لها بما يتوقون إلى سماعه .

٤ – ومن نتائج ذلك كله أنها غير ملائمة لعقلية السامعين ، وغير مشوقة ، فأسلوبها رث متكلف ، ومعانيها لا تشويق فيها ؛ وإلقاؤها باعث على التثاؤب والملال .

٥ – ويغلب على القائمين بها ضحولة المعارف ، والجمود الكريه ، والبعد الشاسع عن الإلقاء المشوق والأسلوب الجذاب .

كيف ننهض بها ؟

وإذا ما أردنا أن ننهض بالخطابة الدينية فعلينا أن نصلح هذه العيوب ، بأن نجعل كل خطبة موحدة الموضوع ، جديدة الأفكار والمعانى ، مسايرة للحياة الواقعية ، معروضة فى معرض شائق رائق ، وأن نجملها بألوان من التشبيه والمقابلة وغيرها بحيث لا نتكلف ولا نتعسف .

ثم ليعلم الخطباء الدينيون أنهم فى مسلكهم قدوة للناس ومُثل ، فيدين الناس بأقوالهم ووعظهم إن كانوا صالحين ، ولا يهتدون بوعظهم إن كانوا غير صالحين ، فالخطيب الذى يلقى خطبته كل أسبوع مرة ، ثم لا يحبس نفسه على الفضيلة ، يهدم بيده مكانته ، ويقدم بنفسه دعاوة ضد التأثر بما يقول :

وذموا لنا الدنيا وهم يرضعونها   أفاويق حتى ما يَدُرُّ لنا ثَعْل[٢]

قال الشيخ حسين المرصفى : « إن من نصب نفسه لوظيفة الهدى ، ودعاء الناس إلى الخير يجب أن يكون أبعدهم من التصنع ، وأحرصهم على الكمال ، فإن أدنى هفوة منه تسقط اعتباره ، وتسهل التهاون به ، فلا يكون لكلامه تأثير فى القلوب ، ويصير مجلسه مسلاة يتلهى الناس بحضوره ، ولهذا قالوا : ما أحسن التاج ، وهو على رأس الملك أحسن ، وما أحسن الدُّرَّة ، وهى على نحر الفتاة أحسن ، وما أحسن الموعظة ، وهى من الفاضل التقى أحسن » .

---

(٢) الثعل : أطباء الناقة والبقرة والشدة .

ثم إن الخطيب الدينى إن لم يكن متأثراً متحمساً لما يدعو إليه فلا أثر لخطابته ، قال الحسن البصرى لو اعظ لم تقع موعظته بموضع من قلبه ، ولم يرقّ عندها : « ياهذا إن بقلبك لشراً أو بقلبى[٣] » .

ولابد أن يكون الخطيب الدينى مثقفاً ثقافة دينية واجتماعية وتاريخية وأدبية ، ليمتلك قلوب السامعين بطلاوة عبارته ، وحلاوة تصويره ، وطرافة معانيه ، وحداثة موضوعاته .

ثم لا بد من إجادة الإلقاء ، ومما يبشر بالخير أن بعض الخطباء المعاصرين تحللوا من القيود التى انحدرت إلينا من عصور الضعف العقلى والأدبى ، فجددوا ، وأنشأوا ، وتمشوا مع الحوادث ، وأحسنوا الإلقاء . وإنا لننتظر فى شوق ولهفة أن يكون خطباء الدين جميعاً لُسْناً مَقاول ، ليطهروا النفوس من الأثرة والشر ، وليَسْهموا فى إعزاز الدين وإعلاء كلمة الله ، فى عصر يتحلل فيه كثير من الناس من الدين وَينَسلُّون ، وهم إنما ينفلتون من سعادة إلى شقاء ، من شرف إلى ضعة ، ومن حياة إلى فناء .

أمثلة :

١ — خطب صلى الله عليه وسلم فذكّر السامعين بالموت ، وعجب من تغافلهم عنه ، وبين أن الخير لمن شغله عيبه عن عيب غيره ، ولمن أنفق حلالا ، وخالط العلماء والفقراء ، وحسنت أخلاقه ، واستمسك بدينه فقال : « أيها الناس ، كأن الموت فيها على غيرنا قد كُتِب ، وكأن الحق فيها على غيرنا قد وجب ، وكأن الذى نشيع من الأموات سَفْر عما قيل إلينا راجعون ، نبوئهم أجداثهم ، ونأكل من تراثهم ، كأننا مخلدون بعدهم ، ونسينا كل واعظة ، وأمِنَّا كل جائحة .

طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، طوبى لمن أنفق مالا اكتسبه من غير معصية ، وجالس أهل الفقه والحكمة ، خالط أهل الذل والمسكنة . طوبى لمن

(٣) البيان والتبيين ١/٨٤ .

زكت وحسنت خليقته ، وطابت سريرته ، وعزَل عن الناس شره . طوبى لمن أنفق الفضلَ من ماله ، وأمسك الفضل من قوله ، ووسِعته السنة ، ولم تستهوه البدعة[٤] » .

٢ – وقال عمر بن عبد العزيز : « أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثاً ، ولم تتركوا سُدًى ، وإن لكم معاداً يحكم الله فيه بينكم ، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التى وسِعت كل شئ ، وحُرِم الجنة التى عَرْضُها السماوات والأرض .

واعلموا أن الأمان غدا لمن خاف ربه ، وباع قليلا بكثير ، وفانياً بباق .

ألا ترون أنكم فى أسلاب الهالكين ، وسيخلفكم من بعدكم الباقون حتى تَرَدُّوا إلى خير الوراثين ؟ ثم أنتم فى كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله قد قضى نحبه وبلغ أجله ، ثم تُغيبونه فى صُدْع من الأرض ، ثم تدعونه غير موسَّد ولا ممهَّد ، قد خلع الأسباب ، وفارق الأحباب ، وواجه الحساب ، غنياً عما ترك ، فقيراً إلى ما قدَّم ، وأيمُ الله إنى لا أقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما عندى ، فأستغفر الله لى ولكم[٥] » .

٣ – وخطب الحسن البصرى فى يوم فطر ، وقد رأى الناس وأزياءهم ، فقال : « إن الله تبارك وتعالى جعل رمضان مضْمَاراً لخَلْقِه يَسْتَبِقون فيه بطاعته إلى مرضاته فَسَبَقَ أقوامٌ ففازوا ، وتخلف آخرون فخابوا ، فالعَجَبُ من الضاحك اللاعب ، فى اليوم الذى يفوز فيه المحسنون ، ويَخْسَر فيه المبطلون ، أما والله أنْ لو كشِفَ الغطاء لشُغِل محسن بإحسانه ، ومسئ بإساءته عن تَرْجيل شعر أو تجديد ثوب[٦] » .

٤ – وهذه خطبة دينية عصرية من النماذج التى يذيعها قسم المساجد بوزارة الأوقاف ، موضوعها (الجهاد لإنقاذ فلسطين) .

---

(٤) جمهرة خطب العرب ١/٢ .
(٥) علم الخطابة لويس شيخو .
(٦) تهذيب الكامل ١/٢٩

الحمد لله ولى المؤمنين ، وناصر المجاهدين الصادقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، نزّل الكتاب وهو ولى الصالحين ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله المجاهد الصادق الأمين ، اللهم صلى وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الذين جاهدوا فى الله حق جهاده ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون .

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : « أُذِنَ للذين يقاتَلون بأنهم ظُلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهُدِّمَتْ صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرَنَّ الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » .

عباد الله ، شرع الله الجهاد لدفع عدوان المعتدين ، ورد كيد الظالمين ، وإعلاء كلمة الحق والدين ، وأعد للمجاهدين مخلصين أجراً عظيما ، قال تعالى « فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتلْ أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيما . ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ؟ » وقال تعالى : « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص » .

وقد عمل المسلمون الأولون بهذا الهَدْى الكريم ، فجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فعلت كلمتهم ، وقويت شوكتهم ، وعزت مكانتهم ، فدانت لهم رقاب الجبابرة ، وخضعت لسلطانهم القياصرة والأكاسرة .

كانوا أمة عزيزة الجانب متضامنة عند الشدائد ، ومتحدة وقت الكوارث والخطوب ، كانوا كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تألم له سائر الأعضاء .

عباد الله ، يحدثنا التاريخ أن أمير المؤمنين المعتصم العباسى بلغه أن امرأة مؤمنة تستغيث به فى بلاد الروم مما لحق بها من هَوان ، وتنادى وامعتصماه ، فسار بجيشه معقود اللواء ، وحارب حتى فك أغلالها ، وصان كرامتها ، ورد لها حريتها .

واليوم ينتهكك الصهيونيون حرمة فلسطين ، تلكم البلاد المقدسة المباركة التى يحفظ المسلمون لها من الذكريات ما هو جدير بالإجلال والإكبار ، فقد كان إليها إسراء رسولنا خير الأنبياء ، ومنها كان معراجه إلى السماء : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله » والمسجد الأقصى أول القبلتين وثالث الحرمين . وإلى تلكم البلاد المقدسة سار الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه غداة فتح المسلمين لها ، ليؤمن أهلها ، وينشر العدل فى ربوعها ، وظلت فلسطين عربية إسلامية ، حتى اعتدى عليها المعتدون ، فقيض الله لها سلطان مصر صلاح الدين الأيوبى ، فخلصها من أيد الغاصبين وها هو التاريخ يعيد نفسه ، فيعتدى الظالمون على تلكم البلاد الآمنة ، يذبحون الأطفال والنساء ، ويقتلون الشيوخ والضعفاء ، لا تأخذهم فى ذلك شفقة ولا رأفة ، تجردوا من الإنسانية ، وغلظت أكبادهم ، وقست قلوبهم ، فهى كالحجارة أو أشد قسوة ، فكان حقاً على جميع المسلمين أن ينفروا سراعاً لنجدة هؤلا المظلومين ، ودفع عدوان الظالمين ، وها هى جيوشهم المظفرة تحشد ، وشبابهم الناهض يجند .

وسيكون لمصر إن شاء الله فى هذا الجهاد المبارك حظ موفور ، ونصيب مشكور ، ونصر مؤزر .

فاتقوا الله عباد الله ، وكونوا كأسلافكم الأمجاد نصرة للحق ، ومضاء فى العزائم ، وتآزروا فى الشدائد ، وتساندا فى الملمات ، واعتصاما بالدين ، والتفافاً حول راية الوحدة ، واستمساكا بعروة التعاون والتضامن ، يكتب الله لكم القوة والمنعة ، والعزة والغلبة ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين .

روى البخارى ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل أى العمل أفضل ؟ قال : « إيمان بالله ورسوله » قيل : ثم ماذا ؟ قال : « والجهاد فى سبيل الله » .

وروى أبو داود والترمذى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد[7] » .

وهذه الخطبة مقسمة إلى أجزاء : مقدمتها تنتهى إلى « ألا إن حزب الله هم المفلحون » . وهى مقدمة مناسبة للموضوع .

والموضوع يبدأ بعد ذلك وينتهى بهذه الجملة » وكرامة الإسلام وعزة المسلمين » . وقد عرض عرضاً حسناً يثير العاطفة . وخاتمتها تبدأ من « فاتقوا الله » إلى نهاية الخطبة ، وهى خاتمة ملخصة للخطبة فى إيجاز ، ومعتمدة على حديثين للرسول عليه الصلاة والسلام يؤيدان الفكرة .

والأسلوب فى جملته جيد ، ولكن بعض الجمل فوق مستوى فهم الرجل العادى مثل « فدانت لهم رقاب الجبابرة » ومثل « القياصرة والأكاسرة » ومثل « فى ربوعها » .

وبعد فإن خطباء المساجد يحسنون صنعاً إذا جاروا الحوادث ، وعالجوا بالدين مشكلات المجتمع المتعددة المتجددة ، ويحسنون صنعاً إذا راعوا البيئة وما يلائمها من موضوعات ومعان وأساليب ، فما من شك فى أن خطب المساجد فى القاهرة يجب أن تغاير أحياناً خطب المساجد فى القرى والموضوعات التى تليق بالتجار غير التى تليق بالموظفين وهكذا .

٥ – وهذه محاضرة دينية ألقاها المؤلف فى معسكر أبى بكر الصديق بالاسكندرية فى شهر يولية ١٩٧٩ على جمع من طلبة وطالبات الجامعات :

---

(٧) منبر الإسلام المجلد الخامس شوال سنة ١٣٦٧ أغسطس سنة ١٩٤٨ .

أيها الأبناء الأعزاء .

أيتها البنات العزيزات .

السلام عليكم ورحمة الله

يسرنى أيما سرور أن أحاضركم الليلة فى موضوع يتصل أوثق الاتصال بروح الإسلام وتشريعاته ، وهو يُسْرُ الإسلام وسماحته وسهولته فى كل ناحية من نواحيه ، فى عقائده ، وفى عباداته ، وفى معاملاته ، وفى أخلاقه ، وفى نُظُمه السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

وحسبنا هذه اللمحات :

(١)

شرع الله سبحانه الإسلام خاتما للأديان السماوية ، ومكملا لها ، واقتضت حكمته تعالى أن يجعل الإسلام سهلا سمحا ميسَّراً فى جميع أموره .

وذلكم أن القرآن الكريم وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تكفَّلا بالأصول العامة للإسلام ، قال تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا » .

وقال عليه الصلاة والسلام « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى ، عَضُّوا عليها بالنواجذ - الأضراس - وإياكم ومُحْدثات الأمور ، فإن كل مُحْدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة » فنهى عن الأمور التى لا أصل لها فى الدين ، وحَذَّر من العمل بها ، لأنها مبتدعة تضل المسلمين ، ووصف كل أمر من هذه بأنه بدعة ، ووصف كل بدعة بأنها ضلالة ، وقال إن كل ضلالة فى النار ، يريد من هذا أن يصون الإسلام من التزيد والإضافات والمبالغات ، وأن يصون المسلمين من الشَّحْناء والخلافات .

وإذا كان الإسلام قد أمر بعبادات ، وشرع معاملات ، فإن جوهره لا يفصل هذه عن تلك ، ولا يفصل هاتين عن الأخلاق السامية ، لأنه نظام كامل

متكامل ، وضعه وفصّل حدوده وموازينه ومقاييسه رب العالمين ، وهو العليم بما يُصْلِحُ عباده ، ويَصْلُح له ، الخبير بنفوسهم وسرائرها ، الذى يعلم خائنة الأعين وما تخْفى الصدور ، ويعلم السر والنجوى ، قال تعالى : « ألا يعلم منْ خلق وهو اللطيف الخبير » .

(٢)

فرض الإسلام على المسلمين ألوانا من العبادة والطاعة ، وعدهم على أدائها ثوابا من الله ، وليس فيما فرضه الإسلام شئ من العسر أو الإرهاق أو التكليف بما لا يطاق فى عقيدة أو عبادة أو سلوك ، ولقد صدق الله العظيم فى قوله : « لا يكلِّف الله نفسا إلا وُسْعَها » وفى قوله : « ما جعل عليكم فى الدين مِنْ حَرَج » وفى قوله : « يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العُسْر » .

وإن أحاديث النبى عليه الصلاة والسلام وأعماله المتصلة بيُسْر الإسلام وسماحته لكثيرة .

منها قوله : اللهم من وَلِيَ من أمر أمتى شيئا فشَق عليهم فاشْقُقْ عليه ، ومن ولى من أمر أمتى شيئا فرفق بهم فارفق به .

ومنها أن رجلا شكا إليه أنه يتخلف عن صلاة الصبح مع الجماعة ، لأن فلانا يؤم الناس ويطيل بهم ، فغضب رسول الله وقال : إن منكم منفِّرين ، فأيكم صلى بالناس فليتجوَّزْ – فليخفف – فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة .

ومنها أنه رأى رجلا يمشى بين ابنيه متوكئا عليهما ، فقال : ما بال هذا ؟ قالوا : نذر أن يمشى إلى الكعبة ، فقال رسول الله : إن الله عن تعذيب هذا نفسه لغنى ، وأمره أن يركب .

ومنها قوله : إنى لأقوم إلى الصلاة أريد أن أطول فيها ، فأسمع بكاء الصبى ، فاتجوَّز – أخفف – فى صلاتى ، كراهية أن أشق على أمه .

وقد تحلق المسلمون حوله يسألونه وهو بمنى فى حجة الوداع ، فكانت إجاباته كلها يُسْرًا وسماحة ، سأله رجل : يا رسول الله ، لم أشعر ، فحلقتُ قبل أن أنحر ، فقال رسول الله : انحر ولا حرج .

وقال رجل ثان : يا رسول الله نحرت قبل أن أرمى الجمرات ، فقال رسول الله : ارم ولا حرج .

ثم جاء ثالث فقال : يا رسول الله : أفَضْتُ إلى البيت الحرام قبل أن أرمى فقال رسول الله ارم ولا حرج . فلم يسأل عن عمل قدَّم المسلم بعضه على بعض نسيانا أو جهلا إلا قال : افعل ولا حرج .

(٣)

يتضح للمطلع على الشريعة الإسلامية أن اليسر أصيل فى عباداتها ومعاملاتها ، وأن الضرورات تبيح المحظورات .

فمثلا يغنى التيمم عن الوضوء إذا فقد الماء .

ويباح للمضطر الذى لا يجد ما يحفظ به حياته أن يأكل لحم الخنزير ، وأن يشرب الخمر .

ويباح للمريض أو الضعيف أن يفطر فى رمضان .

ويجوز للمسافر مسافة نحو ٨٥ كيلو أن يقصر الصلاة الرباعية .

والحج غير مفروض إلا على القادر قدرة مالية وجسدية .

والذى لا يستطيع الصلاة قائما يصلى قاعداه . وهكذا .

ولما استغل بعض الصحابة عبادتهم بجانب عبادة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : والله إنى أخشاكم لله ، وأتقاكم لله ، ولكننى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن يرغب عن سنتى فليس منى

(٤)

أحل الإسلام جميع طيبات الأرض ما دامت مباحة لا معصية فيها لله تعالى .

أحل الطعام والشراب والكساء والاستمتاع المباح بما فى الأرض وعلى الأرض من خيرات وثمرات .

قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ، واشكروا الله إن كنتم إياه تعبدون »

قال سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرّموا طيبات ما أحل الله لكم ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، وكلوا مما رزقكم الله حلا لا طيبا ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون » .

وقال عز وجل : « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . كل من حرَّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق .

وقال سبحانه : « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات ، واعلموا صالحا ؛ انى بما تعملون عليم » .

وفى مقام الأمر بالعمل الصالح أملا فى ثواب الآخرة اقترن الأمر بالنهى عن إهمال الدنيا ، قال تعالى : « واتبع فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا »

وعلى هذا اليسر بايع رسول الله من بايعهم على السمع والطاعة فيما يستطيعون .

فلا غرابة فى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكره التشدد فى غير مواضع التشدد ، لأن المتشددين يضيقون على أنفسهم وعلى الناس حيث وسع الله عليهم وعلى الناس .

فقد روى عنه قوله : هلك المتنطعون .

وروى عنه قوله : إن الدين يسر ، ولن يشادّ الدين أحد إلا غلبه ، فسدِّدوا وقاربوا ، واستعينوا بالغَدْوة والرَّوْحة وشئ من الدُّلْجة . أى استعينوا على طاعة الله بأدائها فى أوقات نشاطكم وفراغ قلوبكم ، بحيث تؤدونها وأنتم تحسون حلاوتها ، ولا تسأمونها .

كما أن المسافر فى أول النهار وفى آخره ، وفى آخر الليل يسير فى هذه الأوقات الثلاثة ، فلا يجد من المشقة ما يجده فى غيرها من الأوقات .

وقال صلى الله عليه وسلم : إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، إن المنبَتَّ لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى .

ولقد خرج رجلان فى سفر ، وليس معهما ماء ، فلما حضرت الصلاة تيمما وصليا ، ثم سارا فوجدا ماء فى الطريق والوقت حاضر ، فتوضأ أحدهما وأعاد الصلاة ، ولم يُعد الآخر ، ولما ذكرا ذلك لرسول الله قال للذى لم يُعِدْ : أصبت السنة ، وأجزأتك صلاتك ، وقال للذى توضأ وأعاد : لك الأجر مرتين .

(٥)

ومن هنا نعلم أنه ليس من الإسلام التزمت ، وتحريم الحلال ، والامتناع عن المباح ، بدعوى أن هذه زهادة ، كأن يمتنع بعض الناس عن الاستمتاع بالمسكن الأنيق ، وبالملبس الفاخر ، وبالمركب الفاره ، وبالطعام الجيد ، وبزينة الحياة . ليس هذا من الإسلام ، ما دام الاستمتاع حلالا ومباحا وفى غير إسراف ولا خيلاء .

روى أن رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ، ونعله حسنة ، فقال رسول الله : إن الله جميل يحب الجمال ، فبين أن التجمل بالمباح ليس محظورا فى الإسلام .

لهذا كان عليه الصلاة والسلام أنظف المسلمين جسدا وثوبا ، وكان أطيبهم عطرا ، وكان يأمر صحابته إذا ما قدم اليهم وفد أن يلبسوا أثمن ما عندهم .

أيها الأبناء الأعزاء والبنات العزيزات .

هذه قطرات من بحر زاخر لا ينضب . أو زهرات من بستان زاهر لا يذبل .

٥ – الخطابة الحربية

موضوعها وخصائصها :

لطالما استمد السيف إلى مضائه قوة من الخطابة تزيده مضاء ، وكثير ما لجأ القادة إلى الكلمة يشعلون بها الجنود حماسة إلى الاستبسال ، وكثير ما كان الخطباء يشدون أزر الجيش المقاتل بما يلقون من خطب ، ويوقدون حماسة الشعب ليجود بالدماء والأموال .

ولئن كانت الخطب السابقة مجالا للتحضير والتنقيح والتروى . إن الخطابة الحربية كثيراً ما تستهل لوقتها ، إذْ يفجأ الزمن القائد ، فينتزع من بديهته المسعفة خطبة مرتجلة ، على أنه أحياناً يعدها لظرف يتوقعه .

ومهمته شاقة ، لأنه لا يستطيع أن يسمع الجيش كله ، ولذلك جرت العادة الآن أن تكتب الخطبة ، وتوزع على الجند .

والغرض منها بعث العزيمة فى نفوس الجند ، وإذكاء حماستهم ، وتبشيرهم بالنصر ، وبث الثقة ، وتهوين الموت .

والقائد يتخير الجمل القوية القصار ، ويلجأ إلى الخيال كثيراً يستثير به عظمة الماضى والأمل فى الحاضر ، ويُمنِّى بالفوز والمجد ، ويُنفِّر من التخاذل والانكسار .

أمثلة :

وقد أثر عن العرب والمسلمين وغيرهم فيض من هذه الخطب .

١ – منها خطبة هانئ بن قبيصة الشيبانى فى موقعة ذى قار ، يحرض قومه على الفرس : « يا معشر بكر ، هالك معذور خير من ناج فرور ، إن الحذر لا ينجى من القدر ، وإن الصبر من أسباب الظفر ، المنية ولا الدنية ، استقبال

الموت خير من استدبارة ، الطعن فى ثغر النحور أكرم منه فى الأعجاز والظهور ، قاتلوا فما للمنايا من بُدّ .

وكتب التاريخ والأدب حافلة بخطب القواد والساسة وبخاصة فى فترات الصراع الحزبى بين الأمويين والشيعة والخوارج والزبيريين ، وفى فترات الفتوح الإسلامية .

٢ – ومن أعظم الخطب الحربية الخطبة المنسوبة إلى طارق بن زياد قبل فتح الأندلس :

« أيها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر . واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مآدب اللئام .

وقد استقبلكم عدوكم بجيشه ، وأسلحتُه وأقواته موفورة ، وأنتم لا وَزَرَ لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدى عدوكم . وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ، ولم تنجزوا لكم أمراً ، ذهبت ريحكم ، وتعوَّضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية ، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة ، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت .

وإنى لم أحذركم أمراً أنا عنه بنَجْوة ، ولا حملتكم على خطة أَرْخَصُ متاع فيها النفوس أربأ فيها بنفسى .

واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا استمتعتم بالأرفه الألد طويلا ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى فما حظكم فيه أوفر من حظى .

وقد بلغكم ما أنشأتْ هذه الجزيرة من الحور الحسان ، من بنات اليونان ، الرافلات فى الدر والمرجان ، والحلل المنسوجة بالعِقْيان ، المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان .

وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عُزْبانا ، ورضيكم للملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختانا ، ثقة منه بارتياحكم للطعان ، وإسماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان ، ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته ، وإظهار دينه بهذه الجزيرة ، وليكون مغنمها خالصاً لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم ، والله تعالى وليّ إنجادكم على مايكون لكم ذكراً فى الدارين .

واعلموا أنى أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه ، وأنى عند ملتقى الجَمْعَيْن حامل بنفسى على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله ، فاحملوا معى ، فإن هلكت بعده فقد كُفِيتُم أمره ، ولن يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه ، وإن هلكت قبل وصولى إليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه ، واكتفوا المهم من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فإنهم بعده يُخْذَلون[٨] » .

وهذه الخطبة ثرية بخصائص الخطابة الحربية ، من ناحية التعبير والتصوير والاستمالة ، وفيها حَفْزٌ للعزائم بوسائل شتى ، وتبشير بالنصر والغنائم ، ودعوة إلى الجهاد ابتغاء الثواب .

٣ – ومنها خطب ابن نباتة الفارقى فى تأييد سيف الدولة الحمدانى فى حربه للروم ، كقوله : « من وصل حبل الله أوصله ، ومن أخمل حقه أخمله ومن قعد عن نصرته خذله .

فانفروا رحمكم الله كما أمركم إلى جهاد عدوه ، واعلوه بالمغار عليه قبل مغاره عليكم وعلوه ، وانتهزوا الفرصة فيه بتشاغله قبل خلوه ، وانهضوا إليه قبل نهوضه إليكم ودنوه .

فإنكم إن قعدتم عن جهاده نهض إليكم ، وإن لم تنصروا الله نصره عليكم ، كدأبه فيمن رأيتموه من أهل الثغور ، الذين أحلّ بهم دواهى الأمور ، ولقد كانوا أكثر منكم جهاداً ، وأوفر عدداً واستعداداً » . . .

---

(٨) جمهرة خطب العرب لأحمد زكى صفوت وعلم الخطابة للأب لويس شيخو اليسوعى .

٤– ولهانيبال القائد القرطاجى المتوفى ١٨٣ ق.م خطبة تشبه خطبة طارق فى التيئيس من الفرار ، والتخويف من الحواجز الطبيعية المحيطة بالجيش الغريب ، والتخيير بين الهلاك وبين النصر ، والترغيب فى الغنائم المباحة للمنتصرين .

وتنفرد خطبة هانيبال بتذكير الجنود بماضيهم المجيد ، وانتصارهم الباهر ، وتحقير شأن العدو واستصغار قوته وعدده ، وهذا جزء منها : « أيها الجنود ، إنى لا أدرى إذا كان الحظ لكم أو لمن فى أيديكم من الأسرى . فقد شُدَّ بكم جميعاً الوثاق ، وحُمَّتْ الحاجات ، فعن اليمين وعن الشمال بحران يكتفانكم ، وليست لديكم سفينة واحدة تهرعون إليها ، ومن بين أيديكم نهر پو ، وهو أعرض وأسرع جريا من الرون ، ومن خلفكم جبال الإلب ، تلكم الجبال التى لم تستطيعوا اقتحامها إلا بشق الأنفس حتى فى أيام وفرة عددكم ، فهيا أيها الجيوش ، فليس أمامكم إلا الفناء أو النصر على الأعداء يوم لقائكم لهم .

أيها الجنود ، لا تيأسوا فإن تلك القدرة الإلهية التى ألقت بكم فى هذا المأزق الحرج الذى يرغمكم على القتال ، هى عينها التى أعدت لكم على مرأى منكم نعما عظيما ، ليكون أجراً لكم على انتصاركم ، وجزاء لا يرجو أعظم منه إنسان من الله الباقى .

إننا إن لم نستطيع بيأسكم وحميتكم إلا أن نعيد إلى حوزتنا صقلية وسردينية اللتين سلبهما العدو من آبائكم سلباً ، كان ذلك جزاء وفاقاً لا يستهان به . ولكن أين هاتان مما أعد لكم من ثروة رومة الطائلة . وأموالها المكدسة ، وغنائمها التى سلبتها الأمم الأخرى ، كل هذه وأمثالها ستكون لكم وفى حوزتكم . . .

إنى أربأ بكم أيها القوم أن تتصوروا أن الانتصار صعب المنال ، أو تعتقدوا كما يعتقد الناس أن إعلان حرب على رومة أمر عظيم له وقع فى النفوس ، ولتعلموا أنه كثيراً ما تغلب جيش مستصغر على عدد مستعظم ، وصمد له فى معارك أريقت فيها الدماء ، وحصدت فيها الرءوس ، وكم ثلت عروش فخمة ، وأفنيت أمم عريقة فى المجد على أيدى جيوش قليلة العدد .

ولكنكم لو جردتم رومة من اسمها الفخم البراق ، وصيتها الذائع ، فما الذى يبقى لديهم مما تستطيع أن تقف به أمامكم وتنافسكم به فى قوتكم وبأسكم ؟

وإننا لو تغاضينا عن خدماتكم الجليلة فى تلك الحروب الطاحنة المتعاقبة ، التى دامت عشرين حولا أظهرتم فيها ما أظهرتم من البسالة والإقدام ، ونلتم فيها ما نلتم من الفوز والنصر المؤزر ، أقول لو تغاضينا عن هذه كلها لبقيت لكم مفاخر أعلى شأناً وأجل منزلة .

ألم تأتوا من أسوار هركوليس ، ومن أقاصى المحيط ، بل من أقاصى حدود الأرض ؟ ألم تجوسوا خلال ديار لأقوام عرفوا بالمهارة الحربية أمثال الإسبان والغالة ؟ ألم تصلوا إلى هذه البلاد منتصرين فائزين ؟ ومع ذلك فمن ستقاتلون ؟ فلول جند قواهم غير ناضجة ، وجيشاً يعوزه النظام ، قد كسرت شوكته ، وحاصره الغالة صيف العام الماضى ، وما بالكم بجيش لا يعرف قائده ، ولا يعرفه قائده[٩] » .

٥ — ومن الخطب الحربية القوية خطبة نابليون فى حملته على إيطاليا ، وهى :

« أيها الجنود ، لاقوت لكم ولا كساء ، الحكومة مدينة لكم بالكثير ، ولا تستطيع أن تعطيكم شيئا .

وإن فى صبركم وشجاعتكم لشرفاً لكم ، ولكن ليس من ورائهما ربح ولا مجد .

سأقودكم إلى أخصب سهول العالم ، ستجدون مدناً كبيرة ، وضياعاغنية .

ستجدون الشرف والمال والمجد .

أيها الجنود : أتعوزكم الشجاعة[١٠] ؟ » .

وهذه الخطبة شبيهة بخطبة طارق بزياد ، فى بعث الحماسة ، وبث الأمل فى النصر ، والتبشير بالغنى والمجد .

---

(٩) صحيفة دار العلوم السنة الأولى العدد الثالث . ترجمة حامد عبد القادر .

(١٠) الخطابة للدكتور نقولا فياض .

الفصل الخامس

أجزاء الخطبة

قسم أرسطو الخطبة إلى أربعة أجزاء : المقدمة ، والعرض ، والتدليل ، والخاتمة وزاد بعضهم على هذه الأقسام التفنيد ، وقصرها آخرون على ثلاثة : المقدمة والعرض (وتنطوى فيه الأدلة والتفنيد) ، والخاتمة ، وسأتبع هذا التقسيم الأخير .

وليس غرضى أن ألزم كل خطيب بهذه المراحل ، فقد يكون فى غنى عن المقدمة ، وقد يكون فى غير حاجة إلى تدليل أو تفنيد ، ولكنى أعرضها على أنها مراحل الخطبة الكاملة ، ولا ضير فى ترك بعضها أحيانا .

١ — المقدمة

أهميتها :

المقدمة من الخطبة كالمطلع من القصيدة ، وكالافتتاح فى الموسيقى ، كل منها يمهد لما بعده ، ويعد السامعين إلى الإصغاء .

والمقدمة أول ما يطرق الأسماع من الخطبة ، فإن كانت جيدة أصغى السامعون ، وتأهبوا لما بعدها ، وتفتحت نفوسهم للخطيب . وإلا كانت نذيراً بفشله وتفاهة أثره . وكثيراً ما تتخذ المقدمة وسيلة لأن يسود الصمت بعد هرج حدث إثر خطبة سابقة ، أو من جراء مناقشة فى موضوع الخطبة قبل سماع الرأى فيها ، أو اضطراب لسبب من الأسباب .

ضرورتها والاستغناء عنها :

ولقد تكون المقدمة ضرورية لا يستغنى عنها الخطيب ، كأن يكون الخطيب مجهولا لاصلة للسامعين به ، فيعتمد على المقدمة لعقد هذه الصلة ، أو يكون الموضوع الذى يخطب فيه مجهولا للسامعين ، أو لا يثير اهتمامهم ؛ لأنه فى القطر الأول لا يمس صوالحهم ، فيعتمد على المقدمة لتوضيح أهمية الموضوع ، وبيان قيمته ، حتى يتصل بقلوبهم فيعوا ما يقال عنه ، أو يكون الخطيب مبغَّضاً إلى السامعين ، لأنه من غير حزبهم ، أو لمقالة سوء ذاعت عنه ، أو لأنه كان قد حكم فظلم ، فيلجأ إلى المقدمة ليخفف من هذه الكراهية ولو مؤقتاً ، ويتطلب منهم تناسى الحزازة والحكم البرئ ، أو تكون الفكرة التى يدعو إليها الخطيب بغيضة إليهم ، كأن يدعو إلى تقييد التعليم فى جمع من المتعلمين ، أو إلى الاشتراكية فى جمع من المالكين ، أو إلى التحلل من قيود الدين فى مجتمع من المتدينين ، أو إلى الخضوع لأحكام الدين فى جمهور من الماجنين ، فيقدم خطبته بكلمة ملطفة لهذه الخصومة ، مخففة لما فى نفوسهم من عداء سابق لما يدعو إليه ، إذيدعو الجمع إلى الخضوع للحق ، والتجرد من التعصب للهوى ولوفترة من الزمن ، وفى غير هذه الأحوال لاحاجة إلى مقدمة .

شروط جودتها :

١ – أن تكون متصلة بالموضوع نفسه ، لتخدمه وتمهد له .

ومثال ذلك خطبة أبى بكر يوم السقيفة ، فقد قدم للموضوع وهو أن المهاجرين أولى بالخلافة من الأنصار بهذه المقدمة « إن الله بعث محمداً رسولا إلى خلقه ، وشهيداً على أمته ، ليعبدوا الله ويوحدوه ، وهم يعبدون من دونه آلهة شتى ، ويزعمون أنها لهم عندهم شافعة ، ولهم نافعة ، وإنما هى من حجر منحوت ، وخشب منجور « ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، وقالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى »

فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم ، فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه . . . [٢] .

وفى العصر الحديث يحتفل الخطباء بمقدماتهم ، يفتنون فيها ويوثقون صلتها بالموضوع . ولهم فيها طرائف شتى .

٢ – أن تكون واضحة مناسبة لعقول السامعين ، موزونة المعانى ، دقيقة التعبير ؛ لأن السامعين فى أول الخطبة أبصر بالنقد ، وأقرب إلى العناد ، حتى إذا بهرهم الخطيب أسلسوا له القياد .

٣ – أن تكون شائقة تجذب السامعين إلى الموضوع ، جديدة غير مبتذلة أو مشاعة صالحة لكل خطبة ، جاء فى تعريف ابن المقفع للبلاغة « وليكن فى صدر كلامك دليل على حاجتك ، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذى إذا سمعت صدره عرفت قافيته » . وعلق الجاحظ بقوله كأنه يقول : « فرِّقْ بين صدر خطبة النكاح وبين صدر خطبة العيد ، وخطبة الصلح وخطبة التواهب ، حتى يكون لكل فن من ذلك صدر يدل على عجزه ، فإنه لا خير فى كلام لا يدل على معناك ، ولا يشير إلى مغزاك ، وإلى العمود الذى إليه قَصَدْت ، والغرض الذى إليه نَزَعت [٣] » .

ومن المقدمات الشائقة المتصلة بالموضوع ما قدم به محمد توفيق دياب لخطبته (الشباب المصرى خيوط الحاضر ونسيج المستقبل) فى قوله « إخوانى ، أبنائى . فى الساعة الثالثة من صباح أمس ، وفى سكون الليل البهيم ، وأطفالى نيام ، جلست إلى مكتبى وأطفأت سراجى ، وأغمضت عينى ، وفتحت قلبى لربى عسى أن يرسل عليه شعاعة من نور ، ونفحة من حرارة أحملها إليكم هذا المساء .

جعلت نفسى جدولا صغيراً يحمل من اليم العظيم بعض مداد الحياة ، ولست فى هذا دعياً ولا أنا من الغالين . كل كائن حى قناة تأخذ عن مصدر

---

(٢) جمهرة خطب العرب ٦٢/١ .

(٣) البيان والتبيين ١١٦/١ .

الحياة ، بل تأخذ وتعطى ، فالنبات والشجر ، والأبُّ والفاكهة ، والورود والرياحين ، كلها يأخذ من مصدر الحياة ، ليعطينا غذاء ووقوداً ومرتفقاً ، وليعطينا ظلالا وأرجا وجمالا وبهجة .

وكأنى بالسنبلة وهى تجود علينا بحب الحصيد ، بأفلاذ كبدها ، وثمرة وجودها ، كأنى بها تجد بها لذة البذل والعطاء ، عيدانها تحصد بالمناجل ، وتداس أكداسها بالنوارج ، ويسحق برُّها بالمطاحن ، كل ذلك لنقتات ونعيش .

وكأنى بها لو تدبرت ثم سئلت فأبانت لقالت : هذه رسالتى فى الحياة ، وما الفرق بين أن تسحقنى تضاريس الرحا ، وبين أن تسحق ابن آدم تضاريس السنين ؟ أما أنا السنبلة فعلى يقين – حين ينتهى بى المطاف – من أداء رسالتى وأنى لم أخلق عبثاً ، ولم تضع أيامى سدى ، ولم تستحقنى المطاحن ، ولم تصهرنى نيران المخابز إلا فى سبيل الحياة ، حياتى أنا وحياة الإنسان . .

إخوانى ، لست زهرة فأنفحكم من شذاى ، ولست كرمة فأدنى إليكم قطوفى ، ولست نخلة فأساقط عليكم رطباً جنياً .

إنما أنا روح صغير ارتدى بدناً ، روح صغير خلوت فى ظلام الليل لألتمس رسالتى إليكم هذا المساء من الروح الأعظم . تساءلت ماذا أقول للشباب الذى هو خيوط الحاضر ونسيج المستقبل . . .[٤] .

٤ – أن تناسب الخطبة طولا وقصراً ، لأنها مقدمة لا خطبة ، وتمهيد لا موضوع ، ولأنها إن طالت استنفدت جهد الخطيب وانتباه السامعين ، فيحرم الموضوع نفسه نشاطه ونشاطهم .

---

(٤) جريدة الجهاد فى ١٠ نوفبر سنة ١٩٣٤ .

أنواعها :

ليس للمقدمة طراز خاص تلزمه ، فإن الخطيب حر فى أن يستلهم مقدمته كما يشاء ، وتشاء ظروف المجتمع والموضوع .

ومن أنواع المقدمة :

١ - حمد الله والثناء عليه ، والصلاة والسلام على رسوله ، وكان هذا عرفاً شائعاً لازماً فى العصر الإسلامى والعباسى ، دأب المسلمون عليه حتّى صار قاعدة يندر خلافها ، قال الجاحظ : « إن خطباء السلف الطيب ، وأهل البيان من التابعين بإحسان ، مازالوا يسمون الخطبة التى لم تبدأ بالتحميد وتستفتح بالتمجيد البتراء ويسمون التى لم توشح بالقرآن وتزين بالصلاة على النبى : الشّوهاء » .

ولم يكن توشيح الخطبة بالقرآن شرطاً فى الخطبة الدينية يوم الجمعة أو العيد فحسب ، بل كان - كما قال الجاحظ - مستحسناً فى الخطب كلها ، لأنه يورث الكلام بهاء ووقارا ورقة وسلس موقع .

حدث عمران بن حِطّان الخطيب الخارجى فقال : خطبت عند زياد خطبة ، ظننت أنى لم أقصر فيها عن غاية ، ولم أدع لطاعن علة ، ثم مررت ببعض المجالس ، فسمعت شيخاً يقول : هذا الفتى أخطب العرب لوكان فى خطبته شئ من القرآن[٥] .

أما فى هذا العصر فإن هذا النوع الحميد من البدء موقوف على الخطبة الدينية .

٢ - التمهيد للموضوع بما يشعل حماسة السامعين ، ويعد عواطفهم للتأثر وأذهانهم للوعى .

وذلك مثل قول مصطفى كامل فى التقديم لخطبته بالإسكندرية سنة ١٨٩٦ ، يثنى على أهلها ويشيد بوطنيتهم ، ويذكرهم بما يشيعه خصوم الوطن

---

(٥) البيان والتبين ١١٨/١ .

عنهم أنهم يحدثون قلاقل تضر الوطن ، وينفى ذلك عنهم بأنهم ذوو حماسة ووطنية ، وأصحاب اعتدال وحكمة وروية ، وهو يريد أن يوحى إليهم بهذا ، ثم يصور مصر مريضاً بدأ الشفاء يدب فى أوصاله ، فهو فى نقاهته عرضة للنكسة إذا لم تتوفر العناية :

« ما اقتربت من مدينتكم الزاهرة حتى شعرت من نفسى بارتياح زائد ، وانشراح خاص ، لأننى عهدتها وأعهدها مدينة الحياة الحقيقية ، ومهد الرجال المشهورين بالشجاعة والبسالة والإقدام .

وقد اتخذتم يا أبناء الإسكندرية فى كل بلاد مصر مثالا للهمة والحماسة ، فلتكونوا كذلك مثالا صادقاً للدعة والسكون والاعتدال ، لتصبحوا وتمسوا أساتذة لمصر كلها فى تأدية الواجب نحو الوطن المحبوب .

ولقد أشاع عنكم بعض كثيرى الظنون أن غيرتكم وحميتكم يستعملان أحيانا ضد مصالح البلاد ، وأنكم تنفذون من حيث لا تشعرون مآرب ذوى الغايات بإحداث القلاقل . وكنت كلما سمعت مثل هذه الإشاعات استغربتها كل الاستغراب ، لأن الغيرة التى تستعمل فى غير موضعها تكون دواماً أضر من النجدة والخمول .

فلذا أناديكم – وإن كنتم أعلم منى بالواجب – مناداة محب لبلاده ولمدينتكم بنوع خاص ، أن تنفوا باعتدالكم وسكونكم تهمة من يرمونكم بحب الهياج والاضطراب .

ومثل مصر اليوم – وهى على باب السعادة المقبلة – مثل مريض قارب الشفاء ، ينصحه الطبيب بزيادة التحفظ ، وعدم التعرض للهواء ، لئلا ينتكس بالعلة فتعود عليه بويل أشد من ويلها الأول . فلنحترس جميعاً معشر المصريين من التعرض إلى ما وراءه تعرض الوطن إلى خطر عظيم .

وإن صفتى التسامح والغفران اللتين اشتهرت بهما الأمة المصرية كانتا من أعظم الأسباب التى استمالت قلوب الأوروبيين نحوها ، وجعلتهم يعتبرون مصر

كقطعة أرض من أوطانهم ، فهم يقطنونها آمنين مطمئنين متمتعين براحة البال . . .

والإسكندرية أول مدينة من مدائن القطر سكنها الأوروبيون ، ووجدوا من أهلها بشرا وائتلافاً . .

ولكم الحق يا أهلها وأعز أبنائها أن تفتخروا بذلك أعظم الافتخار ، فداوموا أيها المواطنون الأعزاء على إكرام وفادة ضيوفكم ونزلائكم ، الذين يشتركون معكم فى الإحساس نحو هذا البلد الأمين ، وليكن مبدؤنا دائماً : أحرار فى بلادنا ، كرماء لضيوفنا[٦] .

ومثل مقدمة مكرم عبيد فى تأبين سعد زغلول التى صوّر فيها لوعة مصر وأساها وفجيعتها فى زعيمها فقال : « إذن قد مات سعد ، وهذه الحفلة الحافلة هى حفلة الزعيم فى موته ، إى وربى وحفلته الأولى . وهذه الجموع الحاشدة قد جاءت لتسمعه خطيباً محدثاً ، لا وربى بل حديثاً يُروَى . وهذه العيون اللوامع قد ألهبها بريق ناظريه ، لا وربى بل حرقة الذكرى ، وهذا السكون ، وهذا الخشوع ، وهذا الجلال إن هى إلا مظاهر العزة والعظمة للعزيز العظيم فينا ، لا وربى بل ضريبة الموت فرض على كل مصرى أن يؤديها مرة بعد أخرى . فقد مات من كان حياً فى كل قلب وأصبحت حياته شيئا يتلى ، وقد سكن من كان ناطقا فى كل لسان وأصبح الكلام فيه دمعاً يُسْجى .

ولقد دارت دورة الشؤم فشاءت أن أرثى سعداً باكياً نائحاً ، وقد اعتاد لسانى ألا يذكره إلا شادياً صادحا ، فسامحونا إذا ألح بنا الألم فضاقت عنه مآقينا ، فقد حُرمنا حتى سلوة البكاء عليه فى منيته ، حتى نظرة الوداع إلى جثته ، وحتى خطوة التشييع فى رحلته[٧] .وقد كان والله يحنو على أشخاصنا فى محنته ، ويبكى على أمراضنا فى رحمته ، ولا يبغى بنا بديلا فى غربته .

---

(٦) مصطفى كامل للرافعى ٤٣٤ .

(٧) يشير إلى غيبته بأوروبا حين توفى سعد .

إذن قد وقعت الواقعة التى طالما هادّنا عليها القدر ، وانتزع الموت فى لحظة من ضنت به الأجيال متعاقبة . وتعبت فى صنعه وصوغه العزائم والعبر ، فكان لها عونا على الدهر ، وكان هو المدّخر . إذن فقد نفذ السهم وحمُ القدر ، ذلك الذى كنا إلى الأمس نتادى به . وإذا انطلق إليه السهم ارتد وانكسر ، وإذا التطم الموج بصخره عَجَّ وانحسر،وإذا امتدت إليه يد الحوادث ارتد القدر . عجبا هل تطاول القبر إلى من كان فوق هامات البشر ؟ أم أن تلك العظمة الشامخة لما لم تجد علواً ترتفع إليه قد تواضعت فتدانت حتى ذاك المستقر ؟ سبحانك ربى ، بل قد أردت فقدرت ؛ فمنك الوجود ، وإليك المقر[٨] » .

٣ – الاستدلال بحكمة أو مثل أو بيت رائع من الشعر يوحى بالموضوع ويمهد له ، كما استهل الحجاج خطبته الشهيرة بالكوفة متمثلا بهذا البيت :

أنا ابن جَلَا وطلاّع الثنايا ... متى أضع العمامة تعرفونى[٩]

٢ – وقد يبدأ الخطيب بتفنيد حجج خصمه ، أو بذكر موضوعه على الإجمال .

٣ – وكثيراً ما يستوحى الخطيب اللبق مقدمته من حال الحفل وظروف الجمع ، فتحدث أثراً فى النفوس عميقا .

(ا) قال سعد زغلول فى مقدمة خطبة له وهو مريض . وكان لا ينوى أن يخطب : « يَعِزُّ علىّ أن أجد منبر الخطابة منصوبا ولا أستطيع له رقيا ، وأن أجد مجال القول واسعا ولا أملك لسانا فتيا . وأن أجد سامعين ولا أملك صوتا قويا » .

---

(٨) عبرات الشرق على الزعيم سعد زغلول ٢٧٨ .

(٩) تاريخ الطبرى ٢١٠/٧ وتهذيب الكامل ١٧٠/١ .

(٢) العرض

أهميته :

إن استغنى الخطيب أحيانا عن المقدمة أو عن الخاتمة ؛ فليس يستطيع أن يستغنى عن عرض الموضوع ، لأنه الخطبة نفسها أيا كان نوعها .

شروط جودته :

١ - الوحدة ، وذلك أن تنبع مسائله كلها من ينبوع واحد ، كأنصاف أقطار الدائرة تتشعب كلها من مركز الدائرة . وقد سبق القول أن من أسباب ضعف الخطابة الدينية أن الخطبة الواحدة ذات موضوعات شتى .

٢ - الترتيب ، فيعرض الخطيب موضوعه متسلسلا ، يسلم كل جزء إلى ما بعده ، وبذلك تمهد الأجزاء كلها إلى النتيجة التى يريدها .

٣ - الوضوح ، وهو أساس للخطبة الناجحة ، وسأعود إليه فى دراسة الأسلوب .

(٣) التدليل

كثيراً ما يحتاج الخطيب إلى التدليل على صحة رأيه ، والأدلة نوعان :

١ - منطقية وهى المبنية على مقدمات ثابتة يقينية ، كالقياس مثلا ، فإذا أراد استنباط قياس فليعرض الموضوع والمحمول (وهما الحدان أو الطرفان) على الحد الأوسط ، فإن ثبتت المقابلة صح القياس وإلا فلا ، كأن يقول كل جماعة لابد لها من عقيدة ، والمصريون جماعة ، فلابد لهم من عقيدة .

وهذا الدليل المنطقى ينشأ عن اقتناع ويقين عقلى ، كما يقنع إنسان آخر بأن مجموع زوايا المثلث قائمتان .

٢ – أدلة خطابية ، وهى المبنية على مقدمات ظنية ، أو المستندة إلى العرف الشائع ، أو إلى حكم مشهورة ، أو إلى أقوال الفلاسفة والمشرعين .

وينشأ عن هذه الأدلة الخطابية اقتناع شعورى .

والفرق بين النوعين أن الدليل المنطقى يتبعه اليقين ، فيعبر المقنع عقليا بقوله : أنا أعلم كذا ، أو أثق بكذا ، أما الدليل الخطابى فينشأ عنه تغليب الظن ، فيعبر الشخص المقتنع شعوريا بقوله : أنا أريد كذا .

كذلك يختلفان فى أن الدليل المنطقى لا يتصرف فى القياس ، أما الخطابى فإنه يتصرف فيه بالتقديم والتأخير ، كقول على بن أبى طالب : « إنى إمامكم وأسوتكم ، فسيروا بسيرتى ، واقتفوا معالمى ، فإن لكلّ مأموم إماماً يَقتدى به ، ويستضئ بنور علمه . ألا إن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطِمْرَيْهِ[1] ومن طعامه بقرصيه » .

وكان التدليل المنطقى يقتضى أن يقول : لكل مأموم إمام يَقْتدى به ، فأنا إمامكم ، فاقتدوا بى ، وسيروا بسيرتى .

وقد أطنب الأب لويس شيخو فى بيان أنواع القياس المنطقى[2] .

والحق أنه لا جدوى كبيرة من الأقيسة المنطقية فى أكثر الخطابة ، لأن الجمع لا يخضع للعقل ، ولا يدين للمنطق ، أو قلما يفعل ذلك . والأدلة التى تنساق الجماعات لها أدلة لها من التدليل اسمه ، ولا تسمى أدلة إلا على ضرب من التجوز ، لأن رابطة الأفكار التى تقرن الجماعة بعضها ببعض ظاهرية التلازم أو التشابه لا حقيقية ، فهى « تتسلسل عندها كما تسلسل الأدلة فى ذهن الرجل الإسكيمى الذى عَرَف بالتجربة أن الثلج – وهو جسم شفاف – يذوب فى الفم ، فاستنتج أن الزجاج – وهو جسم شفاف أيضا – يجب أن يذوب فى الفم ، وكالمتوحش الذى يتوهم أن أكل قلب العدو الشجاع ينقل شجاعته إلى

---

(١) طمريه : تثويبه البالبين

(٢) عِلم الخطابة ٩٨ – ١١٢

الآكال ، وكالأجير الذى هضم مستأجر حقه فقال : إن جميع المستأجرين هضامون للحقوق[٣] .

وإذ كانت الجماعة سطحية التفكير ، واهية الربط ، سريعة الطفرة من التخصيص إلى التعميم ، ومن الجزئى إلى الكلى ، وكانت الأدلة التى تأسرها على هذا الغرار ، فإن مهمة الخطيب أن يقنع الجماعة إقناعا شعوريا ، ليوقظ عزائمهم ، ويحفزهم إلى العمل .

ولذا يعجب المثقف إذا ما قرأ بعض الخطب التى هاجت الجموع فلم يجد فيها تدليلا صحيحا ، وكأنه نسى أنها فقدت مؤثراتها الأخرى من صوت وإشارة ووقفة وإلقاء ونفوذ للخطيب ، وأنها صيغت لتخلب جماعة لا لتحاجَّ عالما .

والحكم الغالب أن الخطباء الناجحين هم الذين يتجهون إلى المشاعر يثيرونها ، لا إلى العقول يوقظونها ، أما المَناطقة الذين ألفوا الاقتناع بالأدلة المتسلسلة الدامغة فإنهم يتوخون هذه الطريقة نفسها فى خطبهم ، فلا يظفرون بتأييد الجماعة ولا إعجابها .

قال بعض هؤلاء المناطقة : « إن للقياس المنطقى نتيجة لازمة لا تتخلف عنه ، وهذا اللزوم يقتضى التسليم حتى من المادة لو أن فيها قدرة على أن تتمثل النظائر » .

وهذا مسلّم به « غير أنه لا فرق بين الجماعة والمادة فى عدم إدراك النظائر ، بل فى عدم القدوة على سماعها ، ومن لم يصدق فليجرب إقناع الهمجى أو المتوحش أو الصبى بالحجة العقلية والدليل المنطقى ، لأنه سيقتنع بضعف تأثير هذه الطريقة فى إقناعهم »[٤] .

وقد قدر أرسطو أن الأدلة العلمية اليقينية لا تجدى فى إقناع الجماهير ، لأنه ليس من السهل أن نقنع غمرة من الناس متوسلين بالعلم ، حتى لو اعتمدنا على

---

(٣) روح الاجتماع ٧٨

(٤) روح الاجتماع ١٤٤ .

أدق العلوم ، لأن القول العلمى مستمد من النظر ، وهو أمر يصعب تحقيقه[٥] .

ويروى جوستاف لوبون حادثة طريفة تؤيد أن الجماعة ضعيفة التفكير ، مخطئة القياس ، ملخصها أنه رأى وقت حصار باريس جمهوراً يسوق قائداً عظيما من قواد الجيش إلى مقر الحكومة ، والناس حوله أكداس يزمجرون ويتميزون من الغيظ ، ويتهمونه بأنه باع للبروسيين رسم معقل فرنسى . فلما وصلوا إلى قصر اللوفر خرج أحد أعضاء الحكومة – وكان خطيباً ذائع الصيت – ليخطب فى هذا الجمع الهائج المطالب بإعدام القائد الخائن ، وكان المنتظر منه أن يبرهن على بطلان الاتهام بقوله : إن القائد المتهم أحد المهندسين الذين أقاموا الحصون ، وإن رسومها تباع فى باريس فى المكتبات ، غير أن جوستاف لوبون بُهِتَ إذ سمعه يقول : « سيقتص منه العدل قصاصاً لارحمة فيه ، فاتركوا حكومة الدفاع تتم التحقيق الذى بدأتموه ، وستزجه فى السجن حتى حين » .

فسكنت الثورة ، وتفرق الجمع ، وبعد ربع ساعة كان القائد فى بيته .

ولو أن الخطيب دافع عن القائد المتهم بأدلة منطقية لمزقه الجمع إربا[٦] .

على أن مهمة الخطيب الأولى ليست نقلَ الأفكار إلى سامعيه ، وبيان ما يجب عليهم عمله ، لأن المستمعين كثيراً ما يعرفون الخير ، لكنهم لا يجدون العزيمة إلى العمل ، متأثرين بمنافعهم الخاصة ، أو بالإحجام عن بذل الجهد ، فإذا ما اعتمد الخطيب على الإقناع القلبى استطاع أن يوقظ العزائم ، واستطاع أن يسيطر على المشاعر .

ولكنه لن يستطيع شيئاً من ذلك إلا إذا كان هو نفسه متأثراً ، لأن تأثره يغذى سامعيه ، لهذا كان الشاعر هوراس يقول : إذا أردت منى أن أبكى فعليك أن تبكى أولا .

ومن الشطط أن نكلف الخطيب أن يقنع أى جمع ، لأن تعنت الجمع قد

---

(٥) الخطابة لأرسطو ٩٥/١

(٦) روح الاجتماع ١٤٢ .

يحول بين الخطيب وإقناعه ، ويحسب الخطيب أنه كشف عن الأمور المقنعة ، وإن لم يقع بها إقناع ، « وحاله فى هذا كالحال فى بقية الفنون ، فالطب ليست مهمته أن يمنح الصحة حتماً ، ولكنه يتوخى هذا الغرض بقدر المستطاع[٧] » .

ومن الجائز أن يبرأ المريض بعناية من غير طبيب ، كما أنه من الجائز أن يقتنع إنسان أو جمع بكلام من غير خطيب .

كما أنه من الخطأ أن يلتزم الخطيب حدود القياس المنطق التزاماً حرفياً ، لأن الجمهور المستمع يغلب عليه ألا يكون ذا حظ كبير من الثقافة ، فمن الصعب عليه أن يتابع الأقيسة المنطقية الجافة .

لهذا يقول أرسطو : « وذلك هو السبب فى أن الخطباء غير المثقفين أقدر على إقناع الجمهور من الخطباء المثقفين . فالأولون أبرع فى فن القول لأنهم يصوغون الأفكار العامة المشتركة من معارفهم ، فتكون قريبة إلى الجمهور » .

ولكن ليس معنى هذا أن نلغى التدليل المنطق من الخطابة ، وإلا كانت لونا من الدجل ، لهذا قلت : إن التدليل المنطق لا جدوى منه فى أكثر الخطب .

وذلك أن الخطب القضائية فى أمور مدنية ، وخطب المناظرات والجدل ، والخطب العلمية والاجتماعية ، يلائمها التدليل العقلى والحجج المنطقية .

أما خطب الحرب ، وبعض الخطب السياسية والدينية والقضائية والحفلية ، فيناسبها العزف على أوتار العاطفة .

ومعنى هذا أنه من الخطأ التزام طريقة واحدة فى الخطب كلها .

وقد عرف تاريخ الخطابة رجالا اعتمدوا على التدليل العقلى الصرف ، وانتصروا ، مثل روبسبير ، ورجالا اعتمدوا على إثارة العواطف واستمالة النفوس ، وظفروا ، مثل غامبتا الخطيب الفرنسى الكبير ، ومثل عبد الله النديم وسعد زغلول ، وآخرين مزجوا العقل بالعاطفة ، مثل ميرابو ومصطفى كامل وسعد زغلول وجمال عبد الناصر .

---

(٧) الخطابة لأرسطو ١ /٩٧ .

أمثلة للتدليل :

١ – من خطبة مصطفى كامل بالإسكندرية فى جمهور من المصريين والأجانب[٨] :

« إن أعداء مصر يريدون أن يمثلونا بقوم متوحشين مستعدين لإفناء كل أوروبى فى بلادنا ، متى رحلت العساكر الإنجليزية عنا .

أيتجاسرون على أن يقولوا أمامكم هذه الأقوال يا أوفى أصدقاء مصر وأعز ضيوفها ؟

كيف يستطيعون أن يغشوكم بدناءة كهذه عن صفات أمة قابلتكم بأوسع كرم وسخاء ؟

إن القول بتعصبنا إنما هو أدنأ أكذوبة .

أما ترون بأنفسكم أن كثيراً من الأوروبيين يعيشون بأعظم سكينة فى القرى مختلطين بالفلاحين ، أى بأكثر الناس تمسكا بالدين ؟ وبعضهم يتاجرون فى الخمور ، ويقرضون بالربا ، وهما محرمان فى الإسلام ؟

هل احتجتم مرة إلى حماية عسكرى إنجليزى من اعتداء مصرى ؟

هل يستطيع خصومنا أن يثبتوا أن جيش الاحتلال يحميكم منا ؟ » .

فهو هنا يعتمد على خبرة المخاطبين وشهادتهم فى تكذيب دعوى الإنجليز .

٢ – رد محمد فريد على الذين يزعمون أن العالم يجب أن يكون بعيداً عن السياسة ، قاصدين تنحية المثقفين عن العمل الوطنى ، فقال[٩] :

« يقولون إن السياسة والعلم لا يجتمعان ، وإن السياسة يجب أن تحرم على رجال العلم ، وهو قول لا يصدر عن عاقل يعرف للوطنية اسما .

تعرفون (باستور) العالم الفرنسى الذى كشف عن مكروب الكَلَب ، وابتكر

(٨) مصطفى كامل للرافعى ٤٤٢ .

(٩) محمد فريد الرافعى ٧٥ .

علاجه ...وأهدى إليه الملوك أكبر أوسمتهم لقد رفض وسام امبراطور ألمانيا ، لأنه عدو بلاده ، وقاهر أمته ، فكتب إليه الإمبراطور إنه أهدى إليه الوسام بصفته عالما ، والعلم لا وطن له ، فأجابه بقوله : نعم إن العلم لا وطن له ، ولكن للعالم وطنا » .

وهو بهذا يرد على الذين يريدون تنحية المثقفين عن السياسة بمثال معروف ، هو أن العالم الفرنسى باستور رفض وسام إمبراطور ألمانيا ، لأنها عدو بلاده .

٣ – قال محمد فريد فى خطبة بلندن سنة ١٩١٠ [١٠] فى التدليل على بطلان اتفاقية ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ التى خولت بها انجلترا لنفسها أن تشارك مصر فى السودان .

« إنكم تعلمون جميعا أن هذه المعاهدة باطلة ، ولا قيمة لها فى نظر القانون الدولى :

فهى موقع عليها من ممثل للخديوى الذى ليس له نفسه حق التنازل عن قطعة من الأرض التى عهدت إليه .

وهى باطلة أيضا ، لأنها تمت بين طرفين يزعم أحدهما أنه الوصى على الآخر ، فقيمتها لا تفترق عن قيمة عقد عقده وصى لسلب جزء من أملاك القاصر الذى يتولى الوصاية عليه » .

وفى هذا الرد اعتماد على بطلان الاتفاقية ، بأنها كانت بين من لا يملك أن يتنازل ، وبين من لا يملك أن يقبل التنازل ، وكانت بين طرفين أحدهما غاصب لحقوق مصر ، ويزعم أنه وصى عليها ، والآخر تابع له ، وخاضع لما يريد .

(١٠) محمد فريد للرافعى ١٨٢

٤ – التفنيد

هو مناقشة آراء الخصم وأدلته لإبطالها ، سواء أكان التفنيد للآراء العامة التى دعا الخصم إليها ، أم للنتائج التى استنبطها .

وكثيراً ما يضطر الخطيب إلى تفنيد ما قاله خصمه ، ليمحو من النفوس أثره ، وقد يسبق خصمه إلى تفنيد آرائه التى يتوقعها ليسد عليه المسالك .

وقد يتجاهل الخطيب حجج خصمه فلا ينقضها ، لأنه غير مكترث بها ، أو لأن خطبته نفسها ستبطلها وتمحو أثرها .

وسائله :

١ – المغالطة ، وهى عند المناطقة صناعة يعرف بها القياس الفاسد ، إما من جهة الصورة ، وإما من جهة المادة ، وإما من جهتها معاً[1] .

وأسباب الغلط على كثرتها ترجع إلى أمر واحد ، وهو عدم التمييز بين الشئ وأشباهه . وتنقسم إلى ما يتعلق بالألفاظ بأن تكون مختلفة الدلالة فيقع الاشتباه بين المراد وغير المراد ، وهنا يدخل الاشتراك والتشابه والمجاز ، وإلى ما يتعلق بالمعانى وتأليف القياس كعدم مقدماته ، أو تكون مغايرة لإحدى المقدمتين ، كقول علىّ يرد على معاوية وكان قد نسب إليه أشياء :

« وزعمت أنى لكل الخلفاء حسدت ، وعلى كلهم بغيت ، فإن يكن ذلك كذلك فليس الجناية عليك فيكون العذر إليك ، وتلك شكاة ظاهر عنك عارُها . وقلت إنى أُقادُ كما يُقَاد الجمل المخشُوش[2] حتى أبايع ، ولعمر الله لقد أردت أن تَذُم فمدحت ، وأن تفْضح فافتضحت ، وما على المسلم من غضاضة أن يكون مظلوما ما لم يكن شاكا فى دينه ، ولا مرتاباً بيقينه ، وهذه حجتى ، إلى غيرك قَصْدُها ، ولكنى أطلقت لك منها بقدر ما سنح من ذكرها .

(١) اصطلاحات الفنون للتهانوى .

(٢) الجمل المخشوش : الذى فى عظم أنفه حبل يقاد به .

ثم ذكرت ما كان من أمري وأمر عثمان ، فلك أن تجاب عن هذه لرَحِمِك منه . فأيُّنا كان أعدى له وأهدي إلى مقاتِله ؟ أمَنْ بذل له نصرته فاستقعده واستكفه ؟ أم من استنصره فتراخى عنه وبثَّ المنونَ إليه حتى أتى قَدَرُهُ عليه ؟ كلا والله ، لقد علم المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا . . . » .

فهو هنا يعترف لمعاوية جَدَلا بأنه حسد الخلفاء ، ولكن لا صلة لمعاوية بهذا حتى يعتذر إليه ، ويعترف له جَدَلا بأنه يُقاد ، ولكن لا عيب فى القيادة ما دام صحيح الدين .

وإليك مثلا آخر من خطبة أبى حمزة الشارى لما بلغه أن أهل المدينة يعيبون أصحابه بحداثة أسنانهم ، وخفة أحلامهم : « قلتم هم شباب أحداث ، وأعراب جفاة ، ويحكم يا أهل المدينة ، وهل كان أصحاب رسول الله ﷺ وآله المذكورون فى الخير إلا شباباً أحداثا ؟ . . . شباب والله مكتهلون فى شبابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء عبادة ، وأطلاح سهر ، باعوا أنفساً تموت غداً بأنفس لا تموت أبداً[٢] . . . » .

فهو يعترف بدعوى خصومه أن حزبه من الشباب ، ويخالفهم فى النتيجة ، إذ يصف هؤلاء الشباب بالحصافة والشجاعة والتقوى . . .

٢ – الإنكار ، فلا يسلم للخصم بما ادعاه ، معتمداً فى إنكاره على حجة ملزمة ، ومن ذلك خطبة معاوية بالمدينة عام الجماعة ، إذ تلقاه رجال من قريش فقالوا : الحمد لله الذى أعزَّ نصْرَك ، وأعْلىَ كعْبَك . فما رَدَّ عليهم شيئاً حتى صعد المنبر فحمد لله وأثنى عليه ، ثم قال : « أما بعد فإنى والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم ، ولا مسرة بولايتى ، ولكنى جالدتكم بسيفى هذا مجالدة[٣] . . . » .

---

(٢) البيان والتبيين ٢/ ١٠٣ وشرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ١/ ٤٥٨

(٣) العقد الفريد ١٣٩/٢ .

فهو يوافقهم على أن الله أعز نصره ، وأعلى كعبه ، ويخالفهم فى طريقة توليه . هم يدعون أن لمحبتهم ضلعا فيها وهو ينكر عليهم ذلك ، وحجته أنهم كانوا من أنصار على .

ومثلى قول مصطفى كامل فى الرد على دعوى الإنجليز أنهم أصدقاء مصر :

« ماذا يريد منا الإنجليز؟

أيريدون أن نسمى سيئاتهم حسنات ، ونصفق لضياع حقوقنا ، واستيلائهم على بلادنا ، وتجريدهم إيانا من كل سلطة ونفوذ؟

من من المصريين يذكر السودان ، ويشكر المحتلين الذين أنكروا حقوقنا فيه بعد أن أروينا أرضه بدمائنا ، وأنفقنا عليه الأموال الطائلة؟

أى مصرى يرضى عن قوم لا يعرفون العدل والإنصاف والمساواة؟

كيف يطالب المصريون بأن يحسنوا الظن بالمحتلين ، وهم الذين يدعوننا كل يوم إلى إساءة الظن بهم؟

كيف يصدق المصريون أن الإنجليز حقيقة يريدون لهم الرقى والتقدم ، وهذا (دنلوب) يأمر مديرى المدارس العليا بالطعن الصريح فى كفاية كل مصرى؟

وإذا تركنا دنلوب وارتقينا إلى رؤسائه وجدنا سياستهم قائمة على تجريد المصريين من كل سلطة ، وإبعادهم عن كل منصب ذى عمل ، والاستعانة بالضعفاء والمارقين منهم على تمثيل مصر فى المناصب التى يشغلونها بأسوأ صورة .

فهل بعد هذا يطلب من المصريين أن يحسنوا الظن بالإنجليز؟

وهل هناك عداء صريح من قوم لآخرين أكبر من هذا العداء؟

أليست دنشواى وحدها كافية لأن تثبت على مدى الدهور والأجيال أن الإنجليز أهانوا المصريين إهانة قاسية لا تنسى أبدا[٤] ؟ » .

---

(٤) مصطفى كامل للرافعى ٤٢٨ .

فقد عدد فى هذه الخطبة بعض مساوئ الإنجليز لينتهى إلى نتيجة عامة هى أنهم أعداء مصر لا أصدقاؤها كما يزعمون .

وأنكر على الإنجليز ادعاءهم أنهم أصدقاء مصر ، بالكشف عن بعض مخازى أعمالهم وعدوانهم على حقوق مصر .

٣ – الموافقة ، فيقر الخطيب بما ذكره خصمه من واقع ، ولكن يخالفه فى تكييفه ، فمثلا يعترف المحامى بأن موكله قد قَتَل كما قررت النيابة ، ولكنه يخالفها فى تكييف القضية ونوع العقوبة ، كأن تطلب النيابة الإعدام ويطلب المحامى السجن أو البراءة . . . وقد سبق دفاع لاشو المحامى الفرنسى فى قضية قتل ، ودفاع أحمد لطفى فى قضية الوردانى .

٤ – الاستدراك ، فيقابل اعتراضات الخصم باعتراضات مثلها توهنها ، أو يقابل قياسه بقياس آخر ينقضه .

كقول أبى حمزة الخارجى فى دفاعه عن حداثة أصحابه : « يا أهل المدينة بلغنى أنكم تنتقصون أصحابى ، قلتم هم شباب أحداث ، وأعراب جفاة ، ويحكم يا أهل المدينة ، وهل كان أصحاب رسول الله صلى عليه وسلم ، وآلهُ المذكورون فى الخير إلا شباباً أحداثاً ؟ » .

فإذا كان أهل المدينة يعيبون أتباع أبى حمزة بصغر أسنانهم فإن كثيراً من أصحاب الرسول كانوا أحداثاً ، وهذا اعتراض يدفع اعتراضهم .

ومثل قول مصطفى كامل فى إحدى خطبه يرد على ادعاء الإنجليز أن تعليم الدين الإسلامى تعصب :

« قال أعداؤنا إننا نخلط الإسلام بالوطنية ، ونتكلم دائما عن المسلمين ، ونطالب بإدخال الدين فى التعليم ، وفسروا ذلك بأنه تعصب ذميم

فكيف لا تكون انجلترا وألمانيا متعصبتين ، وهما الدولتان المتمسكتان بالتعليم الدينى فى مدارسها ، ونتهم نحن بالتعصب الدينى ؟

لماذا يكون الإنجليزى وطنياً وبروتستانتياً فى آن واحد ، ولا يكون المصرى المسلم وطنياً ومسلما ؟

ألا تكون الوطنية صحيحة سليمة إلا إذا قضت على الدين ومحته ؟

إن الحقيقة التى لا ريب فيها أن الوطنية والدين يتفقان ، بل قد يكونان متلازمين .

على أن بث الحقيقة الإسلامية بين المسلمين من أكبر الأسباب الموجدة للتسامح والتقرب من الشعوب الأخرى ، إذ لا تعصب مع علم ، ولا نفرة مع نور ورشاد ، فمن منفعة العناصر كلها أن يعرف المسلمون دينهم على حقيقته ، وأن تزول أوباء الجهالات والخرافات من بينهم »[٥]

فهو يقابل ادعاءهم بما ينقضه ، لأنهم يستمسكون بدينهم وبوطنيتهم ولا يسمون هذا تعصباً .

٥ – رد الحجة على الخصم ، فيبين الخطيب أن حجة خصمه عليه لا له مثل قول أبى حمزة الشارى فى خطبته السابقة : « شباب والله مكتهلون فى شبابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم . أنضاء[٦] عبادة ، وأطلاح[٧] سهر ، باعو أنفساً تموت غداً بأنفس لا تموت أبداً ، قد نظر الله إليهم فى جوف الليل ، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً إليها ، وإذا مر بآيه من ذكر النار شَهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه . قد أكلت الأرض رُكبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم ، وَوَصَلوا كلال الليل بكلال النهار . . . . » فهم يعيبون أصحابه بالحداثة ، وهو يفتخر بحداثتهم ، ويمدح أخلاقهم التى يتحلون بها وهم أحداث .

وعلى الخطيب فى تفنيده أن يكون مهذب التعبير لا يلمز ولا يعيب ، وألا يشعر رده أنه غافل عن حجة خصمه ، وألا يكون تفنيده واهياً ؛ لأن ضعفه يقوي حجة الخصم .

---

(٥) مصطفى كامل للرافعى ٥٩٧ .

(٦) مهزولون من التعبد .　　　(٧) ضعاف من السهر للعبادة .

٥ – الخاتمة

أهميتها :

هى آخر ما يبقى فى آذان السامعين وأذهانهم من الخطبة ، وبعدها يجنى الخطيب الثمرة المرتجاة ، فتصدر المحكمة بالبراءة أو الإدانة ، ويصوت البرلمان مع الحكومة أو ضدها ، ويخشع السامعون لخطبة الوعظ ويتقون ، أو لا يتأثرون ، ويشارك السامعون الخطيب شعوره نحو المحتفل به أو لا يشاركون . وفى الخاتمة يتجلى نجاح الخطيب فى لعبه بعواطف الجمهور واستمالته .

أنواعها :

وللخطيب أن يلخص فى خاتمه الأفكار والعناصر البارزة من خطبته ، وله أن يستثير السامعين ويهيجهم ، ويلهب مشاعرهم ، وقد يجمع بين الطريقتين .

شروط جودتها :

١ – فإن لخَّص فَلْيَكْتَفِ بذكر أهم ما جاء بخطابه ، وليعبر بأساليب مغايرة لتعبيراته الأولى ، لأنه إن كرر المعانى بالأساليب نفسها أضجر السامعين .

وإن هاج المشاعر وجب أن يكون عليما بنفسية الجمع ووسائل استمالته ، ليسلك الطريق الملائم لإثارته ، أيلجأ إلى التحذير والترهيب أم إلى الوعد والترغيب ؟ أيتسلل إلى القلوب بآمال يبثها أم بمخاوف يهوِّل بها ؟

٢ – أن تكون قوية العبارة لتهز المشاعر .

٣ – أن تكون قصيرة ، لأن قصرها يكسبها روعة ، وخير للخطيب أن ينتهى والجمع فى حماسة وميل إلى الاستزادة من أن ينتهى والناس فى ملل وسآمة .

أمثلة :

١ – من أمثلة الختام المحقق للهدف من الخطبة قول زياد فى ختام خطبته بالبصرة : « وإذا رأيتمونى أنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على إذلاله . وأيم الله إن لى فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل منكم أن يكون من صرعاى » .

٢ – ومن أمثلة الختام أيضاً قول مكرم عبيد فى ختام تأبينه لسعد زغلول :

« أيها السادة إن وطنيتكم ، بل ورجولتكم فى ميزان القدر ، لقد مات سعد ، فهل مات رجل فى الأمة أم ماتت الأمة فى رجل ؟ وهل أصبحتم بعد موته حَيارى فرادى ، لا يستقر لكم أمر ، ولا يجمعكم شمل ؟ وهل بلغت نكبتكم فى سعد مبلغاً نُكِبتم معه فى أنفسكم ؟ وهل كنتم به عظماء أم كان عظيما بكم ؟

تلك أسئلة يرددها خصومكم بل وأصدقاؤكم ، وينصت التاريخ ليسمع بشأنها جوابكم . ولقد أجبتم إجابة الأنفة والكبرياء بلسان وفدكم ، فكانت إجابته حازمة بجدكم ،رصينة بحكمتكم ، مطمئنة بثباتكم ، فإلى العمل ، إلى العمل ، ولتكن حماستكم عملا لا كلاما ، وليكن شعاركم سلاما لااستسلاما .

مات سعد فعزاء لك يا سيدتى (مخاطباً حرم الرئيس) فقد عوضك الله عن زوجك بأولادك ، وعزاء لك أيتها الأمة الكريمة ، فإن نهضتك التى سرى إليها ماء الحياة من عروق الصغار من شهدائك لن تزداد إلا حياة فى موت شهيد ، وهو أعظم الشهداء فخراً ، وأصفاهم طهراً وأكبرهم أجراً .

سلام على سعد فى قبره ، سلام عليه فى ذكره ، سلام عليه فى شريكته سلام عليه فى خليفته ، سلام عليه فى أمته[1] » .

٣ – وقال ثروت فى ختام تأبينه لسعد : « إن حزننا على فقيدنا عظيم ، ولكن يجب ألا يكون عقيما ،وخير مايلد هذا الحزن حسن التأسى ،فلنتأس بسعد فى

---

(١) عبرات الشرق على الزعيم سعد زغلوم ٢٩١

جهاده للحق ، وصبره على المكاره ودعوته إلى ضم الصفوف ، وإيثار المصلحة العامة .

وإنى لا علم أنى لا أنبه غافلا ، ولا أوقظ نائماً ، فإن سيرتكم منذ مات سعد ناطقه بأن روحه لا تزال معكم . ولاشك أنكم لن تزالوا سالكى هذا الطريق فى توفيق من الله وتأييد ، وأوقن أنه ليس شىء أحب إلى سعد فى قبره من أن تثابروا على المضى فى هذا الطريق الحكيم حتى تبلغ غايتنا جميعاً[2] » .

(٢) عبرات الشرق ٢٧١ .

الفصل السادس

الأسلوب الخطابى

أسلوب الخطبة وأسلوب المقال :

يتدرج العمل الفنى فى ثلاثة أدوار : الإيجاد ، والتنسيق ، والتعبير . والمراد بالإيجاد التفكير لاستنباط المعانى .

والمراد بالتنسيق تنظيم المعانى وترتيبها .

أما التعبير فهو إبراز هذه المعانى بأسلوب ملائم لها ، وللسامعين ، وللمتكلم .

١ – ملائم لها ، لأن الموضوعات تختلف ، فالخطبة الحربية تلائمها الكلمات القوية الحماسية ، والصور الخيالية ، والخطبة القضائية يوائمها الأسلوب المتزن ، وخطبة التأبين يشاكلها الأسلوب المتفجع وهكذا .

٢ – وملائم للسامعين ، فيتأنق الخطيب فى خطبته للخاصة ، ويَعْدِلُ إلى السذاجة مع العامة ، ويطنب فى الجمع المستكثر المستزيد ، ويوجز فى الجمع المؤْثِر للإقلال ، وهكذا .

٢ – وملائم لحال الخطيب نفسه من بهجه أو أسى ، ومن غضب أو رضا ، ومن انتقام أو رحمة الخ .

والكتابة والخطابة تشتركان فى الإجادة والتنسيق ، ولكنهما تختلفان فى التعبير ، لأن تعبير الخطيب خاضع لذوقه ، وما يدعو إليه المقام من تقصير الجمل أو تطويلها ، ومن تكرار أوإيماء ، وانتقاء للألفاظ الموسيقية الخفيفة على السمع ، أو التحليق فى سماء الخيال حيناً ، وإيثار النكتة حيناً آخر ، مع الإشارة والحركة ونبرات الصوت ونفوذ الخطيب وغيرها مما يتطلبه فن الخطابة ، ثم لابد فى أسلوب الخطبة من الوضوح والسهولة .

أما تعبير الكاتب ففيه تروٍّ وتأنق وتصعيب أحياناً ، لأن للقراء فسحة من الوقت يفكرون فيها فى معنى ما استغلق ، ويكررون تلاوته .

فلا ضير أن يُصَعِّب الكاتب ويُعَلل ويُحلل ، أما الخطيب فإنه يقذف بكلماته فيتلقاها الجمع فى سرعة لا تُيسِّر له مراجعتها أو التوقف لتفهمها ؛ لأنه مضطر إلى متابعة الخطيب وتلقف ما يقول ، فإذا توقف للتفهم انقطعت صلته بالخطيب . فضاعت قيمة الخطبة .

وكثيراً ما ينزل التعبير الخطابى عن مكانة التعبير الكتابى فى جودة المبنى ودقة المعنى ، ولكنه يستعيض عن هذا النزول مؤثرات أُخَر من فصاحة النطق ، وجهارة الصوت ، وإجادة الأداء ، وروعة الموقف .

ولهذا فإن بعض الخطب مسموعة ذات أثر قوى عميق فى نفوس سامعيها ولكنها مقروءة لاشىء من الامتياز فيها .

والكلمات هى اللَّبِنات التى يبنى منها الأديب عمله الفنى ، فهى كالدِّهان فى فِرْجَوْن الرسام ، واللآلىء فى أنامل اللآل ، والأحجار فى يد البنَّاء ، والصخور فى محفِر النحَّات ، والألحان فى بنان الموسيقار .

والأديب يستطيع بمواهبه وسعة حيلته أن يصنع منها صوراً عدة تمثل العواطف المختلفة تمثيلا كاملا ، وذلك برصفها وتأليفها فى أسلوب خاص ، فإن المفردات التى لا ينتظمها أسلوب لا أثر لها فى النفس ، وإنما يبين أثرها إذا ماصِيغتْ لتصور عاطفة أو تعبر عن فكرة .

فمثلا بعض الألفاظ فخم رائع يمثل الأنفة والكبرياء مثل : الشمم والإباء والعزة . . ، وبعضها ذو دوى يمثل قصف الرعد وهزيم الريح وزحف الجند مثل : الهجوم ، والغضب ، والانتقام . . ، وبعضها دمِث ليِّن يمثل الأحلام والنسيم العليل والمناجاة مثل : الرضا ، والصفح والرحمة . . . ، وبعضها قارص لاذع ، وبعضها مستعطف آسر ، وبعضها يتقد حماسة وهكذا .

والخطيب – والأديب عامة – يتخير الألفاظ المعبرة عن عاطفته ، وينتظمها في نسق ملائم للمقام ، قال الجاحظ في قوله تعالى : « وقيل يا أرض ابلعي ماءك ، ويا سماء أقلعي ، وغيض الماء ، وقضي الأمر ، واستوت على الجوديّ ، وقيل بُعْداً للقوم الظالمين » . إنه اشتمل على الحسن والطلاوة ، والرونق والمائية التي لا يقدر البشر على الإتيان بمثلها ، ولا يستطيع أفصح الناس مضاهاتها ، على أن ألفاظها المفردة كثيرة الاستعمال ، دائرة على الألسنة ، فقوة التركيب وحسن السبك هو الذي ظهر فيه الإعجاز »

قيمة الاسلوب :

ليست البلاغة أن تُفْهِم المعنى فحسب ، وإلا لتساوت الركاكة والتعبير والإشارة ، والجيد والرديء ، والعامي والفصيح ، وإنما البلاغة رتبة فوق إفهام المعنى ، رتبة سمكها الامتياز في التعبير ، ومطابقته للحال . وأن يضفي الخطيب من أسلوبه على معانيه حلة من نور ؛ ليتسنى للسامعين أن يتملوا معه جمال رُؤاه ، وبراعة خياله ، وأن يُهدهد قلوبهم ، أو يرج عواطفهم بعبارات موسيقية تخدر فيهم حاسة النقد ، وتسكرهم ، ثم تأتي كلمة فاصلة منتظمة مدعومة أحياناً بنبرة في الصوت أو ضربة على المنبر ، فتوقظ تلك النفوس من غيبوبتها . قال الجاحظ : « ومتى شاكل – أبقاك الله – ذلك اللفظُ معناه ، وأعرب عن فحواه ، وكان لتلك الحال وفقاً ، ولذلك القَدْرِ لِفْقا ، وخرج من سماجة الاستكراه ، وسلم من فساد التكلف ، كان قميناً بحسن الموقع ، وبانتفاع المستمع ، وأجدر أن يمنع جانبه من تناول الطاعنين ، ويحمى عرضه من اعتراض العيَّابين ، وألا تزال القلوب به معمورة والصدور مأهولة . ومتى كان اللفظ أيضاً كريماً في نفسه ، متخيراً من جنسه ، وكان سليما من الفضول ، بريئاً من التعقيد ، حبِّبَ إلى النفوس ، واتصل بالأذهان ، والتحم بالعقول ، وهشت إليه الأسماع ، وارتاحت له القلوب ، وخف على ألسن الرواة ، وشاع في الآفاق ذكره ، وعظم في الناس خطره ، وصار ذلك مادة للعالم الرئيس ، ورياضة للمتعلم الرَّيِّض .

فإن أراد صاحب الكلام صلاح شأن العامة ومصلحة حال الخاصة وكان يعم ولا يخص ، وينصح ولا يغش ، وكان مشغوفا بأهل الجماعة ، شَنِفاً[1] لأهل الاختلاف والفرقة جمعت له الحظوظ من أقطارها ، وسيقت إليه القلوب بأزمّتها ، وجُمِعت النفوس المختلفة الأهواء على محبته ، وجُبلت على تصويب إرادته ، ومن أعاره الله من معونته نصيبا ، وأفرغ عليه من محبته ذَنُوباً[2] جُلِبَتْ إليه المعانى وسلسَ له نظامُ اللفظ ، فكان قد أغنى المستمع من كد التكلف ، وأراح قارىء الكتاب من علاج التفهم .

ولم أجد فى خطب السلف الطيب والأعراب الأقحاح ألفاظاً مسخوطة ، ولا معانى مدخولة ، ولا طبعاً رَدِيًّا ، ولا قولا مُسْتكرها ، وأكثر ما نجد ذلك فى خطب المولدين البلديين المتكلفين ومن أهل الصنعة المتأدبن ، وسواء كان ذلك منهم على جهة الارتجال والاقتضاب أو كان من نتاج التحبير والتفكير[3] » .

فالجاحظ يدعو إلى مشاكلة اللفظ للمعنى وللموضوع وللمقام ، وإلى بعده من التكلف ، وإلى تخيره لتتقبله النفوس ، وليسلم من المذمة .

وليس الأسلوب الفنى هو التعبير الصحيح عن الفكرة ، فإن قولنا (القاهرة عاصمة مصر) و(العشرة عُشْر المئة) و(الضوء أسرع من الصوت)و (مجموع زوايا المثلث يساوى قائمتين) . . . . تعابير صحيحة عن الفكرة ، ولكنها ليست أساليب أدبية ، إنما الأسلوب الأدبى هو التعبير الصحيح عن فكرة تدفعها عاطفة ، فيه شخصية الأديب وخصائصه ، وهذا ما حدا ببعض النقاد إلى أن يقولوا : الأسلوب هو الأديب أو الأسلوب هو الرجل نفسه .

بين اللفظ والمعنى :

لكن النقاد قد اختلفوا منذ زمن بعيد فى الأصل الذى يرجع إليه جمال الأدب وجلاله ، أهو الأسلوب أم المعنى أم هما معا ؟

(١) شنفاً : مبغضا .

(٢) الذنوب : الدلو الملأى .

(٣) البيان والتبيين ٢/٧ .

وانقسموا إلى فرق ثلاث :

١ – انتصر فريق للألفاظ والأساليب ، وردوا إليها البلاغة ، وذهب بعضهم إلى أن المعانى شائعة مباحة لجميع الناس ، فلا شأن لها فى البلاغة ، بل الشأن فى العبارة .

وممن ذهب هذا المذهب أبو هلال العسكرى فى قوله : « وليس الشأن فى إيراد المعانى ، لأن المعانى يعرفها العربى والعجمى ، والقروى والبدوى ، وإنما هو فى جودة اللفظ وصفائه ، وحسنه وبهائه ، ونزاهته ونقائه ، وكثرة طلاوته ومائه ، مع صحة السبك والتركيب ، والخلو من أَوَد النظم والتأليف ، وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صواباً . . . ومن الدليل على أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ ، أن الخطب الرائعة والأشعار الرائقة ما عملت لإفهام المعانى فقط ، لأن الردىء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها فى الإفهام ، وإنما يدل حسن الكلام وإحكام صنعته ، ورونق ألفاظه ، وجودة مطالعه ، وحسن مقاطعه ، وبديع مباديه ، وغريب معانيه ، على فضل قائله وفهم منشيه .

وأكثر هذه الأوصاف ترجع إلى الألفاظ دون المعانى ، ولهذا تأنق الكاتب فى الرسالة ، والخطيب فى الخطبة والشاعر فى القصيدة ، يبالغون فى تجويدها . ويغلون فى ترتيبها ، ليدلوا على براعتهم ، وحذقهم ببضاعتهم ، ولو كان الأمر فى المعانى لطرحوا أكثر ذلك ، فربحوا كداً كثيرا ، وأسقطوا عن أنفسهم تعباً طويلا .

ودليل آخر أن الكلام إن كان لفظه حلواً عذباً وسلساً سهلا ومعناه وسطاً دخل فى جملة الجيد ، وجرى مع الرائع النادر ، كقول الشاعر :

ولما قضينا من مِنىً كلَّ حاجة ومَسَّحَ بالأركان من هو ماسحُ
وشُدَّت على حُدْبِ المهارِى رحالنا ولم يَنْظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالَتْ بأعناق المطىِّ الأباطح

وليس تحت هذه الألفاظ كبير معنى ، وهى رائعة معجبة ، وإنما هى ولما

قضينا الحج ، ومسحنا الأركان ، وشدت رحالنا على مهازيل الإبل ، ولم ينتظر بعضنا بعضاً جعلنا نتحدث ، وتسير بنا الإبل فى بطون الأودية[٤] .

وتبعه ابن رشيق فنقل فى كتابه العمدة : « وأكثر الناس على تفضيل اللفظ على المعنى ، سمعت بعض الحذاق يقول : قال العلماء : اللفظ أغلى من المعنى ثمنا ، وأعظم قيمة ، وأعز مطلبا ، فإن المعانى موجودة فى طباع الناس يستوى الجاهل فيها والحاذق ، ولكن العمل على جودة الألفاظ ، وحسن السبك ، وصحة التأليف . ألا ترى لو أن رجلا أراد فى المدح تشبيه رجل لما أخطأ أن يشبه فى الجود بالغيث والبحر ، وفى الإقدام بالأسد ، وفى المضاء بالسيف ، وفى العزم بالسيل ، وفى الحسن بالشمس ، فإن لم يحسن تركيب هذه المعانى فى أحسن حلاها من اللفظ الجيد الجامع للرقة والجزالة والعذوبة والطلاوة والسهولة والحلاوة لم يكن للمعنى قدر » .

ونقل ابن رشيق عن عبد الكريم النهشلى — وكان يؤثر اللفظ على المعنى فى شعره وفى تأليفه — أنه قال : الكلام الجزل أغنى عن المعانى اللطيفة من المعانى اللطيفة عن الكلام الجزل[٥] .

واندفع أنصار اللفظ إلى دعوى أخرى مبنية على دعواهم الأولى هى أن الجدير بنسبة المعنى إليه من يحسن التبيين عنه وإن كان قد طرق من قبله ، فقال أبو هلال العسكرى : « ولكن عليهم إذا أخذوها أن يكسوها ألفاظا من عندهم ، ويبرزوها فى معارض من تأليفهم ، فإذا فعلوا ذلك فهم أحق بها ممن سبقهم إليها ... وسمعت ما قيل أن من أخذ معنى بلفظه كان له سارقا ، ومن أخذه ببعض لفظه كان له سالخا ، ومن أخذه فكساه لفظاً من عنده أجود من لفظه كان أولى به ممن تقدمه[٦] » .

---

(٤) كتاب الصناعتين ٥٥ .

(٥) العمدة ٨٢/١ .

(٦) كتاب الصناعتين ١٨٦ .

لم يتجه بعض النقاد العرب إلى هذه الوجهة وحدهم ، فقد شاركهم فيها بعض النقاد الإفرنج ، فمثلا بوفون Buffon الكاتب الفرنسى العالم ألقى خطبة عن الأسلوب فى الأكاديمية الفرنسية يوم انضم إليها عضواً فقرر فيها أن الأفكار شركة مشاعة ، ولكن الأسلوب من الرجل نفسه ، يريد أن الأسلوب هو طابع الكاتب وتوقيعه على الفكرة . ومعنى هذا أن الأفكار – قبل أن يفرغها الفنان فى قالبه الخاص – من الأملاك العامة ، فإذا عرف كيف يصوغها على الصورة الملائمة تصبح ملكا خالصاً له ، تسير فى الناس موسومة باسمه ، وتعيش فى الحياة مقرونة باسمه[٧] .

وعلى هذا الرأى لابربير . لأنه يقول : « إن هوميروس وأفلاطون وفرجيل وهوراس لم يفوقوا غيرهم إلا بعبارتهم وصورهم » .

وشاتوبريان يقول : « لا تحيا الكتابة بغير الأسلوب ، ومن الباطل معارضة هذه الحقيقة ، فإن الكتاب الجامع لأشتات الحكمة يولد ميتاً إذا أعوزه الأسلوب[٨] » .

فهل هؤلاء من عرب وإفرنج على صواب ؟

أرى من التعسف أن يحفلوا بالأسلوب وحده ، لأن تأثرنا بالنص الأدبى لا ينشأ عن الألفاظ أصواتاً مسموعة ، وحروفا مفردة ، وكلمات مجردة ، وإنما يتنشأ عما بين الألفاظ والمعانى من التناسق والملاءمة ، وعن مشاكلة الكلمة لجاراتها ، ومواءمة المعنى لما قبله ولما بعده ، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال التى يقتضيها الموضوع ونفسية القائل والسامع .

وستأتى مناقشة أبى هلال فى استحسانه النص إذا كان لفظه جيداً ومعناه وسطا .

---

(٧) دفاع عن البلاغة للزيات ٦٧ .

(٨) دفاع عن البلاغة ٦٤ .

والدليل على هذا أن الكلمة تروقنا فى موضع وتثقل فى موضع ، فمثلا خطب الإمام على – وقد أغار النعمان بن بشير على عين التمر ، وأمر الإمام الناس أن ينهضوا إليه فتثاقلوا – فقال : : « دعوتكم إلى نصر إخوانكم ، فجرجرتم جرجرة الجمل الأسَرِّ وتثاقلتم تثاقل النِّضْو الأدبر ، ثم خرج إلى منكم جُنَيْد متذائب ضعيف ، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون »[٩] .

فكلمة (جرجرتم) ملائمة تمام الملاءمة للحال التى قيلت فيها ، لأن الجرجرة صوت يردده البعير فى حنجرته ، وأكثر ما يكون ذلك عند التعب والإعياء ، وهم قد تثاقلوا وتضجروا وانتحلوا المعاذير فى أصوات غامضة مبهمة ، فصاروا كالجمال التى تجرجر وهى مصابة بداء السَّرَر .

ولكن الكلمة نفسها ثقيلة فى مثل هذا الوضع : قرأ الإمام فجرجر المصلون وراءه .

وهنا كلمة (جنيد) مشاكلة للحال وحسنة جداً ، لأنها أفادت التقليل والتحقير ، ولكنها تعاب إذا وضعت فى هذا التعبير : تعتمد الأمم فى الدفاع عن استقلالها على جنيدها .

وقد جاء لفظ الأخدع حسن الوضع فى بيت الصِّمة بن عبد الله :

حننتَ إلىَّ ريا ونفسُك باعدَتْ   مَزارك من ريَّا وشعبا كما معا
تلفت نحو الحىِّ حتى وجدتُنى   وَجِعْتُ من الإصغاء لِيتاً وأخْدعا[١٠]

لأنه ملائم لتصوير حركة العاشق الذى يغادر ديار محبوبته ، فلا يفتأ يتلفت نحوها حتى يكل عنقه ويؤلمه .

وجاء اللفظ نفسه جيد الاستعمال فى قول البحترى :

---

(٩) شرح نهج البلاغة ٤٦/١ لابن أبى الحديد ، الجرجرة : صوت البعير . الأسر : المصاب فى زوره . النضو الأدبر : المهزول المصاب بجروح .

(١٠) الليت : صفحة العنق . الأخدع : عرق فى صفحة العنق .

وإنى وإن أبلغتنى شرف الغنى   وأعتقت من رق المطامع أخدعى

لأنه مجاز عن انفكاك الرقبة والتحرر من إسار المطامع .

ولكن الكلمة نفسها وردت معيبة فى تصوير أبى تمام الدهر بأنه إنسان متكبر يصعر خده ، ويلوى عنقه ، والدهر فى صروفه أقوى وأعتى من أى إنسان متكبر :

يا دهر قوم من أخدعيك فقد   أضججت هذا الأنام من خُرُقك

ولو أن الشأن للألفاظ وحدها لتساوى فى الميزان الأدبى الشعراء والكتاب الذين تتشابه أساليبهم وتتفاوت أفكارهم ، كالمتنبى وابن هانئ ، وابن العميد والقاضى الفاضل ، فلماذا نفضل المتنبى وابن العميد ؟

ألسنا متأثرين بالمعانى أيضاً ؟

على أن نعت الأسلوب بالجزالة أو الرقة أو الوضوح أو الرنين وما شاكلها ليس على حقيقته ، فهذه صفات للمعانى ، لأن المعنى الفخم له لفظ جزل ، والمعنى الواضح فى ذهن الأديب له اللفظ الواضح الذى لا غموض فيه ، ولهذا قال عبد القاهر الجرجانى : « فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعراً أو يستجيد نثراً ، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ فيقول : حلو رشيق ، وحسن أنيق . وعذب سائغ ، وخلوب رائع ، فاعلم أنه ليس ينبئك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف وإلى ظاهر الوضع اللغوى ، بل إلى أمر يقع من المرء فى فؤاده ، وفضل يقتدحه العقل من زناده »[١١] .

ثم إن الألفاظ هى التى يملكها الجميع ، ويستطيعون أن يمتلكوها وأن يحصلوها من الكتب والدواوين والمعاجم والأفواه ، أما المعانى فهى التى تحتاج إلى كد وعناء وتفكير واطلاع وبراعة وابتداع ومقدرة خاصة على التعبير عنها وتصويرها تصويراً فنيا ، ولهذا اختلفت المعانى تبعاً للذكاء والثقافة والبيئة والسن والتجربة والهبة .

(١١) أسرار البلاغة ٣ .

٢ – وأما أنصار المعنى فيمثلهم فى الغرب الكاتب الفرنسى إميل زولا ، وذلك أنه لم يستطع مجاراة معاصريه فى براعة الأسلوب ، فهون من شأنه فى مثل قوله : « ليس من مطلق الحق – وإن عارض بوفون وبودلو وشاتوبريان وفلوبير – أن الكاتب يكفيه أن يعنى كل العناية بأسلوبه ليشق له فى الأدب طريقاً يبقى على الأبد . إن الشكل عرضة للتغيير والزوال بسرعة ، ولا بد للعمل الكتابى قبل كل شئ أن يكون حيا ، ولا يمكن أن يكون حياً إلا إذا كان حقا ، والكاتب لا يظفر بالخلود إلا إذا استطاع أن يوجد مخلوقات حية »[١٢] .

لكن زولا تغافل عن حقيقة ، هى أن المخلوقات الحية التى يبدعها الكاتب لا تخلد إلا بالأسلوب كما قال شاتوبريان .

وليس أدل على ذلك من انصراف الناس عن كتب زولا بعد موته ، لأنها محرومة من حيوية الأسلوب .

ومن دعاة هذا المذهب فى مصر سلامة موسى ، وطالما كرر فى مقالاته الدعوة إلى ماسماه الأسلوب التلغرافى ، ثم قال فى كتابه[١٣] : « وكذلك نحن نتبع الأسلوب التلغرافى ، ونتخير الكلمة التى تحمل المغزى فضلا عن المعنى » .

فماذا يريد بالأسلوب التلغرافى ؟

إنه يريد أن يكون خالياً من الروعة والقوة والبراعة والجمال والموسيقى ، فلا يمتاز من أسلوب الخطاب المعتاد المتداول فى الشئون اليومية ، ولا تتفاوت الأساليب باختلاف الموضوعات والمناسبات وأقدار الأدباء والقراء ، (يريد الاشتراكية) فى اللغة كما قرر فى مواضع أخرى من كتابه ، ويتجافى عما تقرره البلاغه وعلم النفس الأدبى من أن الأسلوب صدى لما فى نفس منشئه ، فالعاطفة القوية لا يعبر عنها إلا بالأسلوب الذى يلائمها قوة ، والعاطفة الهادئة لا يوائمها

---

(١٢) دفاع عن البلاغة ٦٠

(١٣) البلاغة العصرية واللغة العربية ١٩ وقد نقدته بمجلة الرسالة فى الأعداد ٦٢٤ – ٦٢٨ .

إلا الأسلوب الذى يشاكلها رقة ، واللغات كلها تَعيًا أحيانا عن تصوير العواطف بكلماتها الوضعية الحقيقية فيلجأ الأديب إلى ضروب من الخيال وأفانين الجمال .

ولو أن الأسلوب لا قيمة له إلا أن يكون كالبرقية تسفر بين الناس بالنفع السريع العاجل ما حرص الأدباء على تجويد أساليبهم فى اللغات كلها ، ولتساوت العبقرية والركاكة ، وتعادلت القدرة والعجز . ولأغنت الفهاهة والإشارة عن العبارة فى كثير من الحالات ، ولصار الردئ مماثلا للجيد ، والعامى ندًّا للفصيح ، ولفقدت البلاغة قيمتها ومكانتها ، لأن البلاغة رتبة فوق إفهام المعنى ، رتبة سمكها الامتياز فى التعبير ومطابقته للمقام وافتنان الأديب فى التعبير والتصوير ، ليضفى من أسلوبه على نتاجه حلة من نور وبهاء ، تجتذب القراء إلى أن يتملوا معه جمال رؤاه ، وبراعة خياله ، فيهدهد قلوبهم أو يرج مشاعرهم ، أو يثير عقولهم .

وإنه لمن الجحد لقيمة الفن الأدبى أن نقصر الأسلوب على التعبير الصحيح عن الفكرة ، لأننا بهذا نجعله والأسلوب العلمى سواء ، كقولنا الضوء أسرع من الصوت ، ومجموع زوايا المثلث يساوى قائمتين ، والعَشْرة عُشْر المئة ، فهذه كما ترى تعابير صحيحة عن الفكرة ، لكنها ليست من الفن فى شئ لأنها خالية من جودة السبك ، ومن العاطفة والخيال ، ولا تمثل شخصية القائل وخصائصه ، على حين أن الأسلوب الأدبى يمثل القائل ، حتى إن بعض النقاد رأوا أن الأسلوب هو الأديب .

وثمة شئ آخر : أن الأسلوب الأدبى ليس مقصوراً على نقل الفكرة ، فكثيراً ما يصور العواطف فردية واجتماعية ، وكثيراً ما يرسم مناظر طبيعية أو غير طبيعية ، وهو لا يستطيع أن ينهض بهذا إلا بوسائل الافتنان فى العبارة ، كقول الشاعر :

ولما قضينا من منى كل حاجة	ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على حدب المهارى رحالنا	ولم ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا	وسالت بأعناق المطى الأباطح

فقد استحسن هذه الأبيات ابن قتيبة وأبو هلال العسكرى ، ولكنهما قصرا حسنها على جودة أسلوبها ، ولم يجدا فيها معنى ذا قيمة ، لأنهما غفلا عما بها من براعة التصوير لجماعة قضوا مناسكهم ، وأخذوا يعودون إلى ديارهم فى عجلة وشوق وزحام وسرعة ، فلم يكن الشاعر فى الأبيات معبراً عن فكرة بل كان مصوراً لحالته وحالة من معه ، ولقد أجاد فيما صور .

على أن تجويد الفِكَر يقتضى تجويد الصُّورَ ، والعناية الدقيقة بالعبارة تدل على جودة التفكير وبراعة التخيل ، كما يرى فلوبير فى قوله : الصورة والفكرة كالجسد والروح ، هما فى رأيى شئ واحد ، وكلما كانت الفكرة جميلة كان التعبير عنها أجمل ، إن دقة الألفاظ من دقة المعانى ، أو هذه هى تلك .

وليس من التحامل فى شئ أن نصف الدعاة إلى غض النظر عن الأسلوب بأنهم عاجزون عن التعبير القوى الرائع ، لكنهم يحاولون ستر هذا العجز بالتهوين من شأن الأسلوب ، وادعاء أنهم يؤثرون المعنى ، فهم كما قال ابن قتيبة فى بعض معاصريه : « فإنى رأيت كثيراً من كتاب أهل زماننا كسائر أهله ، قد استطابوا الدعة ، واستوطأوا مركب العجز ، وأعفوا أنفسهم من كد النظر ، وقلوبهم من تعب التفكير حين نالوا الدرك بغير سبب ، وبلغوا البغية بغير آلة[١٤] » .

لهذا احتفى الأدباء فى العالم كله قدماء ومحدثين بروعة أساليبهم ، فاشتهر زهير بتنقيحه ، وعرف الجاحظ بتأنقه ، وأخذ أبو نواس نفسه بتخير كلماته ، وبرع البحترى فى موسيقاه ، وتعهد شوقى قصائده بالمراجعة ، وعرض بعضها على خلصائه ، على حين أن أبا العتاهية اشتهر بارتجاله ، فجاء شعره – كما قال الأصمعى – كساحة الملوك ، يقع فيها الجوهر والذهب والتراب والخزف والنوى .

وكان لافونتين ينظم المثل ثم ينظر فيه عشر مرات ، وفى كل مرة يحرر ويغير ، ويحذف ويضيف .

---

(١٤) مقدمة أدب الكاتب ٥ .

وكان شاتوبريان يبدأ الصفحة ، ثم يعيدها على نحو ما كان يفعل لافونتين .

ويقول بسكال إنه حرر بعض فصول البروفنسيات خمس عشرة مرة[١٥] .

٣ – أما الكثرة من نقاد العرب والفرنجة فإنهم يذهبون إلى ضرورة العناية بالأسلوب والمعنى معا .

وفى الصدارة من هؤلاء بشر بن المعتمر والجاحظ وعبد القاهر الجرجانى وابن رشيق .

(ا) فقد نقل الجاحظ عن بشر بن المعتمر قوله : « ومن أراغ معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما ، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما[١٦] » .

(ب) أما الجاحظ فنريد أن نتأنى فى الإنصات إلى ما قال ، وأن نتفهم مذهبه على حقيقته ، لأن كثيراً من الدارسين ذهبوا إلى أنه من أنصار اللفظ ، ورأوا أن أبا هلال العسكرى متأثر به فى إيثار اللفظ على المعنى .

وهم يعتمدون فى تقرير هذا الرأى على نص واحد للجاحظ فى كتاب الحيوان هو قوله :

« وذهب الشيخ – أبو عمرو الشيبانى – إلى استحسان المعنى ، والمعانى مطروحة فى الطريق ، يعرفها العجمى والعربى ، والبدوى والقروى ، وإنما الشأن فى إقامة الوزن ، وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج ، وكثرة الماء ، وفى صحة الطبع ، وجودة السبك ، فإنما الشعر صناعة ، وضرب من النسج ، وجنس من التصوير .

وقد قيل للخليل بن أحمد : مالك لا تقول الشعر ؟ فقال : الذى يجيئنى لا أرضاه ، والذى أرضاه لا يجيئنى . فأنا أستحسن هذا الكلام ، كما أستحسن

---

(١٥) دفاع عن البلاغة ٦٦ .

(١٦) البيان والتبيين ١/ ١٣٦ .

جواب الأعرابى حين قيل له كيف نجدك ؟ قال : أجدنى أجدُ ما لا أشتهى ، وأشتهى مالا أجد[17] » .

ولست أنكر أن هذا النص صريح فى إيثار اللفظ على المعنى .

ولكنى أجد للجاحظ عدة نصوص تدل على عنايته باللفظ والمعنى جميعا .

فهل كان للجاحظ رأى ثم عدل عنه ، لأنه ألف كتاب الحيوان قبل البيان والتبيين ؟

أو حدث سقط فى تعليقه على كلام الشيبانى ؟ لأنه ليس متوقعاً من الجاحظ – وهو إمام من أئمة المعتزلة المشهود لهم بالفكر والمنطق والفلسفة – أن يكون مؤثراً للفظ على المعنى .

ولأن الجاحظ كان فى كتبه وفى رسائله يزاوج بين الأسلوب والمعنى ، ويراعيهما معا .

ومهما يكن من شئ ، فإن النصوص الكثيرة تمثل مذهب الجاحظ أصدق وأوضح مما يمثله نص واحد ربما كان مبتوراً أو معدولا عنه .

قال الجاحظ :

« وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ، ومعناه فى ظاهر لفظه ، وكان الله – عز وجل – قد ألبسه من الجلالة ، وغشاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه وتقوى قائله .

فإذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغا ، وكان صحيح الطبع ، بعيداً من الاستكراه ومنزهاً عن الاختلال ، مصوناً من التكلف ، صنع فى القلوب صنيع الغيث فى التربة الكريمة .

ومتى فصلت الكلمة على هذه الشريطة ، ونفذت من قائلها على هذه

(١٧) الحيوان للجاحظ ٣/ ١٣١ .

الصفة أصحبها الله من التوفيق ، ومنحها من التأييد ما لا يمتنع معه من تعظيمها صدور الجبابرة ، ولا يذهل عن فهمها معه عقول الجهلة[١٨] .

وقال :

« قال بعض الربانيين من الأدباء وأهل المعرفة من البلغاء ممن يكره التشادق والتعمق ، ويبغض الإغراق فى القول والتكلف والاجتلاب : أنذركم حسن الألفاظ وحلاوة مخارج الكلام ، فإن المعنى إذا اكتسى لفظاً حسنا ، وأعاره البليغ مخرجاً سهلا ، ومنحه المتكلم دلا متعشقاً صار فى قلبك أحلى ، ولصدرك أملا .

- والمعانى إذا كسيت الألفاظ الكريمة ، وأكسبت الأوصاف الرفيعة تحولت فى العيون عن مقادير صورها ، وأربت على حقائق أقدارها ، بقدر مازينت ، وحسب مازخرفت ، فقد صارت الألفاظ فى معانى المعارض - الثياب الجميلة - وصارت المعانى فى معنى الجوارى » .

وعلق الجاحظ على هذا القول باستحسانه، وجاء فى تعليقه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إن من البيان لسحرا ، وأن عمر بن الخطاب قد راعه حسن منطق الأحنف بن قيس ، وأن عمر بن عبد العزيز قال لرجل أحسن فى طلب حاجة ، وتأتى لها بكلام وجيز ومنطق حسن : هذا والله السحر الحلال[١٩] .

وقال :

« والقصد فى ذلك أن تجتنب السوقى والوحشى ، ولا تجعل همك فى تهذيب الألفاظ ، وشغفك فى التخلص إلى غرائب المعانى ، وفى الاقتصار بلاغ ، وفى التوسط مجانبة للوعورة ، وخروج من سبيل من لا يحاسب نفسه[٢٠] » .

---

(١٨) البيان والتبيين ١/ ٨٣ .

(١٩) البيان والتبيين ١/ ٢٥٤ .

(٢٠) المرجع السابق ١/ ٢٥٥ .

وقال :

« ومتى شاكل – أبقاك الله – ذلك اللفظ معناه ، وأعرب عن فحواه . وكان لتلك الحال وقفاً ، ولذلك القدر لِفْقا ، وخرج من سماجة الاستكراه ، وسلم من فساد التكلف ، كان قميناً بحسن الموقع ، وبانتفاع المستمع ، وأجدر أن يمنع جانبه من تناول الطاعنين ، ويحمى عرضه من اعتراض العائبين ، وألا تزال القلوب به معمورة ، والصدور مأهولة .

ومتى كان اللفظ أيضا كريماً فى نفسه ، متخيراً من جنسه ، وكان سليما من الفضول ، وبريئاً من التعقيد ، حبب إلى النفوس ، واتصل بالأذهان ، والتحم بالعقول ، وهشت إليه الأسماع ، وارتاحت له القلوب ، وخف على ألسن الرواة ، وشاع فى الآفاق ذكره ، وعظم فى الناس خطره .... ومن أعاره الله من معونته نصيبا ، وأفرغ عليه من محبته ذنوبا ، جلبت إليه المعانى ، وسلس له نظام اللفظ ، فكان قد أعفى المستمع من كد التكلف ، وأراح قارئ الكتاب من علاج التفهم .

ولم أجد فى خطب السلف الطيب والأعراب الأقحاح ألفاظاً مسخوطة ، ولا معانى مدخولة ، ولا طبعاً رديئا ، ولا قولا مستكرها[٢١] » .

وقال فى وصف شرائط رسالة الشكر : « وصف ذلك الإحسان باللسان البين ، وباللفظ العذب الشهى ، والمعنى الشريف البهى » . وقال فى الرسالةنفسها : « وإذا لم يكن اللفظ رائعا ، والمعنى بارعا لم تصغ له الأسماع ، ولم تنشرح له الصدور ، ولم تحفظه النفوس ، ولم تنطق به الأفواه ، ولم يخلد فى الكتب ، ولم يقيد بالدرس[٢٢] » .

---

(٢١) مرجع السابق ٢/ ٧ .
(٢٢) من رسالة الشكر فى كتاب صبح الأعشى ١٤/ ١٧٥ .

وقال :

« ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ، ولكل نوع من المعانى نوع من الأسماء ، فالسخيف للسخيف ، والخفيف للخفيف ، والجزل للجزل ، والإفصاح فى موضوع الإفصاح ، والكناية فى موضع الكناية ، والاسترسال فى موضع الاسترسال[٢٣] .

وقال :

« فإن رأيى فى هذا الضرب من هذا اللفظ أن أكون مادمت فى المعانى التى هى عبارتها والعادة فيها أن ألفظ بالشئ العتيد الموجود ، وأدع التكلف لما عسى ألا يسلس ولا يسهل إلا بعد الرياضة الطويلة .

وأرى أن ألفظ بألفاظ المتكلمين مادمت خائضاً فى صناعة الكلام مع خواص أهل الكلام ، فإن ذلك أفهم عنى ، وأخف لمؤنتهم علىّ .

ولكل صناعة ألفاظ قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها . فلم تلزق بصناعتهم إلا بعد أن كانت مشاكلا بينها وبين تلك الصناعة ...... إلى أن يقول : ولكل صناعة شكل[٢٤] » .

وقال فى توجيه القائم بالتأديب : « ثم خذه بتعريف حجج الكُتَّاب . وتخلصهم باللفظ السهل القريب المأخذ إلى المعنى الغامض ، وأذقه حلاوة الاختصار وراحة الكفاية وحذره التكلف واستكراه العبارة .

فاحتر من المعانى مالم يكن مستوراً باللفظ المنعقد ، مغرقًا فى الإكثار والتكلف ، فما أكثر من لا يحفل باستهلاك المعنى مع براعة اللفظ وغموضه على السامع بعد أن يتسق له القول وما زال المعنى محجوباً لم تكشف عنه العبارة .

وشر البلغاء من هيأ رسم المعنى قبل أن يهيئ المعنى عشقاً لذلك اللفظ

(٢٣) الحيوان للجاحظ ٣/ ٣٩ .

(٢٤) الحيوان ٣/ ٣٦٨ .

وشغفاً بذلك الاسم ، حتى يجر إليه المعنى جرا ، ويلزقه به إلزاقا ، كأن الله تعالى لم يخلق لذلك المعنى اسماً غيره ، ومنعه الإفصاح عنه إلا به .

وبالجملة أن لكل معنى شريف أو وضيع ، هزل أو جد ، أو حزم أو صناعة ، ضرباً من اللفظ هو حظه وحقه ونصيبه الذى لا ينبغى أن يجاوزه أو يقصر دونه .

ومن قرأ دواوين الحكماء ليستفيد المعانى فهو على سبيل الصواب ، ومتى نظر فيها ليستفيد الألفاظ فهو على سبيل الخطأ ، والخسران ها هنا فى وزن الربح هناك ، لأن من كانت غايته انتزاع الألفاظ حمله الحرص عليها والاستهتار بها إلى أن يستعملها قبل وقتها ، ويضعها فى غير مكانها ، ولذلك قال بعض الشعراء لصاحبه : إنى أشعر منك . قال صاحبه ولم ذاك ؟ قال : لأنى أقول البيت وأخاه . وأنت تقول البيت وابن عمه .

والوجه النافع أن تدور الألفاظ فى مسامعه ، وتغيب فى قلبه ، فإذا طال مكثها تناكحت ثم تلاحقت فكانت نتيجتها أكرم نتيجة ، وثمرتها أطيب ثمرة ، لأنها حينئذ تخرج غير مسترقة ولا مختلسة ولا مغتصبة ولا دالة على فقر إذ لم يكن القصد إلى شئ بعينه ، وبين الشئ إذا عشش فى الصدر ثم باض ثم فرخ ثم نهض وبين أن يكون الخاطر مستحاراً واللفظ اعتساقا واغتصاباً فرق بين .

والوجه الضار أن يحفظ ألفاظاً بأعيانها من كتاب بعينه أو من لفظ رجل ثم يريد أن يعد لتلك الألفاظ قسمها من المعانى[٢٥] » .

فلننتقل من الجاحظ إلى غيره من أنصار اللفظ والمعنى معا .

يقول ابن رشيق :

« اللفظ جسم وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم ، يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته ، فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصاً للشعر

(٢٥) مجموعة رسائل الجاحظ ١٥٨ .

وهجنة عليه ، كما يعرض لبعض الأجسام من العرج والشلل والعور وما أشبه ذلك من غير أن تذهب الروح ، وكذلك إن ضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ ، كالذى يعرض للأجسام من المرض بمرض الأرواح ، ولا تجد معنى يختل إلا من جهة اللفظ وجريه فيه على غير الواجب ، قياساً على ما قدمت من أدواء الجسوم والأرواح ، فإن اختل المعنى كله وفسد بقى اللفظ مواتاً لافائدة فيه ، وإن كان حسن الطلاوة فى السمع ، كما أن الميت لم ينقص من شخصه شئ فى رأى العين ، إلا أنه لا ينتفع به ولا يفيد فائدة ، وكذلك إن اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصح له معنى ، لأنا لا نجد روحاً فى غير جسم البتة » .

وابن وكيع مثّل المعنى بالصورة ، واللفظ بالكسوة ، ورأى أن الصورة الحسناء إن لم تقابل بما يشاكلها ويليق بها من اللباس فقد بخست حقها ، وتضاءلت فى عين مبصرها .

وإن كان تمثيل ابن رشيق أدق وأدل على وحدة الأسلوب والمعنى وامتزاجها من تشبيه ابن وكيع .

وعبد الكريم النهشلى قال : « قال بعض الحذاق : المعنى مثال واللفظ حذو والحذو يتبع المثال ، فيتغير بتغيره ، ويثبت بثباته[٢٦] .

أما الجرجانى فيقرر فى كتابيه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز مراراً أن البلاغة ترجع إلى الملاءمة بين اللفظ والمعنى وتكوين ألفاظ على وفق المعانى ، وما تتطلبه من أسلوب خاص ونسق فى إبرازها .

ورد على ابن قتيبة وعلى أبى هلال فى نقدهما الأبيات « ولما قضينا من منى كل حاجة » فاستحسنها وأطنب فى استجادتها ، وخلص من ذلك إلى قوله : « وليس هذا بقياس الشعر الموصوف بحسن اللفظ ، وإن كان لا يبعد أن يتخيله

(٢٦) العمدة ١/ ٨٠

من لا ينعم النظر ، ولا يتم التدبر ، بل حق هذا المثل أن يوضع فى نصرة بعض المعانى الحكمية والتشبيهية بعضا[٢٧] » .

وقال الثعالبى : « البليغ من يحوك الكلام على حسب الأمانى ، ويخيط الألفاظ على قدود المعانى » .

* * *

الحق أن اللفظ والمعنى معاً عنصران من عناصر الأدب ، وإنما نقول عنصرين لأن للنص الأدبى عناصر أخَر لم يعرض لها القدماء ، ولها فى النقد الحديث تقدير وذيوع ، وأهمها العاطفة والخيال ، ومقوماته لا ينفرد أحدها بالسبق والامتياز ، فلكل منها قيمته فى جمال النص الأدبى وجلاله .

فمن التعسف أن يتحاكم بعض النقاد إلى اللفظ وحده ، وبعضهم إلى المعنى وحده ، فإن تأثرنا بالنص الأدبى الا ينشأ عن ألفاظ من حيث إنها أصوات مسموعة ، وحروف مفردة ، ، وكلمات مجردة تتوالى فى النطق ، وإنما ينشأ عما بين المعانى والألفاظ من الاتساق العجيب فى ليقان اللفظ بتأدية المعنى ، وملاءمة معنى الكلمة لمعنى التى تسبقها والتى تلحقها ومطابقة الكلام لمقتضى الحال .

وإذا فإن الصواب فى النظر إلى الأسلوب والمعنى على أنهما وحدة لا تتجزأ ، لأن سر البلاغة يرجع إلى روعة المعنى وسموه وتأثيره وطرافته ، وإلى جزالة اللفظ وقوته أو رقته وفصاحته الخ ، فليس النص معنى منفصلا عن اللفظ ، وليس لفظاً منفصلا عن المعنى ، بل هو مزيج من عناصر عدة ، مزيج من الفكرة والعاطفة والخيال والتعبير .

وليس من المستطاع فصل التعبير عن المعنى ، أو قطع المعنى عن التعبير ، لأن النص الأدبى وليد اجتماعها ، كما يتحد الأوكسجين والأيدروجين بنسبة ١ : ٢ فيستحيلان إلى ماء وللماء خواص غير خواص كل منهما منفرداً .

---

(٢٧) أسرار البلاغة ١٦ .

ويتبين اتحاد المعنى والاسلوب فى اننا إذا غيرنا التعبير تغير المعنى ، وإذا غيرنا المعنى تغير التعبير ، فقولنا : لم يحضر الطلاب كلهم . غير قولنا : كل الطلاب لم يحضروا . وقوله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين » غير نعبدك ونستعينك ، قال الجرجانى : وهذا الحكم – أعنى الاختصاص فى الترتيب – يقع فى الألفاظ مرتبا على المعانى المرتبة فى النفس ، المنتظمة فيها على قضية العقل ، ولن يتصور فى الألفاظ وجوب تقديم وتأخير وتخصيص فى ترتيب وتنزيل ، وعلى ذلك وضعت المراتب والمنازل فى الجمل المركبة وأقسام الكلم المدونة ، فقيل من حق هذا أن يسبق ذلك ، ومن حكم ما هاهنا أن يقع هنالك ..... فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعرا ، ويستجيد نثرا ، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ ، فاعلم أنه ليس ينبئك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف ، وإلى ظاهر الوضع اللغوى ، بل إلى أمر يقع من المرء فى فؤاده ، وفضل يقتدحه العقل من زناده [٢٨] » .

وقد أحسن العتابى فى تشبيه الألفاظ بالأجساد والمعانى بالأرواح ، فإذا قدمت من الألفاظ مؤخراً أو أخرت منها مقدما أفسدت الصورة ، وغيرت المعنى ، كما لو حمل رأس إلى موضع يد ، أو يد إلى موضع رجل لتحولت الخلقة وتغيرت الحلية [٢٩] .

وإنه لمن مجاوزة الصواب أن نصف المعنى وحده بأنه هو الذى يكسب الكلام جمالا أو جلالا ، لأن المعنى كالذهب ، يصاغ منه سوار أو قرط أو خاتم أو تمثال ، فلنسأل أنفسنا : أنحن فى إعجابنا بجمال السوار أو القرط أو الخاتم أو التمثال ننظر إلى الذهب الغفل أم إلى الذهب فى هذه الصورة ؟

لاشك أننا نعجب بالذهب مصوغا ومصورا ، كذلك يستحيل علينا أن ننظر إلى المعنى المجرد من اللفظ .

---

(٢٨) أسرار البلاغة ٣ .

(٢٩) كتاب الصناعتين ١٥٣ .

ثم هل نطرب للموسيقى إن لم تكن نغمات منسقة تثير العاطفة ؟

وهل نعجب بالتمثال إن لم يكن متناسب الأجزاء ، منسجم الشكل ، معبراً عن المعنى الذى نصب من أجله ؟

مثل اللفظ والمعنى كمثل الصوان والتمثال ، والذهب والسوار ، والأغنية واللحن ، لابد من كليهما مجتمعين اجتماعا خاصاً ليحدث التأثير والإعجاب .

خصائص الأسلوب الخطابى

أسلوب الخطابة مستمد من طبيعة هذا الفن الذى يجمع بين الإقناع والاستمالة ، فهو أسلوب تمتزج فيه الأدلة التى تكفل الإقناع بالإثارة التى تحقق الاستمالة ، لابد أن يكون مُنَوَّعاً جامعاً تقرير الحقائق وإثارة العواطف ، يتجه إلى الفكر وإلى الوجدان لينفذ منها إلى العزيمة . « ولذلك تسمى الخطابة الفن العملى ، كما تسمى الفن الكامل لجمعه – فى الإلقاء – بين شخصيتى الخطيب الحسية والمعنوية ، ولاستخدامه جميع مواهب السامعين ، فإن الخطيب يستخدم جسمه فى الخطابة ، فيشير بيديه ، ويحرك رأسه ، ويشكل أسارير وجهه ، وكل هذه الحركات عنصر هام فى التأثير الخطابى ، حتى إذا قرئت الخطبة مكتوبة كانت فاقدة هذا العنصر الجثمانى ، مع صوت الخطيب وحسن إلقائه ، فيذهب شئ من روعتها وقوتها الإنشائية[1] » .

– ١ –

الإطناب

يتسم الأسلوب الخطابى بالإطناب ، وإذا كان الإطناب غير محمود فى الأسلوب الكتابى أو العلمى ، فإنه محمود فى الأسلوب الخطابى ، وهو ضرورى فى الخطابة السياسية والقضائية والحفلية ، ولكنه غير مستطاع فى الخطابة الحربية ، لأنها كلمات محمسة تلقى فى الميدان قبيل المعركة ، فظروفها تحتم الإيجاز ، وقد يضطر الخطيب الدينى إلى الإيجاز مراعاة لحالة الجماعة والزمن ، كأن يكون المسجد غاصاً بالمصلين فى يوم قائظ ، أو يكون المصلون من ذوى الأعمال العاجلة وقد تركوها ريثما يصلون ، ولكن هذا لا ينفى أن من خصائص الأسلوب الخطابى الإطناب ، لأن الإيجاز إنما تقتضيه ظروف وأحوال .

---

(١) الأسلوب ١٩٤ أحمد الشايب

فعلى الخطيب أن يراعى المقام وما يقتضيه من إيجاز أو إطناب ، فإن استدعى إطناباً وتفصيلا أطنب ، وإن تطلب تقصيراً أوجز ، على أن يطيل فى غير خطل ولا إملال ، ويوجز فى غير تعمية ولا إخلال .

وقديماً كان للعرب خطب طوال ، وخطب قصار ، يقول الجاحظ : « ثم اعلم أن جميع خطب العرب من أهل المدر والوبر والبدو والحضر على ضربين : منها الطوال ، ومنها القصار ، ولكل ذلك مكان يليق به ، وموضع يحسن فيه[2] » .

ولكن على الخطيب المطنب أن يكون دائم السيطرة على الجمهور ، لأنه لا يأمن ملالهم وإن نسق عباراته ، ونضد معانيه ، وأبدع فى تصويره بتشويقه ومفاجآته وحسن إلقائه ، فإن أحس منهم فتورا ألهب عواطفهم أو أوجز ، قال عبد الله بن مسعود : « حدث الناس ما حَدَجوك بأسماعهم ، والحظوك بأبصارهم ، فإذا رأيت منهم فَتْرَة فأمسك » . وكان مُطَرِّف بن عبد الله يقول : « لا تطعم طعامك من لا يشتهيه » يريد ألا تقبل بحديثك على من لا يقبل عليك .

وسائل الإطناب :

١ – ومن وسائل الإطناب التكرار المعنوى ، وهو التعبير عن المعنى الواحد بطرق مختلفة ، ليتضح ويقوى تأثيره ، ولا عيب فى هذا التكرار المعنوى إذا ما تغايرت عباراته : مثل قول الحجاج : « أيها الناس من أعياه داؤه ، فعندى دواؤه ، ومن استطال أجَله ، فعلَّى أن أُعَجِّله ، ومن ثَقُلَ عليه رأسه ، وضعت عنه ثِقله ، ومن استطال ماضى عمره ، قَصَّرْتُ عليه باقيه .... » فهى كلها بمعنى واحد ولكن التعبير مختلف ، فكأن لكل جملة معنى جديداً وتهديداً ووعيداً .

ولهذا أخالف الجاحظ فى إيثاره الإيجاز فى الخطب إذ يقول : « ووجدنا عدد القصار أكثر ، ورواة العلم إلى حفظها أسرع[3] » وروى أن ابن السماك جعل

---

(٢) البيان والتبيين ٣/ ٦ .

يتكلم وجارية له تسمع . فلما انصرف إليها قال لها : كيف سمعتِ كلامى ؟ قالت : ما أحسنه لولا أنك تكثر ترداده . قال : أردده حتى يفهمه من لم يفهمه ، قالت : إلى أن يفهمه من لم يفهمه قد مله من فهمه[4] » لأن التكرار نوع من الإيحاء ولا بد منه فى الخطابة .

٢ – ومن وسائله أيضاً التفصيل والشرح وتوليد المعانى ، ليعمق أثر الخطبة فى نفوس سامعيها ، كما نرى فى خطبة مصطفى كامل التى دعا فيها سنة ١٩٠٧ إلى الانضمام إلى الحزب الوطنى . ومنها :

سادتى وأبناء وطنى الأعزاء :

بأى لسان أشكركم على مظاهرتكم الودية لى ، وانعطافكم العال علىَّ ، وليس لى مطمع فى هذه الحياة إلا أن أراكم متفقين معى شعوراً ورأيًا ، وقد حققتموه فأبلغتمونى أقصى ما أتمنى .

ألا إنى أعلم أنكم إنما أردتم بمظاهرتكم هذه أن تجيبوا أولئك الأعداء الظاهرين والمستترين ، وتسمعوهم أصواتكم جهيرة ، وتقولوا للملأ كله إنكم أعوان الشعور الوطنى ، وأعوان النهضة المصرية ، وإنَّ خدَّام هذه البلاد يجدون منكم على الدوام كل مؤازرة ورعاية . إنى أعلم أنكم تعتقدون كما أعتقد أن الذين يهبون قواهم وأعمارهم لبلادهم لا يحسبون لأشخاصهم وجوداً مستقلا عن المبدأ الذى يعملون لنصرته ، بل يندمجون فى المبدأ نفسه ، فكل تحية تهدى إليهم فهى تحية إليه ، ولذلك أستقبلُ دلائل الحبِّ والميل التى تظهرونها نحوى على أنها إكرام لأشرف مبدأ قام ويقوم فى خدمته الإنسان ، ألا وهو مبدأ إحياء الوطن ورد مجده واستقلاله إليه .

أيها السادة : إن مصر خطت فى الثلاث السنوات الأخيرة خطوات واسعات فى سبيل النهضة الأهلية ، وأسمعت الأمم والدول صوتاً ما تعودت سماعه من قبل .

ظن الساسة الإنكليز أنهم إذا اتفقوا مع فرنسا على مسألة مصر طُويتْ أوراق

---

(٣) البيان والتبيين ٣ . ٦ .

(٤) البيان والتبيين ١/ ٩٩ .

تلك القضية الخطيرة ، وخفتَ كلُّ صوت ، ومات كلُّ أمل . وحلَّ اليأس محلَّ الرجاء ، وصار الشعب المصرى أثراً كتلك الآثار القديمة التى يأتى السائحون لرؤيتها فى كل عام ، ولكنهم أخطأوا خطأ كبيراً ، نعم أخطأ أولئك الساسة الذين يظنهم العالم كله أمهر الناس فى تدبير الشئون وإعداد الحوادث ومعرفة المستقبل..

أخطأوا لأن العزلة التى صرنا إليها بعثت فينا روحاً جديداً أرشدنا إلى الحقيقة التى لا قوام لشعب بدونها ، ولا حياة لأمة بغيرها ، ولا وجود لنفر من الناس إذا لم يتبعوها ، وهى أن الأمم لا تنهض إلا بنفسها ، ولا تسترد استلالها إلا بجهودها ، وأن الشعب كالفرد لا يكون آمناً على نفسه إلا إذا كان قوياً بنفسه ، مُسْتَجْمعاً لكل عُدد الدفاع ، وآلات الذَّبِّ عن الشرف والمال والحياة .

نعم فقَهْنا أن الشعوب التى لا ترجو الرقى إلا بمعونة جيرانها وأصدقائها ، ولا تحفظ استقلالها إلا بالاعتماد على حلفائها ، هى شعوبٌ فى خطر ، وحياتها مهددة فى كل وقت .

دهش الذين كانوا لا يرون فينا إلا أمواتاً تتحرك ، كما بهت أعداء الوطنية المصرية من هذه الروح الجديدة التى دبَّت فى الأمة ، وقالوا : عجباً ، أيحيا هذا الشعب ؟ أتنهض مصر بنفسها ؟ أتعمل للاستقلال وحدها ؟ أتقدر على تحقيق مطالبها بمحض إرادتها ؟ أتقاتل اليأس والقنوط ؟ وتتغلب على الحوادث والكوارث ؟

أجل ، وألف مرة أجل ، إن مصر بالغة آمالها ، ومحققة آمانيها ، بإرادتها وهمتها . إنكم تقولون يا أعداء مصر : إننا عشنا القرون الطوال أذلاء ، يحكمنا الغير ، وتتبدل السلطة الأجنبية ، ولا يتبدل شقاؤنا ، وتجعلون هذا القول حجة علينا ، ودليلا على أننا خلقنا للذل والهوان ، وأن السيادة الأهلية لن تسكن وادى النيل أبد الزمان .

كذبتم وحق مصر يا أعداء ، كذبتم على الله والناس ، فما بقاء هذه الأمة بعد اشتداد الإحن والمصائب ، وتعدد الإهانات والنوائب ، وما وجود الروح

الوطنية فيها بعد كل ما كان إلا دليلٌ قاطعٌ على أنه قد حان الوقت لأن تسترد حقوقها المسلوبة ، وتسترجع مكانتها فى الوجود .

تقولون يا أعداء مصر : إنها لبثت زمناً طويلاً مكبَّلةً بقيود الذلّ والاستعباد ، وتستساءلون : كيف تعيش بعد ذلك فى سؤدد واستقلال ، وفاتكم أن ذلك الماضى المظلم يزيدنا تمسكا بحقنا فى مستقبل مضئ باهر . نسيتم أن الشقاء المديد أدعى إلى هناء مثله مديد ، وأن شعباً قضى القرون وقواه لا تنصرف إلى خير الوطن يكون أقوى شعوب الأرض يوم يوجهها إلى هذه الغاية السامية .

تقولون يا أعداء مصر : إننا لو أفلحنا لما نلنا هذا الاستقلال إلا بعد حين طويل ، فنجيبكم إننا لو سلَّمنا بقولكم لما جاز لنا أن نتأخر لحظةً واحدة عن العمل ، لأننا لا نعمل لأنفسنا ، بل نعمل لوطننا ، وهو باق ونحن زائلون ، وما قيمة السنين والأيام فى حياة مصر ، وهى التى شهدت مولدا لأمم كلها ، وابتكرت المدنية والحضارة للنوع الإنسانى كله ؟ .

إن العامل الواثق من النجاح يرى النجاح أمامه كأنه أمر واقع ، ونحن نرى من الآن هذا الاستقلال المصرى ، ونبتهج به وندعو له كأنه حقيقة ثابتة ، وسكون كذلك لا محالة .

إننا وجهنا قلوبنا ونفوسنا وقوانا وأعمالنا إلى أشرف غاية اتجهت لها الأمم فى ماضى الأيام وحاضرها ، وإلى أعلى مطلب ترمى إليه فى مستقبلها ، فلا الدسائس تخيفنا ، ولا التهديدات تقفنا فى طريقنا ، ولا الشتائم تؤثر فينا ، ولا الخيانات تزعجنا ، ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التى تصغر بجانبها كل غاية .

نعم إنا لو تخطفنا الموت من هذه الدار واحدا بعد واحد لكانت آخر كلماتنا لمن بعدنا : كونوا أحسن حظاً منا ، وليبارك الله فيكم ، ويجعل الفوز على أيديكم ، ويخرج من الجماهير المئات والألوف بدل الآحاد ، للمطالبة بالحق الوطنى والحرية الأهلية والاستقلال المقدس .

-٢-

الوضوح

يتسم الأسلوب الخطابي بسهولة لعبارة ، ووضوح المعنى ؛ لأن فهم المعانى أساس الإقناع والاستمالة .

ولا أعنى أن يكون الكلام مبتذلا سوقيا ، وشائعاً شعبياً ، وإنما أريد أن يكون سهلا فى قوة ، وسامياً فى وضوح وسهولة ، يفهمه أنصاف المتعلمين ، ولكنهم يعجزون عن الإتيان بمثله . أريد أن يوافق السامعين ، ويلائم الزمان ، ويشاكل البيئة ، ويوائم الموضوع ، وينبئ عن مقدرة الخطيب البيانية . والخطيب البارع من خطب فى العامة وأنصاف المتعلمين فرفعهم إليه ولم يهبط هو إليهم .

ومن الخطأ أن يغرب الخطيب فى أسلوبه ، ويتسامى بتعبيره تسامياً يغلق معانيه على السامعين . ذكر الجاحظ أن أبا دؤاد بن حَريز قال – وقد جرى ذكر شئ من الخطب وتحبير الكلام واقتضابه وصعوبة ذلك المقام وأهواله : «تخليص المعانى رفق ، والاستعانة بالغريب عجز ، والتشادق من غير أهل البادية بغض » : « رأس الخطابة الطبع ، وعمودها الدُّربة ، وجناحاها رواية الكلام ، وحليها الإعراب (الإفصاح) ، وبهاؤها تخير اللفظ ، والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه[١] » .

ذلك أن الغريب والتعقيد لا يلائم السامعين ، ويحوجهم إلى التفكير فى المعانى ، والتأويل للعبارات ، فتنقطع صلتهم بالخطبة والخطيب .

« فاختر من المعانى مالم يكن مستوراً باللفظ المعقد ، مُغْرقاً فى الإكثار من التكلف ، فما أكثر من لا يحفل باستهلاك المعنى مع براعة اللفظ وغموضه على السامع[٢] » .

---

(١) البيان والتبين ٤٤/١ تخليص المعانى : شرحها وتوضيحها وتقريبها .

(٢) رسالة مدح التجار للجاحظ ١٥٩ .

ومما يحبب السهولة إلى الخطباء أن الكلمات السهلة أحفل فى كثير من الأحيان بالشعور والعاطفة من الكلمات الغريبة التى لا تحصل إلا بالمطالعة والمدارسة ، فمثلا كلمة حرب أو غارة أو جوع تثير ما لا تثيره كلمة وغى أو سغب ، وكلمة زوجة أقوى تأثيراً من كلمة حَنَّة أو طَلَّة الخ .

والجنوح إلى السهولة لا ينافى قوة العبارة ودقتها ، وذلك كقول الحجاج فى خطبته بالبصرة : « أيها الناس من أعياه داؤه ، فعندى دواؤه ، ومن استطال أجله ، فعلىَّ أن أُعَجِّله ، ومن ثقل عليه رأسه ، وضعت عنه ثقله ، ومن استطال ماضى عمره ، قصرت عليه باقيه . إن للشيطان طيفا ، وللسلطان سيفا » .

فالأسلوب هنا واضح المفردات والمعانى ، وجيد غاية الجودة ، ووافٍ بالغرض الذى يريده الخطيب ، وهو التهديد والترهيب .

وسائل الوضوح

١ – أن يكون الخطيب قد درس موضوعه وفهمه فهماً عميقاً دقيقا ، لأنه إذا يستطيع أن يعبر عنه تعبيراً جلياً مفهوما ، فيتجنب الغموض والإبهام والتعبير المحتمل لمعنيين . ولا شك أن الغموض فى الأسلوب مرده إلى أحد أمرين : إما إلى غموض المعنى فى ذهن الخطيب ، وإما إلى عجزه عن الإفصاح عما بذهنه ، وكلاهما عيب .

٢ – اختيار الكلمات التى تناسب الموضوع والسامعين ، بحيث تدل على معانيها فى يسر وسهولة ودقة ، وتنفيذ إلى الذهن والقلب ، كما رأينا فى خطبة الإمام على والحجاج وزياد .

٣ – حسن عرض الجمل وتأليفها ، لتفصح العبارة عن المعنى الذى يقصد إليه الخطيب ، فيقدم أو يؤخر ، ويذكر أو يحذف ، ويؤكد أو لا يؤكد ويفْصِل أو يصل الخ .

وذلك ليكون معناه واضحاً دقيقا .

وعدة الخطيب فى ذلك أن يلتزم القواعد النحوية والبلاغية والذوق الأدبى .

٤ – ترتيب الموضوع ترتيباً منطقيا ، فالمقدمات تسلم إلى النتائج ، والمعانى الأساسية قبل المعانى الفرعية ، والمعانى كلها مترابطة متماسكة لا فجوات بينها تقطع أفكار السامعين .

٥ – ولابد فى الخطب العامة من البعد عن المصطلحات الخاصة بالعلوم والفنون ، لأنها مجهولة للسامعين ، ولأنها لا تلائم الموضوع .

لهذا عابوا على بعض الخطباء من علماء الكلام أنهم استعملوا فى خطابتهم بعض مصطلحاتهم ، وخطب بعضهم فقال : « إن الله عز وجل بعد أن أنشأ الخلق وسواهم ، ومكن لهم لاشاهم فتلاشوا » فضحكوا منه .

وخطب آخر فى وسط دار الخلافة فقال : « وأخرجه الله من باب اللَّيْسِيَّة فأدخله فى باب الأَيْسِيَّة » وقال مرة أخرى : فدل ساتره على غامره ، ودل غامره على مُنْحَلِّه » فكاد إبراهيم بن السندى – وهو من المتكلمين والخطيب ليس من المتكلمين – ينشق غيظاً –[1] من هذا الذى يستعمل فى خطبه اصطلاحات لا بأسلوب الخطبة .

---

(١) البيان والتبيين ١٤٠/١ الليسية فى اصطلاح المتكلمين يراد بها النفى ، والأيسية يراد بها الإثبات .

— ٣ —

إثارة الشعور

قيمة الإثارة :

الأسلوب الخطابى فى حاجة إلى إثارة الشعور ، لأن الوضوح وحده لا يكفى . ذلك أن الوضوح يكفل الإقناع ، أما قوة الأسلوب فتكفل الاستمالة ، وتوجيه السامعين إلى الهدف الذى يقصده الخطيب .

وهذه القوة هى التى تمزج مشاعر السامعين بمشاعر الخطيب . لذلك قال دلامير : إن الذى يكتفى بالإقناع دون التحميس متكلم لا بليغ . وقال رفالور : إن الأهواء والعواطف هى الخطيب فى الجماهير »[٢] .

وسائل الإثارة :

فكيف يثير الخطيب المشاعر؟

١ — يثيرها بقوة عاطفته ، وحماسته إلى دعوته ، لأن الخطيب المنفعل ، الصادق العاطفة ، الحار الشعور ، تلتهب كلماته ، وتصل إلى القلوب عباراته ، فسرعان ما تمتزج نفوس السامعين بنفسه ، وتندفع إلى الوجهة التى يريدها . سمع الحسن البصرى خطيباً يعظ ، ولكن قلب الحسن لم يرق لخطبته ، فقال له : يا هذا إن بقلبك لشرًّا أو بقلبى[٣] » .

٢ — ومن وسائل الإثارة الخيالُ فى العبارة ، وذلك باختيار المفردات والعبارات التى تثير فى النفوس أخيلة وذكريات ، وتبعث صوراً وأفكاراً ملائمة للموضوع تتداعى وتتوافد . وسبيل ذلك أن يتخير الخطيب العبارات المجازية كالاستعارة والكناية والتمثيل ، ويجنح إلى التشبيه والتخييل والمبالغة المقبولة ،

---

(٢) الخطابة نقولا فياض .

(٣) البيان والتبيين ١/٨٤ .

وبهذا يكسب فى عباراته قوة وحرارة ، لأن الحياة تسرى فى العبارة على مقدار غناها بالمشاعر الحية ، والعواطف المشبوبة ، والصور الذهنية .

فقولنا : « أى ضلع فى المثلث أقصر من مجموع الضلعين الآخرين » تعبير وجيز المبنى ، صحيح المعنى ، دقيق الدلالة ، ولكن ليس من الأدب فى شىء ؛ لأن معناه عقلى صرف ، خال من شعور القائل ، فلا يثير شعور السامع .

« والكلمة عند الشاعر – والأديب عامة – لا تُفَسَّر بالعقل وحده ، ولكنها تفسر كذلك بالقلب والخيال ، فإذا ما ترددت لفظة فى ذهنه كانت لها آثار فى قرارة نفسه ، لأن معناها يسرى فيه ، ويعيد إليه مناظر ماضيه وذكرياته ، فيسترجع العواطف التى أثاراتها هذه الكلمات فى نفوس الناس فى شتى تجارب الحياة[٤] » .

الخطيب محتاج لخيال مشوِّق يصور عاطفته ، على شرط ألا يكثر منه ، وألا يسوقه على غرار واحد حتى لا يُسْئِم .

والجماعة تتأثر بالصور كثيراً ، ومتى كان الخطيب حاذقا بليغا أسكر الجمع بتصويره ، فيثيره أو يهدئه ، « ولو جُمعت عظام من ذهبوا ضحية الألفاظ والجمل لأمكن أن يقام منها هرم أرفع من هرم خيوبس القديم[٥] » .

وإنما تؤثر الألفاظ بما ترسمه فى الذهن من صور ، وليس لتأثيرها ارتباط بمعانيها الحقيقية ، بل يكثر أن تكون الألفاظ الأقوى تأثيراً هى الأقل دقة فى وضوحها ، مثل ديمقراطية ، واشتراكية ، ومساواة ، وحرية ، وشرف ، وعرض ، ويكون سلطانها على النفوس عظيم .

وللألفاظ وظيفة مهمة فى التعبير تتجاوز ما يقتصر عليه بعضها من نقل فكرة شخص ، فكثير منها مشحون بصور غير الفكرة التى تنقلها ، فمثلا كلمة (أم) تدل على معنى مجرد لوالدة مجردة فلا تهز شعور قارىء ولا سامع ، ولكن إذا

---

(٤) The art of Speech. Clenton.

(٥) روح الاجتماع ١٢٨ .

استخدمها إنسان فى حياته الخاصة أحس لها فى نفسه حياة ، وشعر أنها تتدفق بعاطفة ، وتذكر بالطفولة وملاعبها ، وبحب الأم وعطفها .

فاللفظ رمز إلى فكرة ومعنى ، وتيار زاخر بالمشاعر والصور التى اكتسبها من حياته الطويلة وأحوال الذين نطقوا به .

ولكن الألفاظ تتبدل معانيها على الزمن ، فمنها ماكان غنياً بالصور ثم افتقر ، ومنها ما تلازمه صوره فتتلوه على الأثر ، ومنها ما تتغير معانيه بتغير البيئة والناس . فإذا أردنا أن نؤثر فى الجمع كان لزاما علينا أن نعرف فهمه لمعانى الألفاظ وقت الخطاب ، فإن صورها حينئذ قد تغاير صورها من قبل ، ولهذا يلجأ الساسة إلى تغيير بعض الأسماء الدالة على نظم معينة ، وإن لم يغيروا النظم نفسها ، فمثلا فى فرنسا لاحظ توكفيل أن حكومة القنصلية والإمبراطورية فى فرنسا كانت تلبس « القسم الأكبر من النظم القديمة لباساً جديداً من الألفاظ ، فتضع بدل ألفاظ أصبحت تؤدى فى الأذهان صوراً مكروهة ألفاظاً لا تثير هذه الكراهية لجدتها ، فسموا الضرائب الشخصية ضرائب عقارية ، والمعونة ضرائب غير مقررة وهكذا[٦] » .

فللألفاظ أعمار وأطوال تختلف فيها دلالاتها ، ومن الخطأ أن يَنْكبَّ الأديب على معجمات اللغة يستظهر منها ، أو يعكف على دواوين الشعراء وآثار البلغاء ليحفظ كلمات ويستعملها دون تبصر فيما طرأ عليها من تحوير أو تغيير ، ومن قرأ كتب البلغاء وتصفح دواوين الحكماء ليستفيد المعانى فهو على سبيل الصواب ، ومن نظر فيها ليستفيد الألفاظ فهو على سبيل الخطأ ، والخسران هاهنا فى وزن الربح هناك ؛ لأن من كانت غايته انتزاع الألفاظ حمله الحرص عليها والاستهتار بها إلى أن يستعملها قبل وقتها ، ويضعها فى غير مكانها ، ولذلك قال بعض الشعراء لصاحبه : أنا أشعر منك ، قال صاحبه : ولم ذاك ؟ قال : لأنى أقول البيت وأخاه ، وأنت تقول البيت وابن عمه[٧] .

(٦) روح الاجتماع ١٣٣ .

(٧) رسالة مدح التجار للجاحظ ١٥٩ .

ومن الذى يقرأ اليوم أو يسمع أن فلاناً اشترى سيارة ، فيفهم أنه اشترى قافلة من الإبل ؟ أليس المعنى القديم للسيارة هو ذاك ؟

ولقد يتحول اللفظ من معنى إلى نقيضه ، فمثلا كلمة صُعلوك كانت تدل فى الحياة الجاهلية على الفتى الشجاع المغوار السلاب الذى يقاسم الفقراء ما يَسْلُب[8] ، ولكنها دلت بعد ذلك على الحقير الضعيف المستضعف .

وكلمة Tory الإنجليزية ظلت تدل على المارق السفاك إلى ١٦٨٠ م ثم أخذت تتحول رويداً رويداً إلى أن صارت تدل اليوم على أشد الناس محافظة على القانون ورعاية له .

وإذا ما أصغينا إلى محام يدرأ التهمة عن موكله ، أو سياسى ينافح عن مذهبه أو يهاجم خصمه ، أو قائد يحمس جنده ، أو واعظ فصيح قوى الإيمان ، وجدناهم جميعاً يوقعون على أوتار القلوب ؛ ليجتذبوا السامعين ويستهووا الجموع ، غير متذرعين بالبرهان وحده ، لأنهم يخاطبون القلوب قبل أن يخاطبوا العقول .

وهذا الذى أضفى على خطب مصطفى كامل وسعد زغلول روعة وأكسبها نفاذاً وقوة تأثير .

ومن أمثلة ذلك قول أبى حمزة الخارجى فى خطبته بالمدينة مدافعاً عن أتباعه « فمضى الشاب منهم قُدُماً ، حتى التَفَّتْ رجلاه على عنق فرسه ، واختصبت محاسن وجهه بالدماء ، وعُفِّر جبينه بالثّرَى ، وانحطت عليه طير السماء ، وتمزقته سباع الأرض ، فطوبى بهم وحسن مآب . فكم من عين فى منقار طائر طالما بكى صاحبها فى جوف الليل من خوف الله . وكم من يد قد أبينَتْ عن ساعدها طالما اعتمد عليها صاحبها راكعاً وساجدا . وكم من وجه رقيق ، وجبين عتيق قد فُلِقَ بَعَمَد الحديد . . . »[9] .

---

(٨) راجع الحياة العربية من الشعر الجاهلى للمؤلف ٢٩٩ - ٣٠٦ .

(٩) شرح نهج البلاغة ٣٥٩/١ .

فهنا تخيل مثير ، وأى تخييل أقوى من تصويره أصحابه وقد عفر التراب جباههم ، ونهشتهم السباع والنسور ، والتقطت الطيور عيونهم ؟ وقد زاد هذا التصوير قوة بقوله إن هذه العيون طالما كانت تبكى من خشية الله وتقاه وإن هذه السواعد التى أبينت كانت تكأة لأصحابها فى الصلاة .

٣ – ومن وسائلها اختيار الكلمات القوية النفاذة إلى القلوب ، فى صدد الإثارة أو التهديد أو التحميس ، من ذلك ما جاء فى خطبة أبى جعفر المنصور بعد أن قتل أبا مسلم الخرسانى « إن من نازعنا عُرْوَةَ هذا القميص أجْزرْنَاه خَبىّ هذا الْعَمِدْ(١٠) » .

فكلمة (أجزناه) أقوى من (قطعنا رأسه) مثلا ، لأنها تذكر بذبح الجزار للماشية فى سرعة وفى غير مبالاة ، بل فى مسرة وانتظار للنفع ، (وخَبِىّ هذا الْعَمِد) كناية عن السيف فيها تهويل .

ومن ذلك خطبة الإمام على لما علم أن النعمان بن بشير أغار من قبل معاوية على عين التمر ودعا علىٌّ الناس أن ينهضوا إليه فتثاقلوا .

« يا أهل الكوفة . كلما سمعتم بمَنْسِر من مناسر أهل الشام أظَلَّكُمْ ، انْجَحَر كل امرىء منكم فى بيته ، وأغلق بابه ، انجحار الضَّبٍّ فى جُحْره ، والضَّبُع فى وِجارِها . . . ماذا مُنيت به منكم ، عُمْىٌ لا تبصرون ، وبُكْمٌ لا تنطقون ، وصُمٌّ لا تَسْمعون ، إنا لله وإنا إليه راجعون »(١١) .

فهو يحقرهم لأنهم يخافون من المنسر (عدد صغير من المحاربين) ويزيدهم تحقيراً بقوله (انجْحَرَ . انْجِحَار الضبّ والضّبُع) وذلك يدل على سرعة الفرار إلى المأوى ، وعلى الرعب ، وعلى حقارة الشأن .

ومن التخيل قول مصطفى كامل :

« ليست الحرية بعزيزة المنال على قوم يعملون للحصول عليها ، ويجتهدون فى

(١٠) تاريخ الطبرى ٣١٣/٩ .

(١١) تاريخ الطبرى ٧٧/٦ .

نيلها ، وليس بعزيز على المصريين أن يفكوا قيود بلادهم ، ويعيدوا إليها استقلالها ومجدها ، فالصخرة الضخمة تذوب وتتفتت بسقوط المياه عليها نقطة بعد نقطة[12] » .

وقوله : « مصر التى خيم عليها الشقاء ، وحلّ بها البلاء ، وسبقتها الأمم ، وأصبحت تعد فى مصف الشعوب القاصرة تناديكم وأنتم حولها : ألا فانصرونى يا أعز البنين ، ألا فارفعوا شأنى بين الأمم ، واجعلوا لى مكاناً فسيحاً بين الشعوب المتقدمة الحية .

إنكم تحبونها ، ويجب عليكم أن تحبوها ، وتحنُوا عليها كما يحنو المرء على أمه لشفيقة إذا اعتلت ، ويسعى فى خدمتها ، ويبحث عن دوائها[13] .

ومنه قول محمد فريد يوم انتخابه خلفاً لمصطفى كامل[14] :

« إن الدموع التى سكبت من يوم وفاته إلى اليوم ، والتى روت جدثه يوم دفنه لكافية لإرواء هذا النبت وتغذيته .

مات رئيسنا فى ساحة الوغى ، كالقائد يعالج سكرات الموت ، ويده تشير إلى جنده بالتقدم إلى الأمام ، ولسان حاله يقول : لا ينسينكم موتى مركزنا الصعب ، بل سيروا بكل شجاعة وإقدام ، واحملوا على من يعترضكم فى طريقكم حملة الأسد يدافع عن عرينه ، والوالدة عن فلذة كبدها » .

٤ – وإذا كان الخطيب يعمد إلى التأثير السريع فإن الجمل القصار أنسب ؛ لأنها سريعة الأداء ، سريعة الفهم ، متلاحقة الأثر ، مثلها مثل الطرقات المتوالية على الحديد المُحْمَى ، تؤثر فيه وتشكله .

والمراد بالجُمل القصار أن تكون وسطاً بين القصر والطول . لأن العبارات

---

(١٢) مصطفى كامل للرافعى ٤١٠ .
(١٣) المرجع السابق ٤٤٠ .
(١٤) محمد فريد للرافعى ٤٤ .

الطويلة بطيئة التأثير مملة للسامع ، مجهدة للخطيب فى إلقائها ، والعبارات القصيرة المفرطة فى القصر متلاحقة مفاجئة مجهدة للسامع فى تتبعها .

من الجمل القصار قول زياد فى خطبته بالبصرة : « قرّبتم القرابة ، وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العُذْر ، وتُغضُون على المختلس ، كل امرىء منكم يَذُب عن سفيهه ، صنيعَ من لا يخاف عاقبة ، أو لا يرجو مَعادا . .

وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرّق قوما غرّقناه ، ومن أحرق قوما أحرقناه ، ومن نَقَبَ بيتا نَقَبْنا عن قلبه ومن نبش قبراً دفنّاه حيًّا فيه[١٥] » .

٥ – والتشابه والتطابق لهما أثر عظيم فى إثارة الشعور ، لأن التماثل أو التضاد يشعر بالفارق ويوضح المعنى ، ويفسح المجال للخيال .

من التشابه قول زياد فى خطبته السابقة : « وقد أحدثتم أحداثا لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرّق قوما غرّقناه ، ومن أحرق قوما ما أحرقناه ، ومن نقَبَ بيتا نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفناه حيًّا فيه » .

ففى هذا التهديد مشاكلة بين العقاب والجرم ، وتخييل مفزع ، وخاصة فى تهديده بشق صدر اللص الذى ينقب البيوت ، وبدفن لص المقابر حيا فى المقبرة التى كان ينبشها .

ومن التطابق قول الإمام علىّ ، وقد أغار الضحاك بن قيس على الحيرة من قبل معاوية ، واستنجدهم الإمام فتقاعدوا : « أيها الناس المجتمعة أبدانهم المختلفة أهواؤهم ، كلامكم يُوهِى الصمّ الصِّلاب ، وفعلكم يُطمِع فيكم الأعداء . تقولون فى المجال كَيْتَ وَكَيْتَ ، فإذا جاء القتال قلتم حِيدى حَيَادِ[١٦] » .

---

(١٥) صبح الأعشى ٢١٦/١ .

(١٦) شرح نهج البلاغة ١٥٢/١ .

هنا تطابق بين اجتماع الأبدان وافتراق القلوب ، وبين قوة كلامهم وضعف دفاعهم ، وبين جرأتهم على الخوض فيما لاحق لهم فيه ، وجبنهم إذا جد الجد .

٦ – ومما يحقق للخطيب التأثير ، وينفخ فى أسلوبه حياة متجددة أن يراوح بين الإخبار والإنشاء ، حتى لا يكون أسلوبه على وتيرة واحدة فيمل ، وحتى يجدد نشاط السامعين بهذه المغايرة ، ويصور فى دقةٍ أحاسيسه ومشاعره ، فإن المعانى المنوعة والانفعالات المختلفة فى حاجة إلى أساليب متغايرة تفصح عنها .

عليه أن يتخير الأسلوب الملائم للمعنى ، من خبر وأمر ونهى واستفهام وتعجب الخ ، لأنه بذلك يحقق ما سبق ، ويحقق شيئاً آخر هو أن هذه المغايرة فى الأسلوب ، تستتبع مغايرة فى نبرات الصوت وطريقة الإلقاء ، والوقفة والإشارة ، وهذا كله عون على الوضوح من ناحية ، وعلى التأثير من ناحية . من ذلك قول الإمام على فى خطبة له :

« أصبحت والله لا أُصدِّق قولكم ، ولا أطمع فى نصركم ، ولا أوعد العدو بكم ، ما بالكم ؟ مادواؤكم ؟ ما طبكم ؟ القوم رجال أمثالكم . أقوالا بغير علم ؟ وغفلة من غير ورع ؟ وطمعاً فى غير حق[17] » .

فهنا إخبار بتكذيبه لهم ويأسه من نصرهم ، مع تعجب من حالهم ، ثم زراية بهم ، ثم تعجب وإنكار لقولهم بغير علم ، وطمعهم فى غير حق .

ومن ذلك قول أم الخير بنت الحُرَيْش تحرض جند علىّ يوم صفين :

« صبراً يا معشر المهاجرين والأنصار ، قاتلوا على بصيرة من ربكم ، وثبات من دينكم ، فكأنى بكم غداً وقد لقيتم أهل الشام كحُمُرٍ مُسْتَنْفِرة ، فرت من قَسْوَرَة ، لا تدرى أين يسلك بها من فجاج الأرض ، باعوا الآخرة بالدنيا . واشتروا الضلالة بالهدى ، وعما قليل ليصبُحنَّ نادمين[18] » .

---

(١٧) شرح نهج البلاغة ١٥٣/١ .
(١٨) صبح الأعشى ٢٤٨/١ .

ومنه قول مصطفى كامل :

« يفاخر الإنجليز على الدوام بأنهم أغنوا البلاد ، وملأوها ذهبا .

فما قيمة الثروة التى يفاخرون بها بجانب الحرية الشخصية والحرية العامة ، وسيادة المصرى فى بلاده ، واستقلاله فى وطنه ؟

ومن من المصريين لا يفضل أن يكون أفقر الناس جميعا ، وحكومة بلاده قائمة على العدل الصحيح ، على أن يكون أغناهم وأثراهم وهو مهدد من المحتلين بعقوبات دنشواى ؟

وإذا كان من المسلَّم به أن ارتفاع أثمان أراضى الزراعة تابع لثمن القطن ، وأن هذا خاضع لطلبات العالم ولحاجة الناس إلى القطن المصرى بنوع خاص ، ولقلة المحصول الأمريكى ، وللمضاربة ، فما أثر الإنجليز فى هذه الثروة ؟

إن الذى يفاخر بزيادة الثروة وبوصول مالية الحكومة إلى مركز سام يجب عليه قبل كل شئ أن يعدد الأعمال العامة والمنافع المختلفة التى عادت على القطر من هذه الزيادة .

فهل يستطيع الإنجليز أن يدعوا أنهم رقوا الفلاحين ، ونشروا نور المعارف بينهم ، وهم الذين سدوا أبواب المدارس فى وجوههم ؟

ما فائدة الأموال التى تجمع والخزينة التى تملأ بالذهب الوهاج إذا كانت الأسوار قائمة بين الفقراء والعلم ، والأحوال الصحية على أسوأ حال ، والعدل مزعزع الأركان ، والمصرى لا يملك فى بلاده نفوذاً ، ولا يسمع له صوت ، والأمن مختل أى اختلال[١٩] » .

---

(١٩) محمد فريد للرافعى ٤٩١ .

— ٤ —

الموسيقى

من صفات الأسلوب الخطابى الرفيع أن يكون موسيقيا رنانا ، ليكون خفيفا على اللسان ، حسن الوقع فى الآذان .

وسائل الموسيقى :

ولقد تساعد على موسيقى الأسلوب عدة عوامل :

١ — منها انسجام الحروف وحلاوة جرسها ، وائتلاف الكلمات وتلاؤم فِقرها وإيقاعها ، فتطول الجملة وتقصر طوعا لحركة الفكر وحالة العاطفة .

فعاطفة السرور تقتضى الإبطاء ، وعاطفة الغضب تقتضى الإسراع والتدفق ، وخطبة المحامى وهو يدلل ويطبق القانون غير خطبته وهو يستميل القضاة ويستدر إشفاقهم ، وخطبة السياسى وهو يناقش نصوص معاهدة أو برنامج حكومة غير خطبته وهو يستثير الجمع .

٢ — ولهذا حلا السجع والازدواج فى بعض الخطب مادام بريئا من التكلف ، كما ترى كثيراً فى خطب الإمام على . قال أبو هلال : « لا يحسن منثور الكلام ولا يحلو حتى يكون مزدوجا ، ولا تكاد تجد للبليغ كلاما يخلو من الازدواج[1] » . . وقال : « واعلم أن الذى يلزمك فى تأليف الرسائل والخطب هو أن تجعلها مزدوجة فقط ، ولا يلزمك السجع فيها ، فإن جعلتها مسجوعة كان أحسن ، مالم يكن فى سجعك استكراه وتنافر وتعقيد » .

وإذا كان السجع عفواً أولا أثر فيه للتكلف والتعمل ، كان له وقع حلو فى الأذن ، وسلطان على النفس ، « واعلم أن السجع لو كان عيباً لكان كلام الله

---

(١) الصناعتين ٢٤٩ .

معيبا ؛ لأنه مسجوع كله ذو فواصل وقرائن . . . وأكثر خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجوع كقوله : « إن مع العز ذلا ، وإن مع الحياة موتا ، وإن مع الدنيا آخرة ، وإن لكل شئ حسابا ، ولكل حسنة ثواباً ، ولكل سيئة عقابا » . . فأكثر هذا الكلام مسجوع كما تراه ، وكذلك خطبه الطوال كلها . فأما قولهم إن السجع يدل على التكلف فإن المذموم هو التكلف الذى تظهر سماجته وثقله للسامعين ، فأما التكلف المستحسن فأى عيب فيه ؟ ألا ترى أن الشعر نفسه لابد فيه من تكلف إقامة الوزن ، وليس لطاعن أن يطعن فيه بذلك[2] » .

وأما قوله عليه الصلاة والسلام : – لمن استنكر حكمه فى الجنين بغرة وقال : أأدى من لا شرب ولا أكل ، ولا نطق ولا استهل ، ومثل هذا يطَلّ ؟ – أسجعاً كسجع الكهان ؟ فإنما أنكر عليه السجع الذى يسجع الكهان أمثاله ليموهوا به على الناس ، وهو يريد أن يؤكد تحريم العمل بأقوال الكهان ، والخضوع لكلامهم وأحكامهم[3] » .

والأمثلة كثيرة على شيوع السجع فى الخطب .

---

(٢) شرح منهج البلاغة لابن أبى الحديد١/٤٢ .

(٣) شرح منهج البلاغة ١/٤٢ .

— ٥ —

القياس المضمر

يكثر القياس المضمر فى أسلوب الخطبة .

وهو قياس حذفت إحدى مقدمتيه ، مثل : هذا الرجل مجد ، فهو ناجح . حذفت المقدمة الكبرى (كل من يجد ينجح) ، ومثل كل المعادن تتمدد بالحرارة ، فالنحاس يتمدد بالحرارة ، حذفت المقدمة الصغرى وهى (والنحاس معدن) .

ولعل السبب فى شيوع هذا الأسلوب فى الخطابة أن الخطيب يخشى أن يناقش السامعون المقدمة المحذوفة ، فيسقط أو يضعف دليله الخطابى ، أو أنه يعتمد على ذكاء السامعين وبديهتهم فى إدراك المقدمة المحذوفة والربط بين المقدمتين ، أو أنه يغالط السامعين بأن يوحى إليهم ويلزمهم بأنهم موقنون بصحة المقدمة المحذوفة ، لأنها حقيقة يجب أن يسلموا بها .

على أن المقدمة قد تحذف لأنها معلومة ، فلا مدعاة لذكرها أو إثباتها ، فالمستمع يعلمها ويقدرها بداهة ، كأن نريد أن نستنتج أن فريق الكرة نال الكأس ، فيكفى أن نقول إنه تفوق على منافسه فى اللعب ، لأنه لا فائدة فى قولنا إن المتفوق ينال الكأس ، إذ أن ذلك معلوم بالعرف وعادة .

هذا القياس المضمر أصلح للخطابة كما قرر أرسطو فى قوله : « لا شك أن المنهج فى الخطابة يستند إلى الأدلة ، والدليل برهنة ؛ لأننا إذا قبلنا دليلا من الأدلة افترضنا أنه فرغ من البرهنة عليه ، ومن ناحية أخرى البرهنة الخطابية هى القياس المضمر ، والقياس المضمر هو أرقى الأدلة وأفضلها ، وهو نوع من القياس العام »[1] .

---

(١) الخطابة لأرسطو ١/ ٩٤ .

ولكن ذلك لا ينفى أن القياس الكامل قد يوجد فى الخطبة ، فمثلا خطب أبو جعفر المنصور بعد قتله أبا مسلم فقال : « إن من نازعنا عروة هذا القميص أجزناه خَبىءَ هذا الغِمد ، وإن أبا مسلم قد بايعنا ؛ وبايع الناس لنا على أنه من نكث بنا فقد أباح دمه ، ثم نكث بنا ، فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا »[٢] .

والقياس الكامل هو : كل من غدر بنا قتله أبو مسلم .

وأبو مسلم غدر بنا .

فهو يستحق القتل .

ومن القياس المضمر الذى حذفت فيه المقدمة الكبرى ، قول داود بن على فى بنى أمية لما سقطت دولتهم :

« تبًّا تبًّا لبنى حرب بن أمية وبنى مروان ، ركبوا الآثام ، وظلموا الأنام ، وانتهكوا المحارم ، وغَشُوا الجرائم ، . فأتاهم بأس الله بَياتاً وهم نائمون »[٣] .

فالقياس هنا : عصوا الله فأهلكهم .

والمقدمة الكبرى (كل من عصى الله أهلكه) محذوفة لأنها مفهومة معلومة .

ومن أمثلته أيضاً قول الحارث بن عبد الرحمن الغفارى فى وفد الشام يعتذر إلى المنصور بعد هزيمة عبد الله بن على : « فإن تعاقبنا فيما أجرمنا ، وإن تعف عنا فبفضلك علينا[٤] » .

وكذلك قول داود بن عيسى فى خطبته يدعو إلى خلع الأمين : « قد علمتم وعلمنا أن محمد بن هارون قد بدأ بالظلم والبغى والغدر ، وخالف الشروط التى أعطاها من نفسه فى بطن البيت الحرام ، وقد حل لنا ولكم خلعه من الخلافة[٥] » .

---

(٢) تاريخ الأمم والملوك للطبرى ٩/ ١٢٦ .

(٣) تاريخ الطبرى ٩/ ٣٠٧ .

(٤) تاريخ الطبرى ٩/ ٣٠٧ .

(٥) تاريخ الطبرى ١٠/ ١٧٠ .

الفصل السابع

الإرتجال والإعداد

ما الارتجال ؟ ارتجال التفكير محال . وارتجال التعبير نادر . مزايا الارتجال . عيوبه . مواضعه . مزايا الإعداد . عيوبه . مواضعه . أكثر الخطباء قديماً وحديثاً يعدون خطبهم . الجمع بين الأرتجال والإعداد . طريقة الإعداد

الارتجال :

الارتجال هو التدفق بالكلام عفو الخاطر من غير إعداد ، وقد كان ميسوراً وطبيعيا عند العرب ، إذ أن أكثر خطبهم كانت عن بديهة وارتجال وكأنها إلهام ، أما اليوم فهو نادر فى الأمم كلها ، لأن الخطيب العصرى لا يقدر أن يخطب فى موضوع يجهله ، فإن كان على علم به لكثرة ما فكر فيه أو قرأ عنه ، أو سمع به فإنه كالمعِدِّ له ، وإن كان خالى الذهن عن الموضوع عجز عن الاسترسال فيه خطيباً . فارتجال الفكرة يكاد يكون مستحيلا ، وارتجال التعبير عن فكرة مدروسة ليس كثيراً . قال الدكتور تولوز – وهو من علماء النفس والأخلاق – « إن الارتجال آفة الخطابة ، لأنه يلقى المعنى دون أن ينضج بالتفكير » .

وليست الخطابة اليوم – كما كانت فى الزمن القديم – كلاماً يُلْقَى من وَحْى الفطرة ، بل هى اليوم فن له قواعده وأصوله ، فمن واجب الخطيب أن يدرس موضوعه ويعده ، أو يرسم معالمه وطريقة تناوله ، ثم يرتجل . ومما يساعده على الارتجال أن يكون جرئ القلب ، غزير الاطلاع ، سريع البديهة ، حاضر الذهن ، ثريا باللغة ، واثقا بنفسه وبتوفيقه .

ولقد يضطر الخطيب إلى الارتجال اضطرارا ، كأن يكون فى حفل ويدعى فجأة إلى الكلام ، أو فى جمع ويحدث حدث يستدعى منه المقال ، أو يكون قد أعد خطبته ولكن حدث ما أنساه بعضها فيرتجل وكأن الخطبة كلها فى ذاكرته .

ومن مزاياه فوق ذلك أنه يعين الخطيب على تغيير خطبته مطابقة لما يجدُّ من أمور ، لأنه إن تقيد بما أعده وحفظه أفلتت منه فرص كثيرة من الخير أن ينتهزها ، وقيد نفسه بمتابعة تفكيره هو لا تفكير السامعين .

على أن بعض الخطب لا يلائمه إلا الارتجال ، فحيثما كانت إثارة واستمالة وعاطفة متدفقة كان الارتجال وسيلة الخطيب ، فالخطبة الحربية فى الميدان ، والخطبة الدينية الواعظة ، والناحية التأثيرية من الخطبة القضائية والسياسية ، وخطب التهنئة والترحيب – هذه كلها يجب أن تكون مرتجلة لا معدة لأن الإعداد يضعف تأثيرها . ويخون بين الخطيب والتدفق ، ويغله عن استغلال الظروف الطارئة ، ومتابعة نفسية السامعين .

الإعداد :

وللإعداد مزايا ؛ لأن الأساليب المرتّجلة أقل بهاء ورونقا من المعدَّة ، أما الأفكار المرتجلة فإنها فجة مبتسرة إذا قيست بالأفكار المدروسة الناضجة المختمرة ، ثم إن ظهور الخطيب أمام الجمع بمظهر المجازف الذى لم يُعِد القول فيه اعتداد بالنفس ، واستهانة بالحاضرين ، وتبجح بعدم الاهتمام ، ودعوى أن خاطر الخطيب أسرع من خواطر الناس ، وهذه كلها صفات لا ترتضيها الجماعات .

ولقد يعسر على المرتجل تفكيراً وتعبيرا أن يعالج الموضوع ، وأن يصل منه إلى نتيجة ، فهو كساع إلى الهيجا بغير سلاح ، أو كهائم لا يعرف وجهته ولا المسالك إليها .

ويـرتجل الكلام وليس فيه سوى الهذيان من حَشْو الخطيب

وكان كثير من البلغاء القدامى يعدون خطبهم ويهذبونها ، ويتمرنون على إلقائها . هكذا كان يفعل شيشرون . وكان كانتليان من أساتذة الخطابة عند اللاتين يرى أن الارتجال لا يتهيأ للمرء إلا فى آخر عمره بعد أن يكون قد تدرب وتمرن ، وكتاب الجمهورية لأفلاطون يوضح أن جميع خطباء أثينا كانوا ينمقون

العبارات قبل أن يلقوا خطبهم ، ولذا تتراءى فيها آثار التعمل والتنقيح والإعداد .

وكان محظوراً على غير المتقاضين أن يترافعوا فى المحاكم ، فاحترف السفسطائيون بإعداد الخطب وبيعها لأصحاب القضايا ، ليستظهروها ويلقوها فى المحاكم ، «كانوا يجلسون على أفواه الطرق إلى جانب المحاكم ، يمدون المتقاضين بخطب الدفاع ، وبخاصة بعد انتشار الكتابة فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وكان السفسطائى – المحضر للخطابة أو صانع الخطب كما كانوا يسمونه – قوياً فى القانون وفى البلاغة والتحرير ، فيكتب الخطبة للمتقاضين وهم يحفظونها عن ظهر قلب ، ليفرغوها من أدمغتهم أمام القضاة[1] » .

ولهذا قل المرتجلون فى اليونان ، وقل فيهم من يجسر على الخطابة قبل التروية والتملى فى موضوعه ، لأنه يخشى نقد السامعين لخطبته .

ومما يدل على شيوع الإعداد فيهم أن كثيراً من خطبهم وصلت إلينا مكتوبة فى وقت لم يكن الاختزال فيه معروفاً كما هو الآن ، فلا نظن أن بعض الكتاب كانوا يكتبون اختزالا والخطيب يلقى .

وكان الارتجال فى الحياة العربية الجاهلية أكثر شيوعاً من الإعداد أو أكثر من ارتجال العصور اللاحقة ، وقد مر بنا أن الجاحظ يثبت للهند بلاغة وللفرس بلاغة ولغيرهم من الأعاجم بلاغة ، « وعنده أن البلاغة هى الخطابة أو أن الخطابة فى الأقل أكبر مظهر من مظاهرها »[2] . ويثبت الفضل للعرب فى الارتجال وقلة المعاناة ، وينسب إلى غيرهم التحضير والإعداد ولكنا نخالفه فى أن يشمل هذا الحكم الحياة الإسلامية ، فإن الإعداد فيها كان أكثر شيوعاً من الارتجال ، فمثلا فى حديث السقيفة أن أبا بكر رضى الله عنه قال إنه – فى طريقة من بيت الرسول عليه الصلاة والسلام إلى سقيفة بنى ساعدة – كان يُزَوِّر (يعد) كلاماً ليقوله فى الجمع .

(١) تاريخ البلاغة والنقد للدكتور إبراهيم سلامة ١٤

(٢) تاريخ البلاغة والنقد للدكتور إبراهيم سلامة ١٤ .

وقد حدث عمر بن الخطاب الناس عن السقيفة فيما بعد ، وجاء فى حديثه أنه كان زَوَّر (أعد) مقالة قد أعجبته يريد أن يقولها قبل أبى بكر[٣] .

وفى البيان التبيين للجاحظ ما نفهم منه أن بعضهم كان يعد خطبه فى أوراق ، فمثلا يقول أبو مسمار العكلى :

لله دَرُّ عامرٍ إذا نَطَقْ فى حَفل إملاك وفى تلك الحَلَقْ
ليس كقوم يُعْرَفُونَ بالسَّرَق من خُطَب الناس ومما فى الورق
يُلَفقون القول تلفيق الخِرَقْ من كل نَضَّاح الذَّفَارَى بالْعَرَق
إذا رمته الخُطباء بالَحدق[٤]

ويورد أبياتاً لبشار فى مدح واصل بن عطاء — وذلك قبل أن يدين بشار بالرجعة ويكفر جميع الأمة — ونستنتج أن واصلا كان يرتجل ، وغيره يحضر .

تكلفو القول والأقوام قد حَفَلُوا وحَبَّروا خطباً ناهيك من خطب
فقام مرتجلا تَغْلِى بداهته كمرجل القَيْنِ لما حُفَّ باللهب
وجانَبَ الراء لم يشعر بها أحد قبل التصفُّح والإغراق فى الطلب

وقال أيضاً :

فهذا بديهةٌ لاكتحبير قائل إذا ما أراد القول زوَّره شهراً[٥]

وكان البَعِيث الشاعر من أخطب الناس ، وهو الذى يقول : « إنى والله ما أرسل الكلام قضيباً خشيباً ، وما أريد أن أخطب يوم الحفل إلا بالبائت المحكَّك » .

وأرادوا عبد الله بن وَهْب الراسى على الكلام يوم عقدت له الخوارج الرئاسة فقال : « وما أنا والرأى الفطير والكلام القضيب ؟ » .

---

(٣) سيرة ابن هشام ٣٣٩/٤ .
(٤) البيان والتبين ١٣٣/١ المراد بالذفارى هنا جسم الخطيب .
(٥) المرجع نفسه ٢٤/١ زوره أصلحه وهيأ .

وقيل لابن التوأم الرَّقاشي : تكلمْ . فقال ما أشتهى الخبز إلا بائتاً[٦] فالعرب يرتجلون ويُعدون ، ولكنهم أكثر ارتجالا من غيرهم ، لأنهم بطبائعهم وظروفهم أميل إلى الارتجال من الإعداد ، وقد تقدمت أسباب ذلك فى دواعى الخطابة عندهم .

ولما ظهرت الثورة الفرنسية شاع الارتجال ، ولكن شيوعه لم يمنع ميرابو أن يكتب أكثر خطبه قبل إلقائها ، وكذلك فعل روبسبير .

وما من شك فى أن خطباء العصر الحديث يعدون خطبهم إن لم يكن تعبيراً فإيجاداً وتنسيقاً وتفكيراً ، وهم يعترفون بقيمة الإعداد ، كالمحامى لابورى ،

وهنرى روبير ، وفيفيانى ، وجورس ، وغيرهم قال هنرى روبير : « أنا لا أعمل والقلم فى يدى ، ولكنى لا أنقطع عن التفكير أينما وُجدت ، ولا يزال دماغى فى عمل مستديم فتتوارد الجمل على خاطرى وأرددها فى باطنى[٧] »

وزعيم المرتجلين فى الشرق سعد زغلول .

أما سعد فقد كان يخطب الساعات فى الأيام المتوالية فى الوفود التى تهرع إليه من شتى أنحاء القطر ، ويخطب مرات فى كل يوم ، ولا سيما حين حورب الوفد المصرى ، وأغلقت صحفه ، واستمر سعد على ذلك أشهرا ، وكلما طال بالارتجال عهده أبدع وأجاد . على أن ارتجاله إنما كان فى التعبير لا فى التفكير ، لأن الموضوعات التى تعالجها خطبه مفهومة له معلومة قد درسها ومحصها وأحاط بها ، لأنها سياسية وهو محور السياسة وزعيم الشعب .

وقد اشتهر بالارتجال فى كثير من المناسبات ، إذ كان يخطب فى أيام متوالية خطباً كثيرة طويلة يخيل إلى من يسمعها أنها معدة ، وهى فى الحقيقة مرتجلة ، وقد ساعده على ذلك أنه دارس للقضايا السياسية دراسة عميقة بصيرة ، وأنه ألف التجاوب مع الجماهير ، واعتاد أن يصارحها بما فى نفسه .

---

(٦) البيان والتبيين ٢٠٤/١ كلام قضيب : مرتجل . خشيب : ردئ لم يعد .

(٧) الخطابة للدكتور نقولا فياض ١٣٠

والإعداد – فى الشعر وفى الكتابة – سمة للإنتاج البليغ فى كثير من الأحيان ، والناس لا يسألون عن هذا الإنتاج فى كم يوم تم ، وإنما يُعجَّبون به ويمتدحون صاحبه ، وما من أحد يسأل اليوم : كم ساعة أو يوماً كان يقتضيها المتنبى وشوقى فى نظم القصيدة ، أو على بن أبى طالب والحجاج فى تنسيق الخطبة ، أو الجاحظ والمنفلوطى فى تحبير المقالة ، فرب بيت منقح خير من ألف ، ورب سطر مجيد خير من كتاب .

قال بعض الشعراء لرجل : أنا أقول فى كل ساعة قصيدة وأنت تقرضها فى كل شهر ، فلم ذلك ؟ قال : لأنى لا أقبل من شيطانى مثل الذى تقبله من شيطانك [8] .

وروى أن الشاعر أبرخس جاء يوما إلى هوميروس يفاخره بكثرة شعره وسرعة عمله ، ويُعَيِّره قِلةَ شعره وبطأه ، فقال هوميروس : بلغنى أن خنزيرة بأنطاكية عيرت لبؤة بطول زمن الحمل وقلة الولد ، وفاخرتها بالكثرة ، فقالت لها اللبؤة : لقد صدقتِ ، إنى ألد الولد بعد الولد ولكنه أسد .

واشتهر كثير من أدباء العرب بالتنقيح ، وافتخروا به ، فقصائد زهير تسمى الحوليات ، والحطيئة يقول خير الشعر الحَوْلِىُّ المحكَّك .

« ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كاملا وزمناً طويلا ، يردد فيها نظره ، ويقلب فيها رأيه . . . [9] » واستحسنوا أن تنقح الخطبة التى تنشد فى يوم الحفل [10] ، لأن تجويد التصوير يستدعى تجويد التفكير كما يرى (فلوبير) الكاتب الفرنسى المُفْتَنُّ ، فقد كان لا يكرر صوتاً فى كلمة ، ولا يعيد كلمة فى صفحة ، وكان يتلو ما كتب بصوت إيقاعى ليؤلف بين الحروف والكلمات ، ويوفق بين السكنات والحركات .

---

(٨) البيان والتبيين ٢٠٦/١

(٩) البيان والتبيين ٩/٢

(١٠) المرجع نفسه ١٤/٢

وإذا كان الارتجال ضرورياً فى بعض الخطب كما قلنا ، فإن الإعداد ضرورى فى بعضها الآخر ، على تفاوت فى طريقته والحاجة إليه . فالخطب السياسية لامندوحة من إعدادها ، وأى خطيب سياسى لايعد خطبته إيجاداً وتنسيقاً فالإخفاق نصيبه ، على أن بعض الخطب السياسية يعوزها الإعداد إيجاداً وتنسيقاً وتعبيراً ، لحاجتها إلى دقة التعبير ووزن الألفاظ ، كخطب المعاهدات وبعض خطب المؤتمرات الدولية ، فهذه تعد إعداد كاملا .

والناحية التطبيقية على القانون — فى الخطبة القضائية — لابد من إعدادها إعداداً كاملا أيضاً تتجلى فيه الثقافة القانونية والثقافة العامة .

الجمع بينهما :

من الخير إذاً أن يجمع الخطيب بين الإعداد والارتجال ، فيعد موضوعه . ثم لا يتقيد بما أعد ، بل يتصرف كما تملى عليه الظروف ، وحينئذ تمده ذاكرته بما قد أعده ، وتسعفه بديهته بالجديد الذى لم يعده .

قال عبد الله بن المعتز :

والقول بعد الفكر يؤمن زَيْغُهُ ... شَتَّانَ بين رَوِيَّةٍ وبديهِ

وقال ابن الرومى :

نار الرَّوية نارٌ جدُّ مُنْضِجة ... وللبديهة نار ذاتُ تلويح

وقد يُفَضِّلها قومٌ لسرعتها ... لكنها سرعة تمضى مع الريح[11]

طرق الإعداد :

للخطباء فى إعداد خطبهم طرق شتى ملائمة لميلهم واستعدادهم وتجاربهم ، فمنهم من يكتبها وينقحها كأنها مقال أو بحث ثم يستظهرها ، ومنهم من ينطق بالعبارات كأنه يملى ، ثم يقيد بعد ذلك ، ومنهم من يستعد فى تفكير صامت كأنه يسمع صوتاً من باطنه ، ومنهم من يعد جالساً ، ومن يعد واقفاً أو متمشيا

---

(11) العمدة لابن الرشيق ١٢٩/١ .

الخ . وخير للخطيب الذى أعد خطبته كتابة أو نطقا أن يخط ما تجود به قريحته ، ثم يتأنق فى تهذيبها وهو يُبيِّضها .

وربما لا يحتاج الخطيب إلى كتابة خطبته بعد التفكير فيها وتنسيقها ، بل يكتفى بتقييد عناصرها إن كان من ذوى البديهة الحاضرة والمرانة .

وخير طريقة للإعداد أن الخطيب يعد خطبته – إن كانت مما يحتاج إلى إعداد – إعداداً كاملا ، ثم يتركها ويرتجل ، أو يضعها أمامه مكتوبة ، ويكتفى باللمح الخاطف بحيث يستوعب الصفحة فى نظرة دون أن يشعر الجمهور بأنه يلمح ، لأن الموضوع مادام واضحا فى ذهنه ومدروسا ، فإنه ينبع من عقله الباطن دون عناء ، ولكنه فى طريقة اللمح هذه يكون أكثر وضوحا وأسرع نبعا وفيضا .

الفصل الثامن

الخطابة فى تصور الأمم

تتأثر الأمم بهبات أفرادها ، وطبيعة بلادها ، ونظمها الاجتماعية السياسية والدينية والاقتصادية ، وحال لغتها ، وصلتها بغيرها من جيرانها الخ فتسلك فى حياتها مسالك ربما تنفرد بها ، أو تنحو مناحى تمتاز بها وتنطبع بطابعها ، ولذا قد تختلف فى تصور شئ واحد ، كما اختلفت مثلا فى تصورها للخطابة .

— ١ —

اليونان

كانت بلاد اليونان جمهوريات صغيرة ، يكاد بعضها ينعزل عن بعض ، لوعورة الأرض ، وصعوبة الاتصال ، واليونان ذوو عواطف جياشة ، ومشاعر حساسة ، وخواطر مسعفة ، وميل إلى الافتنان فى بلاغة الكلام ، وإلى النظر العام ، والتفكير المرتب ، ينظر اليونانى إلى الموضوع نظرته إلى كلى ، فيتناوله بالبحث والتحليل العقلى المنطقى الذى يربط الأسباب بالمسببات والعلل بالمعلولات ، فهو إذاً يتفلسف .

ولهذا كثر فيهم خطباء الفطرة ، قبل أن يشرق العلم والفلسفة من أثينا . فلما شعت أنوار العلم والفلسفة ، وازدانت أثينا وغيرها بالعلماء والفلاسفة والشعراء والفنانين ، وقويت الديمقراطية فى جميع المدن ، وتنافس الأفراد ، وتطاحنت الأحزاب ، وكثر النزاع والتقاضى أمام المحاكم الشعبية ، شاع الجدل السياسى والقضائى ، فاشتدت الحاجة إلى تعلم الخطابة ، واحتكر تعليمها وتعليم البيان

جماعة من الفلاسفة هم السفسطائيون فى النصف الثانى من القرن الخامس قبل الميلاد .

كان السفسطائيون يعتمدون على الفن الخطابى فى نشر الأفكار وتأييدها ، ولم تكن الحقيقة نفسها هدفاً يقصدون إليه ؛ إذ قامت فلسفتهم على أن الحقائق أمور نسبية لا وجود لها فى عالم دائم التطور والتغير ، بل كانت المنافع هى الهدف .

وهذا هو السبب فى اعتمادهم على الفن الخطابى ، والبيان المنمق الأخاذ أكثر من اعتمادهم على التدليل والبرهان الملزم . وكانوا ينبثون فى بلاد اليونان يدعون إلى آرائهم ، ويستميلون الشباب بخطبهم ، ويزلزلون عقائده وآراءه ، بما يلقون من خطب فى المحافل والمجتمعات .

وهم فى نشاطهم هذا يضعوا للخطابة أصولا وقوانين نظرية ، بل مارسوها ممارسة عملية واقعية .

ومهما يكن الرأى فى فلسفة السوفسطائيين فقد كان تأثيرهم عظيما فى ترقية الخطابة ، والبراعة فى الدفاع عن الفكرة وعن ضدها ، فكان السوفسطائى إذا تناول الطرف الراجح فى موضوعه قواه وأبرزه فى صور فنية من الخيال أو الجمال ، وإذا تناول الطرف المرجوح وصل به إلى درجة اليقين ، وكان الإعجاب بقلب الحقائق فى الموضوع لا يقل عن الإعجاب بالتصوير الذى يبرز العبارات فى ثوب جميل جذاب .

والذى يدرس كتاب الخطابة لأرسطو يجده قد انتفع بهم حينما تعقبهم ، لأنه لم يستطع أن يسير سيراً منطقياً بحتاً فى خطته الخطابية ، بل سلم بالمظنونات والمحتملات ، ليكون منها أدلة لها قوة الأدلة المنطقية المؤسسة على البديهيات والقواعد العلمية المقررة .

ولقد كان سقراط معاصرا للسفسطائيين . وهو فيلسوف حقيقة لا تمويه نهالته دعوتهم ، وتخوف عقباها على الأخلاق والقيم الثابتة المقررة ، فدرس الخطابة ، وأسسها على الجدل ، وأقامها على التدليل ، وبناها على التركيب

والتحليل النفسيين ، وأوجب على الخطيب أن يتعرف نفسية الجمهور ليخطب فيه بما يناسبه ويلائم حالته .

ثم جاء أفلاطون من بعده فسار فى نهجه ، إذ اعتبر الخطابة وسيلة إلى الحق والخير وغرس الأخلاق الفاضلة ، وجعل عدة الخطيب فضله وسمو نفسه ، إلى مقدرته البيانية وسرعة بديهته .

ثم ألف أرسطو فى الخطابة كتابه العظيم ، وضع فيه من قواعدها وأصولها وأنواعها وأقسام أدلتها ما جعل كتابه دستوراً للخطابة ومرجعاً للدارسين إلى اليوم .

وكان من أثر هذا أن امتزجت الفلسفة بالخطابة ، وأن تمثلت البلاغة فى الخطابة ، فصارت الخطابة فناً له قواعده وأصوله وأنواعه منذ ألف أرسطو كتابه الخطابة .

وقد امتازت أثينة ببلاغة خطبائها ونفوذهم العظيم ، إذ كانوا يوجهون الحكومة بخطبهم فى مجلس الأمة ، ويقررون إعلان الحرب ، وعقد السلم ، وسن الضرائب ، ويتناولون شئون الدولة العظيمة ، وكان الشعب ينتصح بآرائهم ، وربما عهد إليهم إدارة شئون الدولة ، فقد عين كلون قائداً ، وتزعم ديموستين حرب فيليب .

وإذا كان النظام القضائى يمنع الخطيب (المحامى) أن يدافع عن غيره ، كان صاحب القضية مكلفاً أن يدافع عن نفسه ، فلجأ كثير من أصحاب القضايا إلى خطباء ليعدوا لهم الخطب ، ولهذا راجت الخطابة ، وطالما جاب بعض الخطباء بلاد اليونان ، وخطبوا فى موضوعات متخيلة على جموع الناس فى أندية ومؤتمرات[1] .

وليس أدل على تقدير اليونان للخطابة من أنهم اتخذوا سلما إلى أرق

---

(١) تاريخ الحضارة ١٠١ شارل سنبو بوس .

مناصب الدولة ، ولهذا كان التنافس فى إجادتها على أشده ، وكان الخطباء الممتازون يؤثرون فى نفوس السامعين تأثير السحر .

وإذا كانت الخطابة عندهم عالية القدر حاطوا حماها بسياج يبعد عنه غير الشرفاء ، فحرموا منها الأرقاء والوضعاء والماجنين ومن فى خلقهم مطعن ، كمن عق والديه ، ومن نكل عن الدفاع عن الوطن ، ومن اتجر فيما يأباه الخلق الكريم .

وأجلُّوا الخطابة حتى لقد أعزوا مكان الخطيب ، ورشوه بالماء الطاهر ، إشارة إلى أنه لا يصح أن يحدث فيه عمل أو يتردد قول إلا إذا كان طاهراً نقياً .

ثم بلغ بهم هذا الإجلال إلى أن أقاموا فى معبد دلفيس تمثالا من الذهب الخالص لجور جياس الخطيب السفسطائى .

والأصول العامة للخطابة عندهم :

١ – إعداد الأفكار المقنعة للسامعين .

٢ – تنسيق هذه الأفكار بحيث تترابط ، فتنشئ موضوعا متسلسلا مرتباً متماسكا ، فإذا تناول الخطيب معنى استقصاه ، ثم انتقل إلى غيره .

٣ – العناية بالأساليب ، ولهذا نجد فى خطبهم آثار الصنعة والتهذيب ، لأن الإعداد كان أكثر شيوعا من الارتجال كما سبق .

ومن أشهر خطبائهم ديموسثنيس (٣٨١ – ٣٢٢ ق . م) .

نموذج من خطبه :

قال فى إحدى خطبه الفيليبية التى كان يكافح بها فيلبس وخلفاءه ليصون حرية الإغريق واستقلالهم : « أيها الأثينيون ، حتى متى سكوتكم وإخلادكم إلى التوانى ؟ متى يدب دم الحياة فى عروقكم ، ويسرى الشعور بالواجب فى أعصابكم ، ماذا ترتقبون ؟ أتنتظرون أمراً لم تجربه نواميس الكون ترمى لكم به السماء فى أيديكم ؟ أو أن يدفع بكم الإله (زفس) إلى عمل ما وجب عليكم ؟ عجباً لكم ؟ أى دافع للنفوس الأبية إلى فعل ما وجب عليها أقوىِ من

تهديد كلماتها المجتمعة بالتفريق ، ومجدها المشيد بالنقض ، وشرفها المرتَدَى بالتمزيق ؟ عار لا يزايلكم ولا يواريه الموت معكم ، يوم يواريكم فى حفركم ، أتقنعون بالذهاب هنا وهناك ، يسأل بعضكم بعضاً فى المجامع عما جاءه من الأنباء ؟ فيجيب واحد بأنه مات ، ويقول الآخر : لا والإله (زفس) لم يمت بل هو مريض . فيا عجبا ، عجباً يميت القلب[2] » . . .

وقال فى أخرى : أيها الأثينيون .

اذكروا أن فيليب هو عدو أثينا الألد ، عدوها الذى يكره أرضها وسماءها ، بل يكره منكم حتى أولئك الذين يغتبطون بأنهم نالوا حظوة عندهم .

إن أبغض ما يبغضه فيليب وأخوف ما يتخوفه هو حريتنا ، هو نظامنا الديمقراطى ، وفى سبيل القضاء على هذه الحرية وهذا النظام ما فتئ ينصب الشراك ويدبر المكائد ، هو يعرف حق المعرفة أنه لو أخضع بلاد الإغريق بأسرها ، وبسط عليها سلطانه من أقصاها إلى أقصاها ، لما جعله ذلك منها فى أمن مادامت ديمقراطيتكم سالمة . .

أفى العالم ظلم يجب دفعه ؟ هاكم أثينا .

أفى العالم أمة مقهورة تطلب نصيرا ؟ هاكم أثينا .

أفتعجبون بعد هذا إذا كان فيليب لا يطيق صبراً على هذه الحرية التى تقف منه موقف الرقيب على جرائمه ، المحاسب على آثامه[3] ؟ »

---

(٢) تاريخ اليونان للأستاذ محمود فهمى .

(٣) الخطابة للدكتور فياض ١٦٧ .

- ٢ -

الرومان

هم تلاميذ اليونان فى العلوم والفنون ، تلقوا الخطابة فى مدارس رومانية على أساتذة من اليونان يعلّمون باليونانية .

وكانوا فى أول أمرهم يزدرون الأدب والموسيقى والفنون الجميلة ، وكان كاتو زعيم المقاومين لانتشار الأدب الإغريقى ، والداعين إلى المحافظة على القديم ، فلما مات سنة ١٤٨ ق . م وتم استيلا الرومان على بلاد الإغريق سنة ١٤٦ ق م امتلأت رومة بالمثقفين من اليونان ، فوضعوا حجر الأساس لفنهم الخطابى البلاغى ، وجذبت الخطابة ذوى السراوة منهم ، فأقبل عليها شبابهم طموحاً إلى الصيت البعيد ، واستعداداً للدفاع ، وانحصرت التربية العالية فى منتصف القرن الثانى قبل الميلاد فى (الخطابة) ، حتى قال شيشرون المتوفى ٤٣ ق م « لم يهتم الطلبة فى القرن الأخير فى حكم الجمهورية (انتهت ٢٧ ق م) بدراسة شئ كما اهتموا بتعلم كل ما يعدهم للفصاحة والخطابة » .

فمن الطبيعى إذاً أن يتصور الرومان الخطابة كما تصورها أساتذتهم فى جملتها :

١ – معان معدة ، وأفكار مدروسة .
٢ – تنسيق المعانى ، ووصل بعضها ببعض .
٣ – صياغتها فى أساليب ملائمة للسامعين .

ولكن الخطيب اليونانى كان يجنح إلى القضايا الفلسفية ، ويعتمد عليها فى الأدلة وترتيبها ، متأثراً بدراسته للفلسفة ، أما الرومانى فكان يصطنع فى خطابته التفصيل والاستنباط والقياس متأثراً بثقافته القانونية .

وقد ساعد على ازدهار الخطابة عندهم أنها كانت سلماً للرقى إلى مجلس الشيوخ والمجامع الوطنية ، فاهتموا بها ، وعنُوا بمدارس البيان ومناهجها ، وكان من مواد الدراسة بها الموسيقى ، ولم يدرسوها للتطريب والعزف كما فعل اليونان ، بل درسوها لإدراك النغمات والأوزان ؛ حتى يستطيع الخطيب أن يجيد الإلقاء والتوقيع .

ومن أشهر خطبائهم شيشرون (١٠٦ - ٤٣ ق . م) .

نموذج له :

رشحت الحكومة (ميلون) لوظيفة القنصلية ، ونفس عليه هذا الترشيح (كلوديوس) وناصر كلا منهما حزبه وأتباعه ، ورأت الحكومة لدَد الخصومة ، فعدلت عن شغل الوظيفة ، ولكن المصادفة شاءت أن يتقابل (كلوديوس) بخدمه مع (ميلون) بأتباعه ، ويتعرض أتباع الأول للآخرين ، ويجرح كلوديوس فى كفه بضربة من رمح ، ويرى خصمه أن الفرصة سانحة للتخلص منه ، فيأمر أتباعه بالإجهاز عليه ، ويحمل كلوديوس إلى روما ، ويوضع على منصة الخطابة مضرجا بدمه ، فتهيج الخواطر ويسرف خصوم ميلون فى الإغراء به والحض على الأخذ بثأر المقتول ، ويرجع ميلون لتبرير فعلته التى فعل ، ويبذل الجهود فما تغنى عنه شيئاً ، وأخيراً يفر إلى مرسيليا انتظاراً للحوادث ، ويتعرض شيشرون للدفاع عنه ، ويصل إليه هذا الدفاع فى منفاه فيقول « شيشرون ، لولا دفاعك ما طاب لى هذا السمك الهنئ الذى آكله فى مرسيليا » .

وهذه خطبة شيشرون :

« أيها القضاة ! ربما تعرونى هزة من الخجل ، وربما أحسست بالرعشة تسرى فى شفتى حينما أفتحها لأدافع عن قاتل .

ولكنى أدافع عن أشجع الرجال وأكرمهم ، ويرجح عندى أن ميلون حينما ارتكب جريمته كان غائباً عن كل شئ إلا عن سلامة الوطن ، فمن المخجل إذاً ألا أدافع عنه بنفس الروح التى أجرم بها .

أعترف أن هيئة هذه المحكمة غير العادية تخيف نظراتى ، إنى أسرحها هنا وهناك فلا أرى هيئة المحكمة القديمة . تلك الهيئة التقليدية التى تعودناها فى محاكماتنا ، إنى أرى المقاعد التى تشغلونها خالية من جموع الشعب الزاخرة الضاغطة التى تعودت أن تسمعنا فى مثل هذه الظروف ، إن هذه الجنود التى تسد علينا المنافذ والأبواب من شأنها ألا تبعث الطمأنينة فى نفس الخطيب . ومهما تحدثتم عن مهمتها فى حفظ النظام ، وعن الحاجة إليها بل وعن ضرورتها ، فليس فى وسعكم أن تنكروا أثرها السيئ ، فإن منظرها يثير الشعور بالخوف ، ونخشى أن يختلط ذلك الخوف بالثقة التى نستمدها من الشعب . ولو أننى اعتقدت أن هذا التسليح إنما اتخذ ضد ميلون وحده لا ستسلمت للظروف ، لأنى أعلم أن شقشقة اللسان لاتعنى شيئا أمام شقشقة الحسام ، ولكن ميولى العادلة التى لاتوازيها إلا عدالة (بومبى) تجعلنى فى مأمن من أن أسكن إلى مخاوفى .

إن عدالة بومبى ستمنعها حتما من أن تسلم رجلا سلم نفسه إلى حديد الجنود ، وإن حكمتها ستمنعها من أن تسلح السلطة العامة فيها هذه الكثرة التائهة .

وأرى أخيراً هذه الإحاطة التى تأخذنا من كل جانب ليست فى الحقيقة أعداء تتربص بنا ، لكنها احتياطات تعمل بالعكس على حمايتنا . . . . .

أما فيما يتعلق بالشاهدين – وأقصد هنا المواطنين الذين جاءوا لسماع المحاكمة ، وعيونهم تخترقنا من كل ناحية – فإنى أوكد أنه ليس فيهم من لا يرجو التمنيات الطيبة لخلاص ميلون ، وليس فيهم من لا يلتمس له المعذرة وإلا يكن له فلأولاده ، وإلا يكن لأولاده فلوطنه .

طبقة واحدة هى التى تعمل ضدنا ، هم الذين غذاهم كلوديوس من السلب والنهب والمصائب التى وقعت على رأس الشعب ، إنهم مدفوعون للقبض على ميلون .

إن صيحاتهم – إذا كانوا يجرؤون على إسماع أصواتهم – يجب أن تنبهكم إلى مواطن كريم طالما هاجم من أجلكم هذا الصنف من الناس ، طالما أخرس صيحاتهم البذيئة ضدكم ليفرخ روعكم إذن ، لتطمئن نفوسكم .

ولو كان لكم فى لحظة من لحظات حياتكم أن تفوهوا بذكر رجال شجعان فضلاء ، وأن تمجدوا مواطنين محترمين لما قدموا من خدمات ، ولو أن فرصة عرضت لقضاة عدول مختارين من أكبر الطبقات ليظهروا رعايتهم التى طالما أحاطوا بها كثيراً من الناس ، لكانت هى هذه اللحظة التى نحن فيها .

أيها القضاة ! إنكم تملكون كل شئ فى موقفنا ، أتحكمون علينا – نحن الذين أخلصنا لسلطتكم – أن نسفح الدمع أبداً ؟ أم نستطيع بعد ما قدمنا أن ننتظر منكم الشجاعة والحكمة ، فتكفكفوا دموعنا ، وتخففوا شيئًا من شقوتنا ؟

ونرجع فنقول ما أعظم المحنة وما أشق الحياة ، وما أشد ما نعانيه .

لقد حبسنا على خير الجمهورية كل ما نملك ، فى أمل أن نكافأ مكافأة شريفة ، وها نحن ألاء أصبحنا نتوقع أشد العذاب .

يستطيع الشعب وسط هذه الزوبعة الهائجة أن يصب غضبه على رأس ميلون مادام هو المخلص لمواطنيه الذى وجه جهده لعاصفة الأشرار .

ولكن الذى ما كنت أتوقعه هو أن يحاكم ميلون أمام جمعية مؤلفة من طبقة ممتازة ، وأن يجد أعداؤه الوسيلة لا للمطالبة بإجراءات قاضية على حياته فحسب ، بل قاضية أيضاً على شرفه وعلى كرامته .

على أنى لا أتكلم فى محاكمة ميلون ، ولا فيما قدمه للوطن ، إلا بعد أن أبين أن كلوديوس هو الذى تعرض له ليسلبه حياته . إننى لا أطلب عطفكم على ميلون لقاء ما قدم للأمة وللدولة ، وحتى إذا كان فى موت كلوديوس خلاص للأمة وللوطن فإننى لا أطالبكم بتمجيد بطولة القاتل ، ولا بتهنئة الشعب على الخلاص من المقتول ، ولكن حينما تتضح لكم جريمة خصمه الغبى أتوجه إليكم

بالرجاء ، وأطلب باسم العفو – إذا فقدت كل أمل فيما بقى لنا – أن يترك لنا فى الأقل حق الدفاع عن حياتنا ضد أسلحة السفاكين وجرأتهم . . . .

ماذا فى الوقائع التى سردتها لكم أيها القضاة ؟

إن المعتدى قد قتل ، وإن القوة قد قوبلت بالقوة ، وإن الشجاعة قد تغلبت على التهور . ما أقول إن هذه الحوادث كانت من مصلحة الجمهورية ، ومن مصلحتكم أنتم ، ومن مصلحة كل المواطنين الرومان ، فإن هذا القول الحق لا يغنى عن ميلون شيئا . ولقد فر ، ولكن بكرامة الجمهورية معه ، فإذا أقررتم بعد ذلك أنه مذنب فليس عندى ما أقوله لتبرير موقفه ، وإذا كان العقل والحاجة والتقاليد الاجتماعية بل والطبيعية نفسها تلزم المتمدينين والمتوحشين والأناسى والحيوانات أن تستعمل كل ما تملك من الوسائل لدفع الضرر أو التعدى على الحياة ، فإنكم لا تستطيعون الحكم على ميلون ، اللهم إلا إذا حكمتم فى الوقت نفسه بأن الإنسان الذى يقع بين يدى قطاع الطريق يجب أن يموت بأسلحتهم ، فإن لم يمت بأسلحتهم فليمت بقضائكم[٤] . . . »

–٣–

العرب

عاش العرب فى الجاهلية أحراراً ، أباة للضيم ، لُسْناً فِصاحاً ، يتفاخرون بإجادة القول ، كما يتفاخرون بالشجاعة والكرم ، وأسعفتهم بديهة حاضرة ، ولغة رنانة غنية ، واشتعلت بينهم حروب ومنازعات ، فازدهرت الخطابة عندهم لكنهم فى الغالب لم يتصوروا الموضوع وحدةً ذات معان مرتبة كما تصور اليونان والرومان ، وإنما كانت لهم لفتات ونظرات إلى مايهمهم من الموضوع ، فلا يستقصون ولا يرتبون الأفكار ، ولعل سبب ذلك شيوع الارتجال . « وكل شئ للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة

(٤) محاضرات الخطابة للدكتور إبراهيم سلامه .

ولا إجالة فكرة ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف وَهْمه إلى الكلام ، وإلى رجز يوم الخصام ، أو حين أن يمتح على رأس بئر ، أو يحدو ببعير ، أو عند المقارعة والمناقلة ، أو عند صراع أو فى حرب ، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب ، وإلى العمود الذى إليه يقصد ، فتأتيه المعانى أرسالا ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا ، ثم لا يقيده على نفسه ، ولا يُدَرِّسه أحداً من وُلده ، وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلفون ، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه أقدر وأقهر ، وكل واحد فى نفسه أنطق ، ومكانه من البيان أرفع ، وخطباؤهم أوجز ، والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ أو يحتاجوا إلى تدارس[٥] . . . . »

ولهذا كثرت حكمهم القصار ، وشاع بينهم الإيجاز ، وبان فى خطبهم أثر الارتجال ، والانفلات من ترتيب الخطبة إلى مراحل وأجزاء ، واتسمت معانيهم بالصدق والبعد عن المبالغات ، ولعل هذا من تأثير الشعر فى الخطابة من حيث الإيجاز والجمل القصار ، أو لعل السبب ميلهم إلى النظر الجزئى والتعبير العاجل السريع الموجز.

أما أسلوبهم فمنه المرسل ، ومنه المزدوج ، ومنه المسجوع .

ولست أوافق الجاحظ على دعواه أن العرب هم الخطباء فى قوله : « وجملة القول أنا لانعرف الخطب إلا للعرب والفرس ، وأما الهند فإنما لهم معان مدونة ، وكتب مجلدة ، لا تضاف إلى رجل معروف . . . وللبونان فلسفة وصناعة ومنطق ، وكان صاحب المنطق نفسه – يقصد أرسطو – بكئ اللسان ، غير موصوف بالبيان . . . . وفى الفرس خطباء ، إلا أن كل كلام للفرس وكل معنى للعجم فإنما هو عن طول فكرة ، وعن اجتهاد وخلوة ، وعن مشاورة ومعاونة ، وعن طول التفكير ودراسة الكتب[٦] »

---

(٥) البيان والتبيين ٢٨/٣ .

(٦) البيان والتبيين ٢٧/٣ .

لا أوافق الجاحظ ، لأن العرب من أخطب الأمم حقيقة ، ومن أحسنها بيانا ، وأحضرها بديهة ، ولكن الجاحظ غمط الأمم الأخرى حقها ، مدفوعا بالعصبية للعرب حين كان الشعوبية يجحدون فضل العرب ، ويحاولون أن يفرضوا مجدهم .

وقد مر بنا فى الخطابة عند اليونان والرومان ما يشعر بقيمتها ، وشرفها ، وتأثيرها ، والعناية بها ، وبراعتهم فيها .

أما إذا نظرنا إلى الارتجال والإعداد وجدنا العرب أكثر الأمم ارتجالا وأقلها عداداً ، لأن الخطيب اليونانى ما كان ليتصدى للخطابة قبل أن يعد وينسق ، مخافة النقد ، وكذلك كان الخطيب الرومانى ، فقد كان شيشرون ينقح خطبه ، ويتدرب على إلقائها قبل أن يخطب ، ومازال هذا دأبه إلى سن الستين

على أن الإسلام قد نقل العرب نقلا جديداً ، فنمى الخطابة وقواها ، إذ كانت من وسائله فى الدعوة ، ثم كانت من أسلحة الأحزاب السياسية التى نشأت بعد ذلك ، وهى ضرورية فى كل جمعة وعيد ، ثم إنهم تأثروا بالقرآن الكريم والحديث الشريف والثقافة الإسلامية والعربية والدخيلة ، فتعددت مجالى القول ، وتنوعت الخطابة ، واتسقت المعانى ، وتسلسلت ، وصارت الخطبة ذات طابع لا تكاد تحيد عنه ، كأن تبدأ بحمد الله والثناء عليه ، ثم يأتى الموضوع ، ثم الختام .

ولكن أثر اليونان كان فيهم ضعيفاً من هذه الناحية ونواحى الأدب كله ، لأنهم عكفوا على ترجمة علوم اليونان ولم يترجموا أدبهم ، وإذا كان إسحاق بن حنين قد ترجم كتاب الخطابة لأرسطو ، فإن أثره كان ضعيفاً فى الخطباء ، لأنه لم يشع بينهم ، ولأن الفطرة غلبت عليهم ، ولأن الخطابة لم تكن تعلم كما كانت تُعَلَّم عند اليونان والرومان (٧) ، وحتى المؤدبون كانوا يعلمون الشعر والكتابة ، ولا يعلمون

---

(٧) ندر تعليم الخطابة . فقد ذكر الجاحظ أن بشر بن المعتمر مر بإبراهيم بن جبلة السكونى وهو يعلم فتيانهم الخطابة (البيان والتبيين ١/١٣٥) .

الخطابة ، ثم إن نظرة أرسطو إلى الخطابة نظرة متفلسفة ، والعرب لم يميلوا إلى فلسفة أدبهم

على أن العرب لم تكن لهم خطابة قضائية ، لأنهم كانوا يعتمدون فى تقاضيهم على البينة واليمين ، فلم يكن هناك مجال يتصاول فيه الخطباء ، ولم يكن عندهم محلَّفون يجدُّ الخطيب فى استمالتهم وإقناعهم .

وكانت خطبهم السياسية – على كثرتها – حزبيه مذهبية أكثر منها عامة ، لأن نظام الحكم لم يكن برلمانيا كنظام الأمم الديمقراطية المعاصرة ، أو كنظام اليونان فى عهد الديمقراطية .

ونلاحظ أن الخطب الحفلية – التكريم والتأبين والوفود والأملاك – قليلة عندهم وموجزة .

على أن فى تاريخ العرب قبل الإسلام وبعده كثيراً من الخطباء المصاقع الذين أجادوا الافتنان فى الخطب السياسية والوعظية والحربية .

فإذا ما نظرنا إلى الناحية النظرية وجدنا الجاحظ قد تناول كثيراً من أمور الخطابة فى كتابه (البيان والتبيين) إذ تحدث عن مقوماتها ، وآثارها ، وصفات الخطباء ، ومزاياهم ، وعيوبهم ، وانطلاقهم ، وجصرهم ، وتخلصهم ، وملابسهم ، واعتمادهم على المخاصر والعصى والقسى إلخ وتحدث عن البدء والختام ، والإيجاز والإسهاب ، إلى غير ذلك من المسائل الموصولة بالخطابة .

لكن كتاب الجاحظ تناول هذه الموضوعات كلها فى مواضع متفرقة لا يجمعها نسق واحد ، لأن الكتاب عرضٌ للبيان العربى شعره ونثره ، وعرض للبلغاء من شعراء وكتاب وخطباء ، وكانت الخطابة تجئ مفرقة هنا وهناك ، لأن الجاحظ لا يعدو هذا المسلك فى مؤلفاته .

ولم يكد يمضى على كتاب الجاحظ نصف قرن حتى ظهر كتاب (نقد النثر)[8] الذى تناول الخطابة فى أحد فصوله .

---

(٨) المنسوب إلى قدامة بن جعفر وهو فى الحقيقة كتاب البرهان فى وجوه البيان لأبى الحسين إسحاق بن إبراهيم بن وهب الكاتب .

وكان كتاب الخطابة لأرسطو قد ترجم إلى العربية مرتين أخريين ، ترجمه ابن سينا ، وترجمه ابن رشد ، ولكن لم يتبين تأثيره فيما كتب العرب عن الخطابة إلا فى القرن العشرين .

ولعل أول كتاب ظهر فيه أثر أرسطو هو (الخطابة) للأب لويس شيخو اليسوعى ، ثم تلته كتب أخرى تعالج الخطابة فى بحوث مستقلة , كالخطابة للدكتور نقولا فياض .

وبعد ذلك ترجم الدكتور إبراهيم سلامة جزءاً من كتاب الخطابة لأرسطو ، شرحه ، لكنه لم يتم ترجمة الكتاب .

—٤—

المحدَثون

أما الخطابة عند المحدثين فقد صرعت الشعر ، وسامَتْ الكتابة على جلال خطرها ، وقد سبق القول فى عوامل ازدهارها وفى أنواعها .

والمحدثون يتصورونها ذات أنواع عدة ، وذات مراحل وأجزاء ، ولكل نوع من أنواعها أسلوبه وطريقته ، ثم يعنون بالسامعين ونواحى إثارتهم ويغلب على خطباء العصر الحديث التحضير والإعداد ، ثم يلقى الخطيب من الذاكرة كأنه يرتجل أو يلمح الأوراق لمحا خاطفاً دون أن يدرى السامعون ، وكثيراً مايتصرف فيما يلقى ، أو يلقى قارئاً إن خشى أن تخونه الذاكرة ، وإن كان هذا معيباً كما سبق . وهذه لدراسة التى يدور حولها هذا الكتاب تصوير للخطابة فى العصر الحديث .

ومن خطباء العصر الحديث البارزين فى مصر من الساسة سعد زغلول ومصطفى كامل وأنور السادات ، وفى سورية فارس الخورى ، وفى فرنسا كليمنصو ولاشو ، وفى إنجلترا لويد جورج وتشرشل ، وفى ألمانيا هتلر ، وفى إيطاليا موسولينى .

وفى مصر من الخطباء فى السياسة وغيرها شبان يهزون المنابر ، ويثيرون المشاعر إلقاء وتفكيراً وتصويراً وتعبيراً ، وهم كثير ، نسمعهم ونقرألهم ، ونعجب بهم.

المرأة والخطابة :

عرفت الآداب العالمية قلة من النساء برعن فى الشعر وفى الكتابة والفنون عامة ، لكنها لم تعرف نسوة جلجلت على المنابر أصواتهن ، كما تفوقن في الشعر وسائر الفنون .

ولو رجعنا إلى مادون من خطب اليونان والرومان لم نكد نظفر باسم أنثى واحدة بين ذلك العدد العديد من الرجال .

ولو رجعنا إلى كتاب فى تاريخ الأدب الفرنسى من نشأته حتى عصرنا هذا فلن نظفر باسم امرأة واحدة بين عشرات الأسماء من الرجال الخطباء من عهد بودان وسان فرانسوا دى سال ، إلى عهد جول فافر ولا كوردير وغامبتا وديدون .

ولن نرجع من البحث بجدوى حين نفتش فى تاريخ الأدب الإنجليزى عن خطيبة واحدة ، إلا ما يصادفنا من أسماء بعض المتحدثات أو المتكلمات فى العصر الحديث .

وسنلقى من الرجال الخطباء على مر العصور أسماء قرعت سمع الدهر ، حتى بقيت لنا أصواتها قوية مجلجلة كعهدها بالأمس القريب أو البعيد ، من أمثال ديموستين وشيشرون وإدمون برك وبريت وميرابو وغامبتا ووليم بت وغلادستون ولنكولن وكافور[٩] .

وكذلك نجد فى العرب قبل العصر الحديث وفى العصر الحديث رجالا اهتزت لهم أعواد المنابر ، مثل قس بن ساعدة وأكثم بن صيفى ورسوله الله ﷺ وعلى بن أبى طالب والحجاج بن يوسف وقطرى بن الفجاءة وزياد وعبد الملك بن مروان وابن نباتة الفارقى وعبد الله النديم ومصطفى كامل وسعد زغلول

(٩) الخطب والمواعظ ٣٦ محمد عبد الغنى حسن .

وجمال عبد الناصر ، ولا نعرف من النساء خطيبة استطاعت أن تبرع فى الفن الخطابى براعة تدنيها من أحد هؤلاء .

ومن الحق أن نذكر ما كان للصراع السياسى بين على ومعاوية من أثر فى شهرة بعض النساء بمواقف خطابية ، إذا صحت أخبارها فإنها لم تتجاوز المواقف الطارئة ، التى كانت شذوذا عن القاعدة ، وربما كان ما روى عن بعضهن من قبيل الوضع والدعاية السياسية ، أوكان تضخيما لحديث ألفته امرأة فى جمع من الحزب السياسى .

ذكروا أن أم الخير بنت الحُرَيْش كانت تؤلب الناس على معاوية ، وتحرضهم على قتاله ، وتؤيد عليا وتدعو إلى الالتفاف حوله ، ورووا لها خطبة خطبتها وهى على جمل ، وبيدها سوط ، وهى تهدر كالفحل من الإبل .

وذكروا أن الزرقاء بنت عدى الهمذانية خطبت يوم صِفِّين وهى على جملها ، تحمس العلويين على قتال معاوية ، وأن معاوية استقدمها من الكوفة لمّا آلت إليه الخلافة ، وذكرها بخطبتها ، فلم تنكرها ، ولم تخش عقابه .

أما العصر الحديث فقد عرف بضع نساء عربيات اشتهرن بمواقف شبه خطابية فى المحافل والمحاكم وقاعات الدرس بالجامعات ، وصاحبهن التوفيق فى حسن الإعداد ، وبلاغة التعبير ، وجودة الإلقاء ، كالآنسة مىّ زيادة وبعض المعاصرات من الأحياء .

لكن هؤلاء جميعاً – على براعتهن – لم تبلغ إحداهن إلى الدرجة التى تسوى بينها وبين أحد من الرجال الخطباء الكبار ، ولعلنى لا أعدو الحق إذا ما سلكتهن فى عداد المحاضرات البارعات ، أو المتحدثات اللبقات ، لا فى عداد الخطباء الأفذاذ .

الفصل التاسع

الخطابة السياسية فى العصر الأموى

ازدهرت الخطابة السياسية فى العصر الأموى ، وافتنّ الخطباء فيها ، فتميزت بخصائص شتى ، لم تجتمع كلها للخطابة فى الجاهلية ولا فى صدر الإسلام ، ولم يجتمع لها فى العصر العباسى .

لهذا يصح اعتبارها فى تلك الفترة نموذجا مكتملا للخطابة العربية فى العصور السابقة [1] .

فقد جارت الخطابة الشعر فى العصر الأموى ، وعلا شأنها ، إذ تناولت شئون الدولة العامة ، ومثّلت السياسة أصدق تمثيل ، وكانت السلاح القولى الذى يعتمد عليه الساسة من الأحزاب المختلفة فى الدعاية لأنفسهم ، واستمالة القلوب إليهم ، وتهديد الخارجين عليهم ، والحملة على خصومهم ومناوئيهم .

وقد تظاهرت الخطابة والشعر على تحقيق هذه الغايات ، غير أن الشعر كان من عمل الدعاة والأعوان ، أما الخطابة فكانت من عمل الساسة فى أكثر الأحيان .

---

(١) راجع الفصل الخامس من كتاب أدب السياسة فى العصر الأموى للمؤلف

عوامل ازدهارها

١ – الأحزاب السياسية :

تعددت الأحزاب السياسية من أمويين وزبيريين وخوارج وشيعة ، وقامت دعاية كل منها على الخطابة ، إذ كان لكل حزب خطباء ، هم ألسنته الناطقة باسمه .

٢ – الحرية

وقد كانت حرية الرأى والقول مكفولة ، فيستطيع الخطيب أن يجهر برأيه فى الناس ، ولم يكن بدٌّ فى ذلك العصر من كثرة الخطب ، لأن الأحداث كثيرة ومتلاحقة ، ولأن الخطابة وسيلة التأثير فى الجماهير ، إذ كانت تقوم مقام الصحافة والإذاعة فى العصر الحاضر .

وهنالك أسباب كفلت للناس حرية القول .

منها أن معاوية مؤسس الدولة أعلن أنه يسوس الناس بالحلم ، وسعة الصدر ، والتجاوز عن المساءة القولية ، فهو القائل : « إن لم يكن إلا ما يشتفى به القائل بلسانه ، فقد جعلت ذلك له دَبْرَ أذنى ، وتحت قدمى[١] » .

وهو القائل : . لو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت ، كنت إذا شدوها أرخيتها ، وإذا أرخوها شددتها[٢] » .

وقد تذرع بحلمه فى كثير من الأوقات على معارضيه والمتهجمين عليه ؛ وحاكاه كثير من خلفائه فى تحملهم .

---

(١) العقد الفريد ١٤٠/٢ من خطبته بالمدينة .

(٢) تاريخ اليعقوبى ٢٨٣/٢ .

ومنها أن الأحزاب كانت تنعم بحريتها الكاملة ، لأنها ليست فى قبضة الحكومة ، وكيف لا يشعر بالحرية كاملة من يثور على الحاكم ويشن عليه الغارات ؟

وإذا كانت الحكومة الأموية قد حاربت الأحزاب ، فإن هذه الحزوب كانت تؤرث الخطابة ، وتفسح مجال القول أمام الخطباء .

وكثيراً ما كانت الأحزاب فى مواطن شتى ، وكثيراً ما كانت بنَجْوة عن عيون الحكام وسلطانهم .

ثم إن كثيراً من المنتمين إلى الأحزاب لم يكونوا يرهبون من إعلان رأيهم ، وتجبيه الوالى أو الحاكم ، كما نجد فى خطبة لعبد الله بن جعفر ابن أبى طالب ، وفى خطبة لعبد الله بن الزبير أمام معاوية حينما أراد البيعة لابنه يزيد ، وعارضاه فيها .

ولم تكن هذه الشجاعة النفسية مقصورة على الزعماء أو المتحزبين فقد شهد أعرابى أمام معاوية بشئ كرهه ، فقال معاوية : كذبت يا أعرابى ، فقال الأعرابى : الكاذب والله متزمِّلٌ فى ثيابك .

وحَصَب بعضهم المغيرة بن شُعْبة وهو يصعد المنبر والياً من قبل معاوية .

وتندر بعضهم بالحجاج لما صعد المنبر ، ومكث برهة لا يتكلم ، ثم قال بعضهم له بعد سماع خطبته : إن صَدَقناك أرضينا الله ، وإن غششناك أغضبنا الله ، فغضبك أهون علينا من غضب الله .

وقال بعضهم لعبد الملك بن مروان وهو يخطب : اتق الله .

٣ - الحروب والثورات :

وكانت الحروب والثورات مُذْكية للخطابة ، إذ كان القواد والفاتحون ذوى لَسَن يعتمدون عليه فى تحميس جنودهم ، وكان الثوار وقادتهم فصحاء يتخذون الخطابة سلاحاً من أسلحتهم ، ولهذا نجد كثيراً من الخطب موصولة بأحداث سياسية ، ووقائع حربية .

٤ - فصاحة العرب :

وكان العرب فى ذلك العصر على قدر عظيم من المقدرة البيانية ، والبديهة المسعفة ، والفصاحة المتوارثة .

ذلك أن سليقتهم لم تكن قد فسدت ، وحرصهم على لغتهم وأدبهم كان شديداً ، وكان الخلفاء والأمراء ينشِّئون أبناءهم فى البادية ، لتكفل لهم التربية فيها منافع ، منها فصاحة القول .

ولعل معاوية قد توخى ذلك حينما بعث ابنه يزيد إلى البادية عند أخواله بنى كلب مع أمه ميْسون[٣] .

ولما وجد عبد الملك أن ابنه الوليد يلحن قال : أضَرَّ بالوليد حبنا له ، فلم نرسله إلى البادية .

وإذا كان داء اللحن قد دبَّ إلى بعض الخطباء ، فإنه كان ضئيلا وقليلا ، على أنه لم يفسد ملكة البيان ، وتدفّق التعبير ، لأنه خطأ إعرابى نادر .

٥ - تقرير الخطباء :

وإذْ كانت السياسية مشغلة العصر ، وكانت الخطابة من أعظم عُدد السياسى ، ارتفع شأن الخطابة والخطباء ، وزاحموا بمقدرتهم الخطابية أبناء الأشراف والسادة ، فلم تعد المناصب الكبار محبوسة على هؤلاء .

---

(٣) العقد الفريد ٣٩٣/١ .

ويظهر أن نزعة العربي إلى الفخر بسيفه ولسانه منذ الجاهليه ما زالت عظيمة السلطان فى العصر الأموى ، يدل على ذلك أن يزيد بن معاوية امتنَّ على زياد بقوله : « لقد نقلناك من ولاء ثقيف إلى عز قريش ، ومن عُبَيْد إلى أبى سفيان ، ومن القلم إلى المنابر » .

٦ – على أن الخطابة ازدهرت لأسباب أخرى ، منها : الجدل المحتدم بين الفرق الدينية ، ومنها كثرة الوفود على الخلفاء والولاة ، وقيام بعض الوعاظ بالخطابة فى المساجد ووعظ الناس ، منذ نصيبهم معاوية لهذا الغرض ، ومنها إقبال البلغاء على القرآن الكريم يحفظون ويتذوقون ويدرسون ، ونماء الثقافة اللغوية والأدبية فى تلك الحقبة ، والعناية بحفظ ما خلّف السابقون .

وحسبنا أنَّ نذكر هنا أن خطب النبى ﷺ وأبى بكر وعمر وعثمان وعلىٍّ كانت مدونة مجموعة فى كتب[٤] ، وأن أبا مسمار العُكْلى مدح عامراً بروعة البيان فى خطبه ، وذكر أنه ليس ممن يسطون على خطب غيرهم المدونة فى الورق . فيلفقون من كل خطبة فقرة ، فتجئ خطبهم كالثوب المرقع :

لله درُّ عـــامـــر إذا نَـــطَـقْ فى حفل إملاك وفى تلك الحَلَقْ
ليس كـقـوم يُـعْـرَفون بالسَّرَقْ من خُطب الناس ومما فى الورقْ
يُـلَـفِّـقـون القول تلفيق الخِرَقْ من كل نَضَّاحِ الذفارَى بالعَرَقْ
إذا رمته الخطباء بالحَدَقْ[٥]

وفى هذا دليل على أن بعض الخطب كانت مدونة ، وكان بعض الخطباء يحفظونها ، أو ينقلون منها .

---

(٤) البيان والتبيين ٢/٢٠١ .

(٥) البيان والتبيين ١/١٣٣ الإملاك : التزويج وعقد النكاح . الحلق : جمع حلقة وهى الجم من الناس . السرق : السرقة . الذفارى : بدن الخطيب . وإنما ذكر خطبة التزويج لأنهم يذكرون أنه يعرض للخطيب فيها من الحصر أكثر مما يعرض لصاحب المنبر .

خصائصها الفنية

- ١ -

الإعداد

تنم خطب كثيرة عن العناية بإعدادها ، والتأنى فى صوغها ، والتدبر فى ترتيب أجزائها ، وتنسيق أفكارها ، والتأنق فى أسلوبها .

وقد عرف شئ من هذا قبل العصر الأموى ، فإن عمر بن الخطاب تحدث عن اجتماع يوم السقيفة بقوله : « كنت قد زَوَّرْت – أعددت – كلاما لأقوله ، فقال لى أبو بكر : على رِسْلك ، وتكلم هو ، فلم يترك شيئاً مما كنت أريد أن أقوله[1] » .

وكان عمر يشعر بأن لخطبة النكاح بخاصة مشقة ، يقول : « ما يتَصَعَّدُنى كلام كما تتصَعَّدُنى خطبة النكاح[2] » .

وروى أن عثمان بن عفان صعد المنبر ، فأُرْتج عليه ، فقال : « إن أبا بكر

(١) تاريخ الطبرى ٣/٢٠٠ .

(٢) البيان والتبيين ١/١١٧ و١٢٤ تصعده الأمر : شق عليه . ذكر الجاحظ أنه يعرض للخطيب فى خطب الإملاك من الحصر أكثر مما يعرض لصاحب المنبر (البيان والتبيين ١/١٣٤) وقال : سئل ابن المقفع عن قول عمر فقال : سأعرفه إلا أن يكون أراد قرب الوجوه من الوجوه ونظر الحداق من قرب فى أجواف الحداق ، ولأنه إذا كان جالساً معهم كانوا كأنهم نظراء وأكفاء ، فإذا علا المنبر صاروا سوقة ورعية ، ثم ذكر الجاحظ رأيا آخر فى تأويل قول عمر هو أن خطيب الإملاك لا يجد بدا من تزكية الخاطب ، فلعل عمر كره أن يمدحه بما ليس فيه ، فيكون قد قال زورا . ورد على هذا بأنه جائز إذا كان الخطيب موقوفا فى الخطابة ، فأما عمر وأشباهه فلم يكونوا ليتكلفوا ذلك إلا فيمن يستحق المدح (١/١١٧) .

وتعليل ابن المقفع أصوب . وأضيف إليه أن خطبة الزواج لا تثير عاطفة الخطيب كما تثيرها المواقف الأخرى ، فيشعر بضيق المقام وندرة الأفكار .

وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالا ، وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام خطيب ، وستأتيكم الخطب على وجهها ، وتعلمون إن شاء الله[٣] » .

ومعنى هذا أن الشيخين كانا يعدان خطبهما ، وأن عثمان لم يكن قد استعدّ ، ولكنه سيستعد فيما بعد لمثل هذا الموقف ، ليخطب الناس بكلام ذى قيمة .

وما زال الإعداد طابع كثير من الخطب فى العصر الأموى ، فقد روى أن الخوارج طلبوا من عبد الله بن وَهب الراسبي – يوم ولوه رياستهم – أن يخطب فيهم ، فقال : « وما أنا والرأىَ الفَطِين ، والكلام القَضِيب[٤] » .

وتواردت الأخبار بأن واصل بن عطاء كان يخطب ، فيتجنب الراء فى كلامه ، لأنه كان ألثغ[٥] . فهل كان يتجنبها دائماً بغير إعداد وتفكير وتدبر ؟

وقيل لعبد الملك بن مروان : عَجِل عليك الشيب يا أمير المؤمنين ، فقال : وكيف لا يَعْجَل علىَّ ، وأنا أعرض عقلى على الناس فى كل جمعة مرة أو مرتين[٦] ؟ يريد خطبة الجمعة وغيرها مما يعرض من الأمور .

وقال الكميت بن زيد – وكان خطيباً – إن للخطبة صَعْداء ، وهى على ذى اللب أرْمَى . ويعلق الجاحظ على هذا بقوله : « ولم أر الكميت أفصح عن هذا المعنى ، ولا تخلص إلى خاصَّته ، وإنما يجترئ على الخطبة الغِرُّ الجاهل الماضى الذى لا يثنيه شئ ، أو المطبوع الحاذق الواثق بغزارته واقتداره[٧] » .

وإن آثار الإعداد لواضحة فى كثير من خطب العصر ، كخطب الحجاج وزياد وعبد الملك وأبى حمزة الخارجى ، لأن هذه الخطب مُوحَدَّة الموضوع ، مرتبة الأفكار ، جيدة الأسلوب ، متوازنة الجمل ، معتمدة على ألوان من الخيال ، بها سجع مقصود لكنه غير مستكره ولا متكلف ، وبعضها يشتمل على

---

(٣) البيان والتبيين ١/٣٤٥ .

(٤) البيان والتبيين ١/٢٠٥ .

(٥) المرجع السابق ١/١٤ .

(٦) المرجع السابق ١/١٣٥ .

(٧) المرجع السابق ١/ ١٣٤ الصعداء : المشقة . أرمى : أزيد .

مقدمة تمهد للموضوع ، يتخذها الخطيب مجازاً إلى الموضوع نفسه ، ولقد يمزج الخطيب بالموضوع تدليله على رأيه ، وتفنيده لدعوى خصمه ، ثم يختم الخطبة بعبارات يلخص بها موضوعه ، أو يستميل السامعين ويستثيرهم ، كما نجد فى خطبة الحجاج بالكوفة[8] ، وخطبة أبى حمزة الشارى بالمدينة[9] .

ولم يكن من المصادفة أن تجئ هذه المراحل ، بل هى ثمرة الإعداد والاستعداد .

- ٢ -

الافتتاح

أما افتتاح الخطب فقد كان صورة من افتتاحها فى صدر الإسلام فى الأعم الأكثر .

١ - فأكثرها مبدوء بحمد الله والثناء عليه ، والصلاة والسلام على رسوله .

وهذه هى السمة الغالبة ، حتى إنهم سموا الخطبة التى لا تبدأ بالحمد بتراء .

٢ - وبعضها مبدوء بالتهديد والوعيد ، لتنبئ عن غضب الخطيب ، وترهب السامعين بشديد عقابه ، كقول الحجاج : « أيها الناس ، من أعياه داؤه ، فعندى دواؤه ، ومن استطال أجله ، فعلىّ أن أعَجِّله ، ومن ثقل عليه رأسه ، وضعت عنه ثقله ، ومن استطال ماضى عمره ، قصَّرت عليه باقيه[10] » .

٣ - وبعضها مبدوء بالشتم والتوبيخ ، لأن المقام مقام تقريع وتأنيب ، كقول زياد : « أما بعد ، فإن الجهالة والجهلاء ، والضلالة العمياء ، والفجور الموقد لأهله النار ، الباقى عليهم سعيرها ، ما يأتى سفهاؤكم ، من الأمور

(٨) تهذيب الكامل ١/١٧٠ وتاريخ الطبرى ٧/٢١٠ .

(٩) الأغانى ٢٠/١٠٤ والبيان والتبيين ٢/٦١ وشرح نهج البلاغة ١/٤٥٩ .

(١٠) صبح الأعشى ١/٢٢٠ .

العظام ، ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى منها الكبير ، كأن لم تسمعوا بآى الله ، ولم تقرأوا كتاب الله ، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب الأليم لأهل معصيته[٢] » .

٤ – وقد تبدأ بشعر خشن ينبئ عن صرامة وغلظة ، كما فعل الحجاج فى بدء خطبته بالكوفة[٣] .

٥ – وقد يبدأ الخطيب بالموضوع مباشرة ، كما فعل الحسين بن على فى خطبته التى رد بها على معاوية إذ نال من علىّ ومن الحسن ، فرد عليه الحسن بقوله : « أيها الذاكر عليًّا ، أنا الحسن ، وأبى على ، وأنت معاوية ، وأبوك صخر ، وأمى فاطمة ، وأمك هند ، وجدى رسول الله ﷺ ، وجدكُ عُتْبة بن ربيعة ، وجدتى خديجة ، وجدتك قُتَيْلة[٤] » .

---

(٢) تاريخ الطبرى ١٢٤/٦ .

(٣) تاريخ الطبرى ٢١٠/٧ .

(٤) شرح نهج البلاغة ١٦/٤ .

- ٣ -

الأجزاء

بعض الخطب قائمة كلها على عرض الموضوع .

وبعضها مقسمة إلى مقدمة ، وعرض ، وخاتمة .

١ - أما المقدمة فواضحة فى كثير من الخطب ، منها خطبة عبد الملك بن مروان بعد قتل مُصعَب بن الزبير ، إذ قَدَّم بيان نعمة الأمن والسلام ، ونقمة الحرب والفتنة ، فقال : « أيها الناس ، إن الحرب صعبة مُرَّة ، وإن السِّلم أمنٌ ومَسَرةٌ ، وقد زَبَنتنا[1] الحرب وزَبَنَّاها ، فعرفناها وألفناها فنحن بنوها ، وهى أمنا » .

ومنها خطبة عبد الله بن الزبير بعد مقتل أخيه مصعب ، إذ قدّم بمقدّمة بيَّن فيها أن الأمر كله لله ، وأن نصرة الباطل موقوتة ، ونصرة الحق آتية لا شك فيها[3] .

٢ - وأما الخاتمة فنجدها فى كثير من الخطب ، كقول زياد فى ختام خطبته بالبصرة : « وأيم الله إن لى فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاى » .

٣ - على أن الخاتمة قد تنحو منحى آخر ، تارة باستغفار الخطيب لنفسه وللسامعين ، وتارة بالدعاء لهم أو للخليفة ، وحينا بآى قرآنية ، وحينا بأبيات من الشعر .

---

(١) زبنتنا : دفعتنا والمراد جزيتنا .

(٢) الأمالى ١/ ١٠.

(٣) تاريخ الطبرى ٧/ ١٩٠ ومروج الذهب ٢/ ١٢٣ .

— ٤ —

العنف والتهديد

تزخر الخطابة السياسية فى العصر الأموى بشَنّ الحملات على الخصوم، والتهجم عليهم، وسبّهم. واتهامهم بالضلال والكفر والفجور، وتوهُّدهم بعقاب الله، وتهديدهم بالثورة أو بالانتقام.

والفكرة الشائعة فى كثير من الكتب التى أرَّخت للأدب أن هذه الظاهرة مقصورة على خطباء الحزب الأموى الحاكم، إذ أنهم اعتمدوا على قوارص الكلم فى إرهاب الثائرين، وزجر من تسول له نفسه أن يُحْدِث فتنة، أو يتمرد على الحكام.

لكن الحقيقة أن فى خطب الأحزاب الأخرى سبًّا وتهديدا.

فمن ذلك فى خطب الأمويين قول معاوية بالمدينة بعد أن تولى الخلافة: « والله ما وليتها بمحبة علمتُها منكم، ولا مَسَرَّة بولايتى، ولكنى جالدتكم بسيفى هذا مجالدة[1] ».

وقول عتبه بن أبى سفيان بمصر: « يا حاملى ألأم أنوف رُكِّبَتْ بين أَعْيُنُ، والله لأقَطِّعن بطون السياط على ظهوركم، فإن حَسَمْتُ أدواءكم، وإلا فإن السيف من ورائكم[2] ».

ومنه فى خطب الشيمة قول الحسن فى رده على معاوية بمسمع منه: « لعن الله أخملنا ذكرا، وألأمنا حَسَبا، وشرَّنا قديماً وحديثا، وأقدمنا كفراً ونفاقا[3] ».

---

(١) العقد الفريد ١٤٠/٢.

(٢) تهذيب الكامل ١٧/١.

(٣) شرح نهج البلاغة ١٦/٤.

ومنه فى خطب الخوارج قول أبى حمزة فى وصف سياسة معاوية ويزيد :

« ثم ولى معاويةُ لَعِين رسول الله وابن لعِينه ، وجِلفٌ من الأعراب ، وبقية من الأحزاب[٤] . . . ثم ولى بعده يزيد ، يزيد الخمور ، ويزيد الصقور ، ويزيد الفُهود ، ويزيد الصُّيود ، ويزيد القرود ، الفاسق فى بطنه[٥] . . . فخالف القرآن ، وعمل بما يشتهيه[٦] » .

ومنه فى خطب الزبير بين قول عبد الله بن الزبير : « إن أهل العراق غُدُر فُجُر إلا قليلا ، وإن أهل الكوفة شِرار أهل العراق[٧] » وقول عبد الله بن مطيع والى ابن الزبير على الكوفة : « والله لأوقِعَنَّ بالسقيم العاصى ، ولأُقيمَنَّ دَرْء الأصْعَر المرتاب[٨] .

— ٥ —

التخييل والتصوير

تمتاز الخطابة فى العصر الأموى بمشابهتها الشعر فى إبراز الأفكار وتوضيحها وتجسيمها فى قوالب من التخييل ومن التضاد .

١ — كالتشبيه فى قول أبى حمزة الخارجى . « وإذا مرَّ أحدهم بآية من ذكر النار شهق شهقة ، كأن زفير جهنم بين أذنيه[٩] » .

وفى قول زياد : « نظرت فى أمور الناس منذ قتل عثمان ، فوجدتهم كالأضاحى ، فى كل عيد يُذبحون » .

وفى قول الحجاج : « والله لأحزمنكم حزم السَّلَمة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل » .

---

(٤) يريد الأحزاب التى هجمت مدينة فى غزوة خندق .

(٥) هنا عبارات مفحشة .

(٦) تاريخ الطبرى ٢/٥٦ .

(٧) تاريخ الطبرى ٦/٢٧٣ .

(٨) المرجع السابق ٧/٩٥ .

(٩) مرجع سابق ٢ ٥٦

وفى قول عبد الله بن الزبير : « أسْلَمه الطَّغامُ ، الصُّمُّ الآذان ، إسلام النَّعم المُخَطَّمة[٢] » .

٢ – ومثل الاستعارة فى قول الحسين بن على : « وإن نقضتم عهدكم ، وخلعتم بيعتى من أعناقكم ، فلعمرى ما هى لكم بنُكر[٣] » .

وفى قول الحجاج : « إنى لأرى رءوساً قد أينعت ، وحانَ قِطافُها ، وإنى لصاحبها » :

وفى قول أبى حمزة : « بَرَقَت الكتيبة ، ورَعَدت بصواعق الموت » .

٣ – ومثل الكناية فى قول أبى حمزة فى وصف أصحابه : « شباب ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، باعوا أنفساً تموت غداً بأنفس لا تموت أبداً ، أكلت الأرض ركبهم وأيديهم ، وأنوفهم وجباههم » .

وفى قول الحسين بن على : « ليكن كل رجل منكم حِلْساً من أحلاس بيته[٤] » .

وفى قول ابن الزبير : « إنا والله لا نموت حتف آنافنا » .

وفى قول معاوية : « إن لم يكن إلا ما يستشفى به القائل بلسانه ، فقد جعلت ذلك له دَبْرَ أذنى ، وتحت قدمى » .

وفى قول الحجاج : « إنى والله ما يُقَعْقع لى بالشَّنان ، ولا يَغْمز جانبى كَتغمار التين » .

٤ – وقد يلجأ الخطيب إلى ضرب من الإثارة ، إذ يعرض صورتين متضادتين ، ليست إحدهما جزاء على الأخرى ، أو يعقد صلة حتمية بين عملين أحدهما يرغب فيه جميع الناس ، والآخر يخشاه جميع الناس .

---

(٢) الصغام : الأوغاد . المخطمة : التى فى أنوفها أخزمة تقاد بها .

(٣) تاريخ الطبرى ٢٢٩/٦ .

(٤) شرح نهج البلاغة ١٤/٤ .

من الضرب الأول قول أبى حمزة الخارجى « فكم من عَيْن فى منقار طائر ، طالما بكى بها صاحبها فى جوف الليل من خوف الله . وكم من يد قد أبِينَتْ عن ساعدها ، طالما اعتمد عليها صاحبها راكعاً وساجداً ، وكم من وجه رقيق ، وجبين عتيق ، قد فُلِق بعمُد الحديد » .

فهو يستثير السامعين على بنى أمية ، ويستدر عطفهم وحسراتهم على أنصاره من العباد الشجعان الذين قتلهم بنو أمية ، ومزقوا أشلاءهم بهذا التصوير الذى يرسم لهم عيوناً فى مناقير الطيور ، كانت كثيرة البكاء من خشية الله ، وأيديا مقطوعة مفصولة عن سواعدها ، طالما اتكأ عليها أصحابها فى الصلاة .

ومن الضرب الثانى قول زياد : . فمن غَرَّق قوماً غَرَّقناه ، ومن حَرَّق على قوم حَرَّقناه ، ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفناه حيًّا فيه » .

ذلك أن بعض الناس الذين يشكو منهم زياد يحبون أن يغرقوا غيرهم ويحرقوا دورهم ، ويسرقوهم أحياء وأمواتاً ، ولكن الناس جميعاً يخافون هذا العقاب الرادع الذى جعله زياد من جنس الجريمة ، ليكون ملائما لها .

٥ – وكذلك يجىء الطباق والمقابلة ، فيزداد المعنى وضوحا ، وتزداد الصورة جلاء ورسوخا .

مثل قول عتبة بن أبى سفيان : « وَلِينا هذا الموضع الذى يضاعف الله فيه للمحسن الأجر ، وعلى المسىء الوِزْر[٥] » .

وقول زياد : « والله لآخذنّ الولىَّ بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمُدْبر ، والصحيح منكم بالسقيم . . . رُبَّ مبتئسٍ بقدومنا سيُسَرّ ، ومسرور بقدومنا سيبتئس » .

وقول الحسن بن على : « ألا إن ما تكرهون فى الجماعة خير لكم مما تحبون فى الفرقة » .

---

(٥) البيان والتبيين ٣/٢٣٠ .

وقوله : « لأن تُذَلوا وتُعافَوْا أحبُّ إلىَّ من أن تَعِزُّوا وتُقْتَلوا[٦] » .

وقول عبد الله بن الزبير : « لم يعز الله مَنْ كان الباطل معه ، وإن كان معه الأنام طُرًّا ، ولم يُذل من كان الحق معه ، وإن كان مفرداً ضعيفا . . . فإن تُقْبل الدنيا علىَّ لم آخذها أخذ الأشِرِ البَطِرِ ، وإن تُدْبِر عنى لم أبك عليها بكاء الخرِقَ المهين[٧] » .

— ٦ —

التعبـير

أما التعبير فإنه يتَّسم بعدة خصائص :

١ — قوة العبارة وجزالتها ، لأنها تعبير عن مشاعر مهتاجة ، ونفوس ثائرة حانقة ؛ كقول زياد : « وايم الله إن لى فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل امرىء منكم أن يكون من صَرْعاى » .

وقول الحجاج : « إن أمير المؤمنين نَثَر كنانته بين يديه ، فَعَجَم عيدانها ، فوجدنى أمَرّها عودا ، وأصلبها مَكْسِرا ، فرماكم بى ، لأنكم طالما أوْضَعْتم فى الفتنة ، واضطجعتم فى مراقد الضلال » .

وقول أبى حمزة : « شبابٌ والله مكتهلون فى شبابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنْضاء عبادة ، وأطْلاحُ سهر[٨] ، باعوا أنفساً تموت غداً بالنفس لا تموت أبدا » .

وقول عبد الله بن الزبير : « إنا والله لا نموت حَتْفَ آنافنا ، ولكنْ قَعْصاً بالرماح ، وموتا تحت ظلال السيوف ، وليس كما يموت بنو مروان والله ما قتل منهم رجل فى زحف فى جاهلية ولا إسلام قط » .

(٦) الإمامة والسياسة ١/١٢١ .

(٧) تاريخ الطبرى ٧/١٩٠ .

(٨) أنضاء وأطلاح : مهزولون .

٢ – قصر الجمل ، ليشتد وقعها ، ويتلاحق تأثيرها .

من ذلك قول عبد الملك : « إن الحرب صعبة مرة ، وإن السلم أمن مسرة » .

وقول زياد : « قربتم القرابة ، وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذر ، وتُغَطون على المختلس ، ما أنتم بالحلماء ، ولقد اتبعتم السفهاء » .

وقول الحجاج « من أعياه داؤه ، فعندى دواؤه ، ومن ثقل عليه رأسه ، وضعت عنه ثقله ، ومن استطال ماضى عمره ، قصرت عليه باقيه » .

٣ – العناية بالوَقْع والرنين ، سواء أجاء عن طريق سجع غير مستكره أم عن طريق الازدواج ، أم من تقسيم العبارة إلى جمل متوازنة القدر والطول .

نجد هذا واضحاً فى قول الحجاج : « إن للشيطان طَيْفا ، وإن للسلطان سيفا ، فمن سَقِمَتْ سريرته ، صحَّتْ عقوبته ، ومن وضعه ذنبه ، رفعه صَلْبه ومن لم تسعه العافية ، لم تِضقْ عنه الهلكة[٢] .

وفى قول الحسين بن على : « إن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمن ، وأظهروا الفساد ، وعطلوا الحدود ، واستأثروا بالفىء[٣] .

وفى قول عبد الله بن الزبير بعد مقتل الحسين : « لقد قتلوه طويلا بالليل قيامه ، كثيراً فى النهار صيامه . والله ما كان يُبْدِل بالقرآن الغناء ، ولا بالبكاء من خشية الله الحداء ، ولا بالصيام شربَ الحرام »[٤] .

٤ – يغلب على خطب العصر كلها الإيجاز المعتدل ، ويقل فيها التوسط القريب من الطول ، وتند فيها الخطب المسهبة المطولة .

وهى فى هذه الظاهرة امتداد للخطابة فى صدر الإسلام .

---

(٢) صبح الأعشى ٢٢٠/١ .

(٣) تاريخ الطبرى ٢٢٩/٦ .

(٤) المرجع السابق ٢٧٣/٦ .

فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب خطبة من صلاة العصر إلى أن جنحت الشمس للمغيب . ولكن خطبه القصار أكثر .

وروى أن عمر خطب بعد أن بويع بالخلافة فقال بعد الحمد : « إنما مثَل الأمة كمثل جمل أَنِفَ[٥] اتَّبع قائده ، فلينظر قائده أين يقوده . أما أنا فورب العكبة لأحْمِلنَّكم على الطريق » .

كذلك تقل الخطب الطوال فى العصر الأموى ، ولعل أطول الخطب السياسية التى وصلت إلينا خطبة أبى حمزة الخارجى التى خطبها بالمدينة دفاعا عن الشباب من حزبه ، وهى فى نحو تسعين سطراً .

وتقل أيضاً الخطب الموجزة المتناهية فى الإيجاز ، كخطبة الحسن فى رده على معاوية ، لما نال منه ومن أبيه بالكوفة ، فهى فى أربعة أسطر[٦] ، وخطبة المختار ابن أبى عُبَيْد وهو يشيع إبراهيم بن الأشتر لقتال ابن زياد ، فهى فى سطرين[٧] ، وخطبة عبد الله بن الزبير بعد خطبته الأولى لما قتل أخوه مصعب ، فهى فى سطرين[٨] ، وخطبته وقد بلغه قتل عمرو بن الأشدق فهى فى سطر واحد[٩] ، وخطبة عبد الملك لما علم بثورة ابن الأشعث ، فهى فى سطرين[١٠] .

أما الكثرة الغالبة فهى من النوع المتوسط بين الإيجاز والطول .

---

(٥) أنف : منقاد يأنف من الزجر والضرب .
(٦) شرح نهج البلاغة ٤/١٦ .
(٧) الكامل للمبرد ٢/٦١ .
(٨) البيان والتبيين ٢/٤٧ .
(٩) المرجع السابق ٢/٤٧ .
(١٠) تاريخ الطبرى ٨ ١٠ .

- ٧ -

التأثر بالقرآن الكريم

تأثر كثير من الخطباء بالقرآن الكريم ؛ إذْ عُنى كثير من المسلمين بحفظه وتفسيره ، واشتهر فى كل مدينة جماعة من المفسرين والمحدثين والفقهاء .

وقد ظهر التأثر بالقرآن الكريم فى مظهرين :

١ - الاقتباس :

كثر الاقتباس من القرآن ، والمهارة فى وضع الآيات بالمواضع الملائمة لها من الخطبة ، حتى ليحسب الذى لا يحفظ القرآن أن الكلام كله للخطيب .

وإنما عمد الخطباء إلى الاقتباس ، لأنهم يتذوقون بلاغة القرآن ، فيجدون فى الآيات التى يقتبسونها تعبيراً صادقاً عما يريدون أن يقولوا ، ثم لأنهم يعرفون استجابة سامعيهم للبلاغة ، فيضيفون إلى بلاغتهم هم وإلى تأثيرهم الخطابى أعظم ذخيرة من البلاغة ، وسلطان الدين .

يقول الجاحظ : « وكانوا يستحسنون أن يكون فى الخطب يوم الحفل ، وفى الكلام يوم الْجَمعْ آىٌ من القرآن ، فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والرقة وسَلسَ الموقع .

ثم يروى عن عِمْران بن حِطَّان قوله : إن أول خطبة خطبتها عند زياد — أو عند ابن زياد — فأعجب بها الناس ، وشهدها أبى وعمى ، ثم إنى مررت ببعض المجالس ، فسمعت رجلا يقول لبعضهم : هذا الفتى أخطبُ العرب لو كان فى خطبته شىء من القرآن[1] » .

(١) البيان والتبيين ١/١١٨ .

على أن الاقتباس من القرآن كان الطابع الغلاب فى الخطب الدينية والوعظية ، ولهذا أسموا خطبة الوعظ أو الدين إذا خلت من القرآن شَوْهاء .

أما الخطب السياسية فقد غلب فيها الاستشهاد بالشعر .

١ - والأمثلة على الاقتباس كثيرة .

منها قول أبى حمزة فى تزكية القتلى من أصحابه : « فطوبَى لهم وحُسْنُ مآب » من قوله تعالى : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات طُوبَى لهم وحُسْنُ مآب »[٢] .

وقول صالح بن مُسَرِّج : « الذين يهدون بالحق وبه يَعْدِلون » .

من قوله تعالى : « وممن خلقنا أمةٌ يهدون بالحق ، وبه يَعْدِلون »[٣] .

وقول الحسين بن علىّ : « فمن نكث فإنما يَنْكُثُ على نفسه » فهى كلها من القرآن[٤] .

وقول محمد بن الحنفية : « وكان أمر الله مفعولا ، وكان أمر الله قَدَراً مقدوراً »[٦] فهاتان آيتان قرآنيتان[٦] .

وقول عبد الله بن الزبير : « فسوف يَلْقَون غَيًّا » . فهذه آية قرآنية[٧] . وقوله بعد قتل أخيه مصعب « له الخلق والأمر ، يؤتى الملك مَنْ يشاء ، ويَنْزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء » .

---

(٢) سورة الرعد ٢٩ .

(٣) سورة الأعراف ١١٨ .

(٤) سورة الفتح ١٠ .

(٥) تاريخ الطبرى ٩٧/٧ .

(٦) سورة الأحزاب ٣٧ .

(٧) سورة مريم ٥٩ .

فإن هذا من القرآن الكريم[٨] :

وقول الحجاج : « فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة ، يأتيها رزقها رَغَداً من كل مكان ، فكفرت بأَنْعُم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » .

فهذا قرآن كريم[٩] .

وربما جاءت الخطبة كلها من القرآن الكريم ، كخطبة مصعب ابن الزبير حينما بعثه أخوه عبد الله والياً على البصرة ، فقد حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« بسم الله الرحمن الرحيم . طسم تلك آيات الكتاب المبين : نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون علا فى الأرض ، وجعل أهلها شِيَعاً ، يستضعف طائفة منهم ، يُذَبِّح أبناءهم ، ويستحى نساءهم ، إنه كان من المفسدين (وأشار بيده نحو الشام) .

ونريد أن نَمُنَّ على الذين استُضْعِفُوا فى الأرض ، ونَجْعَلَهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين (وأشار بيده نحو الحجاز) .

ونُمَكِّن لهم فى الأرض ، ونُرِىَ فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يَحْذَرون (وأشار بيده نحو العراق)[١٠] .

فهو فى هذه الخطبة يعتمد على القرآن وحده[١١] ، ويجيد اختيار الآيات المعبرة عما فى نفسه .

ذلك أنه شبه بنى أمية بفرعون فى الطغيان والعدوان على حق الحياة ، وتكهَّن بأن الزبيريين الذين ينكل بهم بنو أمية هم الذين سينزعون الملك منهم

---

(٨) سورة الأعراف ٥٤ وسورة آل عمران ٢٦ .

(٩) سورة النحل ١١٢ .

(١٠) تاريخ الطبرى ١٤٦/٧ .

(١١) سورة القصص ١ - ٥ .

ويرثونهم ، وبأن العراق سيكون مقر ملكهم ، وبأن بنى أمية سيصطلون من نار الزبيريين ما كانوا يخشونه .

٢ – استمداد المعانى :

كذلك كان بعض الخطباء يستمدون من القرآن الكريم بعض المعانى ، يجرونها على ألسنتهم عامدين . ليفخموا بها أقوالهم ، ويجتذبوا نفوس سامعيهم ، أو غير عامدين أن يقتبسوها ، وإنما جرت على ألسنتهم ، لأنهم حفاظ قد فهموا ما حفظوا ، وتأثروا به ، فاستقر فى نفوسهم .

من ذلك قول الحسن فى رده على الذين استنكروا صلحه مع معاوية « إن الله لا مُعَقِّب لحكمه ، ولا رادَّ لقضائه[١٢] » .

فى هذه الجملة نلمح معنى قوله تعالى : ﴿ والله يَحْكُم لاَ معَقِّب لحكمه ، وهو سريع الحساب[١٣] ﴾ وقوله تعالى : ﴿ حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا[١٤] ﴾ .

وهو يقول فى الخطبة نفسها : ﴿ سألنا الله ألا يكلنا إلى أنفسنا ﴾ .

وهذه الجملة تذكرنا بقوله تعالى : ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . ربنا ولا تحمل علينا إصْراً كما حملته على الذين من قبلنا . ربنا ولا تَحَمِّلنا مالا طاقة لنا به ، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين[١٥] ﴾ .

ومنه قول أبى حمزة فى وصف أصحابه : « باعوا أنفسا تموت غداً بأنفس لا تموت أبداً » .

---

(١٢) الإمامة والسياسة ١٢١/١ .

(١٣) سورة الرعد ٢ .

(١٤) سورة الأنفال ٤٢ .

(١٥) سورة البقرة ٢٨٦ .

فإن قوله هذا يذكرنا بقوله تعالى : « من الناس من يَشْرِى نفسه ابتغاء مرضاة الله »[16] وبقوله تعالى . « ولاتحسبَنَّ الذين قُتِلوا فى سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يُرْزَقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله »[17] .

ومنه قول عبد الله بن الزبير فى رثاء الحسين : « أما والله لقد قتلوه طويلا بالليل قيامه ، كثيراً بالنهار صيامه » .

فإنه قريب من قوله تعالى : « ياأيها المزَّمِل قم الليل إلا قليلا »[18] .

ومنه قول صالح بن مُسَرِّح : « وولىَ من بعده عثمان ، فبرئ الله منه ورسوله وصالح المؤمنين »[19] .

فإن هذا قريب من قوله تعالى : وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين ، والملائكة بعد ذلك ظهير »[20] ومن قوله تعالى « براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين »[21] .

وهنا ظاهرتان :

الظاهرة الأولى أنه يكثر الاقتباس فى خطب الخوارج والشيعة والزبيريين ، ويقل فى خطب الحزب الأموى ، ماعدا الحجاج ، لأنه كان يحفظ القرآن ،وكان يعلِّمه .

فهل كان سبب ذلك أن الحزب الأموى من خلفاء وولاة وقواد أقل حفظاً للقرآن كله أو بعضه من الشيعة والخوارج والزبيرين ؟

أوكان سبب ذلك أن بنى أمية لم يقيموا ملكهم على أساس دينى يعتمدون عليه فى دعوى استحقاقهم للخلافة ، على حين أن الأحزاب الأخرى أقامت دعواها على أسس دينية ؟

أما الظاهرة الثانية فهى أن الاقتباس من القرآن الكريم كان فى العصر الأموى أكثر من صدر الإسلام ، فلماذا ؟

لعل من أسباب ذلك أن القرآن الكريم لم يكن فى صدر الإسلام يحفظ كما حفظ فى العصر الأموى ، لأن المعروف أن الرجل كان فى صدر الإسلام يحفظ الآيات

---

(١٦) سورة البقرة ٢٠٧ .

(١٧) سورة آل عمران ١٦٩ .

(١٨) سورة المزمل ١ .

(١٩) شرح منهج البلاغة ٤٠٩/١ وتاريخ الطبرى ٢١٧/٧ .

(٢٠) سورة التحريم ٤ .

(٢١) سورة براءة .

ليتلوها فى الصلاة ، وقلَّ فى ذلك العصر من حفظ سورة أو عدة سور طوال . يدل على هذا قول أنس بن مالك : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جلَّ فى أعيننا .

أما فى العصر الأموى فقد انتشر القرآن ، وكثر حفاظه . إذ كان عثمان قد كتب المصاحف ، ووزعها فى الأمصار ، وجاء بنو أمية فنشروا منها نسخا كثيرة ، فسهُل على المسلمين أن يقرأوا وأن يحفظوا .

ثم إن الجهاد شغل المسلمين فى صدر الإسلام . فلما كان العهد الأمويُ هدأت الفتوح ، وفزع كثير من المسلمين لتلقى العلم ، فكان ابن عباس بمكة وزيد بن ثابت بالمدينة ، وغيرهما فى الأمصار ، يعلمون الناس ويفسرون لهم القرآن الكريم .

وقد كان للوعاظ الذين رتبهم معاوية ومَنْ بعده — ليعظوا الناس فى المساجد ، ويقصوا عليهم — أثر آخر فى حفظ القرآن والحديث الشريف .

وشيء آخر هو أن المسلمين فى صدر الإسلام لم تكن الفرص متاحة لهم ليتشربوا معانى القرآن ، ويمهروا فى الاقتباس منه ، لأن العهد قصير من ناحية ، ولأن الدفاع عن النفس وعن العقيدة شغلهم من ناحية ثانية ، ولأن تشرب القرآن يحتاج إلى وقت من ناحية ثالثة .

— ٨ —

الاستشهاد بالشعر

فى كثير من الخطب استشهاد بالشعر ، أو اقتباس من عباراته ومعانيه .

ومَرَدُّ هذا إلى أن الشعر كان من أصول الثقافة ، وكان تأثيره فى نفوس الناس بعيد المدى ، وكانت هنالك عوامل عدة قد اجتمعت فنهضت بالشعر نهضة عظيمة [1] .

فالحجاج استشهد فى خطبته بالكوفة بشعر رُوَيْشد العنبرى وسُحَيم الرِّياحى ، وعبد الله بن الزبير استشهد فى خطبته بمكة والحجاج يحاصره بهذين البيتين :

أُبِىْ لابن سَلْمَى أنه غير خالدٍ ... مُلاقى المنايا أىَّ صَرْف تَيَمَّما
فَلستُ بمبتاع الحياة بسُبَّةٍ ... ولا مُرتَقٍ من خشية الموت سُلَّما

ثم استلم الحجر ، فتكاثروا عليه ، فحمل عليهم وهو يقول :

قد سنَّ أصحابك ضرب الأعناق ... وقامت الحرب بنا على ساق

(١) راجع كتاب (أدب السياسة فى العصر الأموى) من ١١٨ إلى ٢٥١ .

فأصابه حجر . فصكّ جبينه . فأدماه . فقال :

ولسنا على الأعقاب تَدْمى كلومُنا ولكن على أعقابنا تَقْطُر الدِّما[٢]

وعبد الملك بن مروان استشهد فى خطبته بعد قتل مصعب بشعر لقيس ابن رفاعة ختم به خطبته[٣] .

– ٩ –

القياس

فى بعض الخطب قياس معْتمد على الفطرة لا على الدرس والتعلم . لأن خطباء العصر الأموى لم يكونوا قد اتصلوا بعلوم اليونان وفلسفتهم ومنطقهم . حتى تبدو فى خطبهم مظاهر المنطق المدروس .

جاء فى خطبة للحسين بن علىّ فى أصحابه وفى جند عبيد الله بن زياد الذين ذهبوا إليه ليقبضوا عليه بقيادة ابن يزيد التميمى قوله : «(من رأى سلطاناً جائراً مستحلا لحَرَم الله . ناكثاً بعهد الله . مخالفاً لسنة رسول الله ﷺ . يعمل فى عباده بالإثم والعدوان . فلم يغير عليه بفعل ولا قول . كان حقاً على الله أن يُدخله مُدخَله .

ألا وإن هؤلاء – بنى أمية – قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن . وأظهرو الفساد . وعطلوا الحدود . واستأثروا بالفئ . وأحلُّوا حرام الله . وحرَّموا حلاله . وأنا أحقُّ مَنْ غيَّره » .

وهذه العبارة تؤدى إلى هذا القياس : كل من رأى سلطانا جائراً مخالفاً لأحكام الله وسنة رسوله . فلم يقاومه بفعل أو قول . فقد استوجب عقاب الله .

وبنو أمية جائرون عصاة مارقون من الدين . فالثورة عليهم واجبة . وأنا أول ثائر .

وجاء فى خطبة زياد لما شرع يميل إلى معاوية[٤] قوله : « نظرت فى أمور الناس منذ مقتل عثمان . فوجدتهم كالأضاحى فى كل عيد يذبحون . ولقد أفنى يوم الجمل وصفين ما ينيف على مئة ألف . كلهم يزعم أنه طالبُ حق . وتابع إمام . وعلى بصيرة من أمره . فإن كان الأمر هكذا فالقاتل والمقتول فى الجنة . كلا ليس

(٢) تاريخ الطبرى ٧ ٢٠٤ ومروج الذهب ٢ ١٢٤ .

(٣) الأمالى ١ ١٣٠ .

(٤) كان زياد واليا لعلى على فارس ثم استماله معاوية إليه .

كذلك . ولكن أشكل الأمر . والتبس على القوم . وقد نظرت فى أمر الناس . فوجدت أحمد العاقبتين العافية . وسأعمل فى أموركم ما تحمدون عاقبته » .

والقياس بيِّنٌ فى هذا . كأنه قال :

المتحاربون يوم الجمل وصفين زعموا أنهم على حق . على حين أن الأمر مشكل .

والذين يواصلون الحرب بعد ذلك يشبهونهم .

فالسلامة فى الكف عن الحرب والفتن .

وجاء فى خطبة الحجاج بعد أن قتل عبد الله بن الزبير : « ألا إن ابن الزبير كان من أحبار هذه الأمة . حتى رغب فى الخلافة . ونازع فيها . وخلع طاعة الله . واستكنَّ بحرم الله .

ولو كان شئ مانعاً للعُصاة لمنع آدمَ حرمةُ الجنة . لأن الله تعالى خلقه بيده . وأسجد له ملائكته . وأباحه جنته . فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته .

وآدم أكرم على الله من ابن الزبير . والجنة أعظم حرمة من الكعبة » .

والقياس هنا فى قوله إن ابن الزبير ثائر متمرد احتمى بالحرم . فعاقبناه . فقد كان آدم فى الجنة . ثم عصى ربه الذى كرّمه . فأخرجه منها . وآدم أكرم على الله من ابن الزبير . والجنة أعظم حرمة من الكعبة .

المراجع

مرتبة ترتيبا هجائيا

١ – أسرار البلاغة . الجرجانى
٢ – الأسلوب . الأستاذ أحمد الشايب
٣ – اصطلاحات الفنون . التهانوى
٤ – الأغانى . الأصفهانى . طبعة دار الكتب وطبعة ساسى
٥ – الأمالى . القالى . طبعة دار الكتب
٦ – بلاغة أرسطو بين العرب واليونان . الدكتور إبراهيم سلامة
٧ – البيان والتبيين . الجاحظ . طبعة الأستاذ عبد السلام هارون وطبعة الأستاذ السندوبى الثانية .
٨ – تاريخ الأمم والملوك . الطبرى
٩ – تاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى . الأستاذ السباعى بيومى
١٠ – تاريخ البلاغة والنقد الأدبى . الدكتور إبراهيم سلامة
١١ – تاريخ التربية . الأستاذ مصطفى أمين
١٢ – تاريخ الحضارة . شارل سنيوبوس . ترجمة الأستاذ محمد كرد على
١٣ – تاريخ الفلسفة اليونانية . الأستاذ يوسف كرم
١٤ – تاريخ اليونان . الأستاذ محمود فهمى
١٥ – تهذيب الكامل للمبرد . الأستاذ السباعى بيومى
١٦ – جمهرة خطب العرب . الأستاذ أحمد زكى صفوت
١٧ – الخطابة لأرسطاليس . ترجمة وتعليق الدكتور إبراهيم سلامة
١٨ – الخطابة . الأستاذ نقولا فياض
١٩ – الخطب والمواعظ . الأستاذ محمد عبد الغنى حسن . دار المعارف بمصر

٢٠ – دلائل الإعجاز . الجرجانى
٢١ – دفاع عن البلاغة . الأستاذ أحمد حسن الزيات
٢٢ – رسائل الجاحظ . ثلاث رسائل نشرها يوشع فنكل . المطبعة السلفية ١٩٤٤هـ
٢٣ – روح الاجتماع . جوستاف لوبون . ترجمة فتحى زغلول
٢٤ – شرح نهج البلاغة . ابن أبى الحديد
٢٥ – صبح الأعشى . القلقشندى
٢٦ – صحيفة دار العلوم
٢٧ – الصناعتين . أبو هلال العسكرى
٢٨ – عبرات الشرق على الزعيم سعد زغلول . جمعها البحيرى
٢٩ – العقد الفريد . ابن عبد ربه . تحقيق الأستاذ محمد سعيد العريان
٣٠ – علم الخطابة . الأب لويس شيخو اليسوعى وإميل إده
٣١ – العمدة . ابن رشيق القيروانى
٣٢ – قواعد المنهج فى علم الاجتماع إميل دوركها يم . ترجمة الدكتور محمود قاسم
٣٣ – الكتاب الذهبى للمحاكم الأهلية
٣٤ – محاضرات الدكتور إبراهيم سلامه فى الخطابة
٣٥ – محمد فريد . الأستاذ عبد الرحمن الرافعى
٣٦ – مروج الذهب . المسعودى المطبعة البهية المصرية ١٣٤٦هـ
٣٧ – نظرية الأنواع الأدبية . تأليف فنسيه . ترجمة الدكتور حسن عون سنة ١٩٥٨
٣٨ – المرافعة . الأستاذ حسن الجداوى
٣٩ – مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية . الأستاذ عبد الرحمن الرافعى
٤٠ – المغازى . الواقدى
٤١ – مقدمة أدب الكاتب . ابن قتيبة
٤٢ – The Art of Litrarv Literary. H. B. Charlton

الفهرس

الفصل الثامن : الخطابة فى تصور الأمم

الفصل التاسع : الخطابة السياسية فى العصر الأموى


نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع


نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع